جامعة الكوت
مركز البحوث والدراسات والنشر

ISBN: 978-9922-726-68-7

حروب التوغل الفرنسي

ومقاومتها في أرض البيظان

قراءة في التاريخ الموريتاني المعاصر

تأليف

سيدي محمد بن جعفر

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر

جامعة الكوت

٩٦٦ / ١٠٢

أ ٣٦٧ أبن جعفر ، سيدي محمد .

حروب التوغل الفرنسي و مقاومتها في ارض البيظان /

سيدي محمد بن جعفر . - ط١. - بغداد: مطبعة جامعة الكوت ،

مركز البحوث والدراسات، ٢٠٢٦ .

٢١٦ ص : ٢٤ سم .

١ - الاحتلال الفرنسي لموريتانيا (١٩٠٣ - ١٩٦٠) - تاريخ حديث

- أ - العنوان.

رقم الايداع

٧٩٦/ ٢٠٢٦

المكتبة الوطنية/الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٧٩٦ لسنة ٢٠٢٦م

ISBN: 978-9922-726-68-7

ملاحظة

مركز البحوث والدراسات والنشر في كلية الكوت الجامعة
غير مسؤول عن الافكار والرؤى التي يتضمنها الكتاب
والمسؤول عن ذلك الكاتب او الباحث فقط.

University of Kut

مطبعة جامعة الكوت

قائمة المحتويات

Sommaire

قائمة المحتويات 1

المقدمة 4

مقدمة الطبعة الأولى 7

الفصل الأول: الجغرافيا الأرض والشعب 10

منطقتا الشرق والكبلة الواقع والخصوصيات 18

سلطنة أولاد امبارك النهاية الغامضة 23

نخب البيضان العالمة والموقف من الاستعمار 37

شيوخ ومشيخات مرحبة ومتحالفة مع لفرنج: 51

فقهاء ضد حروب الاتراك.. ورأي الفرنسين في الإسلام: 67

البيعة السياسية والبيعة الروحية: 73

الفصل الثاني: الجهاد شحنة المقاومة المغيبة 81

فرنسا نحو التوغل في أرض البيضان.. 87

عبور النهر وبداية الصدام المسلح. 91

احتلال الترارزة.. الطريق إلى تكانت 96

استشهاد الأمير بكار.. صفعة المقاومة الكبرى 105

مقتل كبلاني.. قراءة في الحدث 110

معركة انيملان.. تلاحم القبائل وحصار تجكجة ومعارك عديدة 127

حملة احتلال آدرار 144

المقاومة في الحوض: أولاد داود يقودون جبهة الرفض 151

اهل عبدوك مقاومة الحوض الأكثر عنفا وزخما 159

شخصيات رافضة تختفي في ظروف غامضة: 175

أيام.. ينبغي أن تدخل ذاكرة تاريخنا 178

تصدع المقاومة: 190
الفصل الثالث: من المقاومة المسلحة إلى النضال السياسي ومشروع الدولة الحديثة 193
نحو قيام دولة البيضان 198
ملاحظات حول بعض خيارات دولة آمالزن 201
تساؤلات .. لها مشروعيتها: 204
المصادر والمراجع: 210
المراجع بالعربية ..... **Error! Bookmark not defined.**
المراجع الأجنبية 215

أبيات للشاعر محمد المختار بن خوك من قبيلة ايديشلي فرع أهل التناكي وحفيد المجاهد السالك بن محمد السالك الملقب "اجاس" المشارك في عملية قتل كبولاني.

تبين وجه الحق بعد الحوالك	وأضَ سنام المجد مجدِ المعارك
معارك للاجداد قل نظيرها	تمد على الكفار كل المسالك
سيخبرك الأدرى بها وجذيلها	ويأتيك بالأخبار عبر المدارك
كتاب أزال الستر عن كل غامض	وفاءَ لماء الحي أودم هالك
وكاتبه الأسمى فلاجف حبره	ولا زال آتِياً على كل هاتك
هو الفاضل المفضال سيد محمد	بني جعفر الأوفى بحق المشارك
سليل ذرى الأشراف آل محمد	عليه صلاة الله جل من مالك

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يبدو تاريخ المقاومة من أكثر القضايا "المظلومة" في هذه البلاد. ورغم أنه من السهل فهم أسباب إبعاد المقاومة، أو تقزيمها، في المناهج الدراسية الموريتانية منذ تسليم فرنسا زمام البلاد لأصدقائها الخلص، إلا أن الأمر اتسم بالإصرار لدرجة اعتبرت غير منصفة تجاه الماضي كمخزون يملكه الجميع ويشكل مرجعية للجميع.

وبالغوص في كتاب الباحث سيدي محمد ولد جعفر ندرك أن هذه الأسباب ربما كانت دافعه الأساسي للكتابة عن المقاومة عساه ينفض عنها غبار "التموقف" فيعيد لها رونقها كحدث وازن في هويتنا التاريخية.

قد لا يتفق المهتمون على فحوى ما بين سطور "حروب التوغل الفرنسي ومقاومتها في أرض البيظان"، وقد يعتبره البعض "تمجيدا لحراك بسيط لا يعي أهدافه الوطنية"، وقد يرى فيه آخرون "إنصافا لأنصع معاني الذود عن الكرامة الجمعوية"، كما يمكن لآخرين أن يستشفوا منه "نقاشا مستميتا، مبالغا فيه، لتأكيد البعد الجهادي في هذا الكفاح المسلح"، لكن ما يشكل محل إجماع لكل من قرأوا الطبعة الأولى، هو الجهد الجبار في الجانب لكرونولوجي للكتاب. إذ أعاد الكاتب ترتيب أحداث كانت مشوشة في المخيال السردي، وركّب تأريخات لأحداث كانت مبتورة عن سياقها الزمني، وأيقظ معارك وانتصارات طواها النسيان، عن سبق إصرار تارة.

لقد وضع الباحث أساسا سميكا لإعادة بناء الجزء المنسي من تاريخ موريتانيا. وأضحى بإمكان الباحثين أن يقدموا إسهاماتهم في ترميم مبنى المقاومة من خلال صقل المفهوم، وطرح الإشكاليات، وجرد النتائج، وتقديم الإجابات؛ علّ المناهج، تبعا لذلك، "تفهم" أنها قصّرت وتقاصرت.

أول ما يشد القارئ في كتاب "حروب التوغل" ثراء وتعدد وتنوع مصادره؛ إذ تأخذنا في رحلة ممتعة ومفيدة من "ابن كثير" إلى "ولد أحمد يوره"، مرورا بـ"إزيد بيه ولد محمد محمود"، و"ابيير بونتي" و"محمد المختار ولد السعد"، وصولا إلى "جعفر ولد المهدي". مئات التقارير والندوات والشخصيات التي استقى منها الكاتب، أو عاد إليها، أو عضد بها، أو فسر من خلالها بعض الطروحات والأحداث التاريخية المهمة.

ثراء المصادر، والموضوعية في ذكرها جملة وتفصيلا، يدفعان القارئ إلى الدخول في صلب الكتاب وقراءته سطرا سطرا. وما إن تصطاده شراك السرد والتحليل حتى يجد نفسه بين فصول تاريخية وتاريخانية مليئة بأحداث كانت مشوهة في المخيال أو مجهولة أو مغبرة أو مصادرة.

يبدأ الكاتب بـ"مجتمع البيظان وإشكالية العرق وميزة الثقافة العالمة". يتحدث عن "الانصهارات الكبيرة" بين الآزيريين والبافور والزنوج المعربين والمصنهجين والعرب المعاقلة وصنهاجة والبربر. تلك "العجينة العرقية" التي أعطت لهذا المجتمع ميزته وخلقت فيه "ثقافته العالمة". ثم يحملك الكاتب إلى "الشرق والقبلة: منطقتي النقل والاستقطاب" من حيث واقعهما "السوسيوسياسي إبان تحرك الاستعمار" لدخول المجال، دون أن يغفل دور "شربيه" في ممارسة ما أسماه "الحق السياسي"، وإن اختلفت الآراء والمواقف.

وبما أن الحديث موصول فقط بـ"أرض البيظان" فلا غرابة في أن يمر الكاتب على "النهاية المربكة لإمارة أولا امبارك" شارحا حروبها البينية وتصادمها مع الفوتيين وحربها مع مشظوف. ثم يستطرد معمقا البحث حول الشخصيات الدينية "المرحبة بالاستعمار"، "المتحالفة معه"، وتلك الفارة منه "المقاومة له". وفي خضم ذلك يصل إلى مبتغاه، أو أحد مبتغياته، وهو "الجهاد في بعده التاريخي" ونصاعة مبرراته. ثم لا نعدم قراءة متأنية عن "عبور النهر وبداية الاحتكاك المسلح" و"احتلال الترارزه" و"الجبهات المفتوحة في الطريق إلى تكانت عبر البراكنه". وهنيهة يبدأ العد التنازلي لانهيار المقامة مع "سقوط الأمير بكار ولد اسويد أحمد" رغم مقتل كبلاني ورغم "اشتعال الجبهة من جديد" وتحول جذوة الكفاح إلى إينشيري. وهكذا تحط سفينة الكاتب عند عنوان شيق وموفق؛ ألا وهو "ظهور أهل عبدوك في الوقت الضائع" وإن كان لمقاومتهم إسهاماتها الجليلة من حيث المحتوى.

وأخيرا يتدرج الكاتب ليميط اللثام عن "شخصيات رافضة اختفت في ظروف غامضة". إلى أن تتوقف كل عمليات الكفاح المسلح، ويبدأ الصراع المرير: "النضال السياسي ومشروع الدولة". صراع ما يزال مفهوم "الوطن" يدفع ثمنه إلى اليوم.

وخلاصة القول ان كتاب "حروب التوغل الفرنسي في أرض البيظان" جدير بالقراءة ومثير لجملة من الإشكاليات المسكوت عنها.

نواكشوط، بتاريخ 8 مايو 2012

محمد فال ولد سيدي ميلله

مقدمة الطبعة الأولى

قبل عامين ونيف وبعد نقلة في تفكيري تمثلت في اهتمام غير مسبوق من طرفي بالشأن المحلي،نظرا للمرحلة التي يعرفها البلد، كانت أفكار متضاربة تسيطر علي وتتقاذفني، بعضها موغل في التشاؤم يجعلني أنظر بشيء من الأسى إلى كل التصرفات غير المستساغة التي تمارس في واقع حياتنا اليومية والسياسية وبمباركة من النخب، وعدم نفور الذوق العام للمجتمع من تلك الممارسات، إلى درجة أنها صارت وكأنها جزء من موروثنا التاريخي، وأنه أصبح يعبر عن نفسه علناً بعد أن خفت القيود التي كانت تحجبه عن الجمهور.

من تلك الأفكار التي شغلت حيزاً من اهتماماتي، انتشار الوقاحة السياسية، وثقافة الفساد والوقيعة والتملق، والسخرية من كل ماضينا، خاصة في جانبه ذي البعد النضالي، وصارت هذه الوضعية قِيما ومُثلاً تُحظى بالاحترام –تقريبا– من طرف جل الطبقات، باختلاف مشاربهم الأيدلوجية، وقيمهم الاجتماعية، علما بأن هذه القيم تكاد كل الأمم والحضارات والثقافات تتفق على نبذها.

تجذرت هذه النظرية في النفوس وانساق وراءها بعض المثقفين، حتى أصبحت تبدو وكأنها امتدادا طبيعيا لماضينا، إذ كيف يُصدق أن ينقلب نفس الجيل –الذي واكب قيام الدولة، وعاش جله في أحضان البداوة بكل نقائها كما يقولون– على الثوابت الاجتماعية والأخلاقية التي يتحدثون عنها، وبهذه السرعة، علما بأن طفرة كبيرة من أي نوع لم تحدث حتى يهتز المجتمع وقيمه ومثله ليصل إلى مرحلة التنكر للماضي، بل وحتى السخرية منه. إن حركة سير مجتمعنا الحضارية كانت ومازالت بطيئة جدا ومتخلفة، حيث لا يظهر في الأفق القريب أي تحسن لها.

أفكار أخرى أقل تشاؤما من هذه وأكثر واقعية كانت تراودني، ترى أن ما نمر به من تمزق وجداني وتسيب أخلاقي وضياع للهوية هو مرحلة فقط من مسيرة المجتمع، لها أسبابها الموضوعية. وأن هناك شيئا ما مسكوت عنه في ماض المجتمع القريب هو المؤسس لها، ينبغي البحث عنه لأن معرفة السبب تبطل العجب.

ولما كان تاريخنا السياسي المعاصر يصعب فصله عن سياقه التاريخي المتمثل في الحقبة الاستعمارية باعتبارها هي التي صاغت مجتمعنا الحديث، وجعلته يتجه نحو الدولة المركزية، التي فقدها منذ قرون -إن كان قد عرفها أصلا- ـــ فإننا سنخصص هذه الدراسة لجزء من تاريخه المتمثل بالخصوص في مواجهاته المسلحة مع الاستعمار الفرنسي،وهي مواجهة نعتقد أنها لم توت حقها من البحث والتدقيق حتى الآن.

ولكون هذه الحقبة مهمة بالنسبة لحاضرنا ومستقبلنا، إذ أن الأمة لا بد لها من ذاكرة تحفظ لها مسيرتها، فقد حاولت رغم أني من خارج حقل الدراسات التاريخية ومناهجها وأدواتها البحثية بكل ما تتطلب من فنيات ومهارات، مع ذلك حاولت جمع شـــذرات حتى لا أدعي الإحاطة بالموضوع أو حتى الجزء اليسير منه في هذه الدراسة، ومع ذلك فقد واجهت التحدي والصعاب، ودخلت المغامرة غير مسلح بأي شيء ذي أهمية، وكلي أمل في المشاركة بقسط متواضع يكون لبنة (ولو من طوب) قد تذكر أهل الخبرة من الباحثين الوطنيين أن هذا الموضـــوع بحاجة إلى العناية، فيكون عملي المتواضـع مهمازا يحيي فيهم رغبة البحث والتنقيب، إذ هم المؤهلون لذلك أكثر مني، وهم المسلحون بأسلحته الكافية، فيكشفون لنا خفايا لا نعرفها عن مقاومتنا.

لقد كانت مفاجئتي كبيرة عند ما اكتشـــفت مع قراءتي الأولى للمصـــادر التي اطلعت عليها حول الموضـوع كم كان أسلافنا على مستوى التحدي الذي واجههم، وكم كان استعدادهم كبيرا للدفاع عن وطنهم بكل ما يملكون من أدوات متواضـــعة بل وبدائية، وكم نحن مقصـــرون في حقهم، فما زال جلنا – ولهم أسبابهم الموضـوعية- يعتبروننا شـعبا خارج السـياق المقاوم،تلك الفئة بنظرتها تلك تصـــدر عن خلفية محكومة ربما ولو عن غير قصـــد بتوجهات دولة الاستقلال التي لم تعط موضوع المقاومة أهميته الكبرى في المناهج المدرسية التي تربت عليها الأجيال حسب اعتقادنا.

ففي تتبعنا لتاريخ هذه المقاومة فاجأتنا مشـــاركة كل الطبقات، وكل الجهات- تقريبا في العمليات الحربية، من أقصى شمال أرض البيظان إلى جنوبها، ومن أقصى شرقها إلى غربها، علماء شاركوا بأقلامهم محرضين ومخوفين من التخاذل عن أمر المقاومة ومذكرين بما ينتظر المجاهدين من الثواب والخير الكثير، محذرين في الوقت نفســـه القاعدين مما ينتظرهم من

الوعيد الإلهي، وأمراء مّجنِدين ومقاتلين من أجل حماية الوطن، وما بينهما من طبقات وأفراد عاديين، من زهاد حركات التصوف، ومزارعين ومنمين يخفون جمالهم وحصاد مزارعهم حتى لا تكون مطايا، ومؤن يركبها جنود الاحتلال أو علفا لمواشـــيه التي يســـتغل في حملة احتلال البلاد... كل ذلك فعلوه من أجل الاستقلال، أجل هذه الأعمال منسية كلها ولا نستشعرها ولا نقدرها ولا نهتم بها، من هنا اعتقد أن الوقت قد حان للتفكير في المقاومة بجد، وتناولها بموضوعية، والعناية بها كما تستحق.

وادي الشريف 20 ابريل 2005

سيدي محمد بن جعفر

الفصل الأول.

الجغرافيا الأرض اوالشعب .

تقع أرض البيظان المجال الذي يتناول هذا الكتاب مقاومة أهله في الحاجز الرملي الذي يفصل شمال القارة الإفريقية عن جنوبها، والممتد من شواطئ الأطلسي غربا، إلى جمهورية مصر شرقا، وقد عرفت أجزاء الصحراء الكبرى الغربية محل هذه الدراسة من ذلك الحاجز تسميات مختلفة عبر التاريخ المحفوظ، خاصة عند مؤرخي ورحالة العرب، وتحظي ثلاث تسميات بحضور مكثف في مصادر ومراجع تاريخ هذه المنطقة، ولعل من أقدم تلك التسميات تسمية "صحراء الملثمين أو بلاد الملثمين" التي أطلقها كُتاب "المسالك والممالك العرب " في القرون الوسطى، واصفين سكان هذا الجزء من الصحراء بعادة اللثام التي تنتشر بينهم.

يقول اليعقوبي إن " شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائهم، سنة فيهم ولا يلبسون قُمصا إنما يتشحون بثيابهم [1] " أما بن حوقل فيرى أنهم "يتلثمون وهم أطفال وينشأون على ذلك[2]" ويصفهم البكري بالقول" جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب،وهو فوق اللثام،حتى لا يبدو منه إلا محاجر عيونهم،ولا يفارقهم ذلك في حال من الأحوال،ولا يُميز رجل منهم وليه وحميه إلا إذا انتقب، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعرف من هو حتى يُعاد عليه القناع، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم [3]" بينما ذهب بن خلكان إلى أن " اللثام هو سبب التسمية[4]"

وتأتي في المرتبة الثانية من حيث القدم تسمية بلاد التكرور وهي تسمية محلية بمعنى أن بعض علماء المنطقة أطلقوها على أجزاء من الإقليم، والتكرور في الأصل هي "إمارة –زنجية– في أقصى الشمال الغربي لبلاد السودان غير بعيدة من مصب نهر السنغال، ويعود التوسع في

---

[1] أبو العباس أحمد بن إسحاق اليعقوبي كتاب البلدان منشورات المكتبة احيدرية النجف 1957 ص 111

2 أبو القاسم محمد بن حوقل كتاب صورة الأرض ص 99 منشورات مكتبة الحياة بيروت 1979

3 أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري كتاب المغرب في ذكر إفريقية والمغرب المطبعة الحكومية الجزائرية ص170

4 أحمد بن إبراهيم بن خلكان كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج 8 ص 120 دار الثقافة بيروت 1971

دلالة إطلاقها على المنطقة إلى أن أول حجاج وصلوا المشرق بأعداد مميزة قدموا من الإمارة المذكورة "

وفي المرتبة الثالثة من حيث القدم تأتي تسمية شنقيط وهي الأكثر زخما في الاستعمالات الحديثة والمعاصرة "وقد ورد ذكرها موثقا لأول مرة في تاريخ السودان للسعدي [5]" وساعد في انتشار هذه التسمية ازدهار الثقافة في المجال منذ القرن 10 هجري وظهور علماء ينتسبون إليها جابوا حواضر الإسلام ودرسوا ببعض مؤسساتها[6] " .

وقد أطلق علماء محليون تسميات توصيفية على هذا المجال الجغرافي، حيث سماها الشيخ محمد لمامي بن البخاري من علماء القرن 13 هجري في كتاب البادية "بالمنكب البرزخي وبلاد الفترة" حيث قال " ونحن أهل بادية في فترة من الأحكام بين العمالتين الإسماعيلية والبوصيابية " كما ظهرت تسمية أخرى هي بلاد المغافرة –نسبة إلى أبناء مغفر بن اودي بن حسان من عرب المعاقلة الهلاليين– ضمن التسميات التي تصف الحالة السياسية، وقد وردت هذه التسمية عند محمد فال بن بيبيه العلوي " انتهي الكلام على ما وجدنا من خبر المغافرة منذ دخلوا هذه البلاد الصحراوية التي تسمى عند من أدركنا من الكبار في عرفهم بلاد المغافرة[7]"

ورغم تعدد التسميات التي أطلقت على هذا المجال الجغرافي عبر العصور فإن حدوده ظلت متقاربة لدى جل الباحثين فإذا كانت المصادر العربية الوسيطية حددتها بأنها " مسيرة شهرين في شهرين بين بلاد السودان وبلاد الإسلام " فإن علماء المنطقة حددوها بصورة أكثر دقة فنجد البرتلي يقول "والتكرور إقليم واسع ممتد شرقا إلى ادغاغ، ومغربا إلى بحر بني زناقية، وجنوبا إلى بيط، وشمالا إلى آدارا [8]" ويقول سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي "وكان الركب يمشي من شنقيط إلى مكة كل عام ويحج معهم من أراد الحج من سائر الآفاق حتى أن أهل هذه البلاد أعني من الساقية الحمراء إلى السودان إلى آدارار يعرفون عند أهل المشرق إلى لآن بالشناقطة " وفي حديث الشيخ محمد لمامي عن عدم وجود عملة للتبادل التجاري لأهل المنطقة يحددها

---

5 الخليل بن النحوي بلاد شنقيط المنارة والرباط ص 77 منشورات بيت الحكمة تونس 1987

6 عبد الله ولد محمد سالم الشعر الشنقيطي من القرن 12 هجري إلى 13 هجري المرجع والبنية ص 3 أطروحة دكتورة الدولة جامعة محمد الخامس الرباط السنة الجامعية 2000 –2001

7– محمد فال بن بيبه العلوي كتاب التكملة ص 80 منشورات بيت الحكمة تونس 1986

8– البرتلي الطالب محمد بن أبي بكر الصديق فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور منشورات دار الغرب الإسلامي بيروت 1986

بأنها " الممتدة من آكمين سين لوي –السنغال– إلى واد نون ولا توجد بها سكة، ولا يوجد فيها من الحلي ما يفي بالقيم[9]"ويحدد أحمد بن الأمين القطر الشنقيطي بقوله "ويحد هذا القطر شمالا الساقية الحمراء، وهي تابعة له، وجنوبا قاع بن هيب وهو تابع له أيضا، وشرقا ولاتة والنعمة[10] وهما تابعان له أيضا، وغربا بلاد سنكال أو سنغال وهي خارجة عنه[11] " .

من خلال محاولات علماء هذه المنطقة تحديد مجالهم الجغرافي يمكن ملاحظة رصدهم للخصائص اللغوية والاجتماعية والبيئية بعيداً عما سيعرف بعد الفترة الاستعمارية وحتى الآن بالتاريخ الوطني.

وفي الإطار نفسه استعمل الرحالة والمكتشفون الفرنسيون مصطلح " تُراب البيظان[12]" للدلالة على سكان هذا الجزء من الصحراء الكبرى، قبل أن يستقر استعمال مصطلح موريتانيا على جزء من أرض البيظان،وهي تسمية درج جل الباحثين الموريتانيين على اعتبار مهندس احتلال موريتانيا كزافيي كبولاني هو أول من أطلقها، وهو خطأ صححه الدكتور محمدو بن محمدن بقوله" أما إطلاق تسمية موريتانيا على هذا الجزء الجنوبي الغربي من الصحراء فليس من ابتكار الإداري الفرنسي كزافيي كبولاني، كما هو شائع لدى المهتمين بتاريخ الفترة الاستعمارية في موريتانيا، فقد أطلق الضابط جان فرنصواي كاي تلك التسمية على هذه المنطقة سنة 1843 وذلك قبل أن يتبناها كبولاني بأزيد من نصف قرن من الزمن أي في نهاية القرن الماضي (19) ومطلع الحالي القرن(20) عند ما بدأت الوثائق الإدارية الفرنسية تحمل اسم موريتانيا الغربية إلى جانب ترجمتها باللغة الفرنسية "تُراب البيضان" وتمتد هذه البلاد حسب كبولاني من نهر السنغال جنوبا والمناطق الواقعة بين مدينة خاي وتمبكتو شرقا إلى رأس جيبي غربا وحتى جنوب الجزائر شمالا[13]" .

هذه الصحراء الشاسعة بسكانها الملثمين، وخصائصها الاجتماعية المميزة كانت محط أنظار الفرنسين منذ أن سيطروا على الجزائر والسنغال لعدة عقود من الزمن قبل أن يتحركوا من أجل احتلالها لربط مستعمراتهم كما يرى البعض، أو للحصول على المزيد من الأراضي التي تختزن

9- محمد المختار ولد اداري الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الترارزة 1770-1830 ص 85 مذكرة لنيل الإجازة في التاريخ جامعة نواكشوط

[10] ولاتة إحدى المدن الأثرية بموريتانيا أما النعمة فقد أسسها آل مولاي صالح وهم مجموعة من أشراف ولاتة سنة 1222هجرية 1808

[11] احمد بن أمين العلوي كتاب الوسيط في تراجم ادباء شنقيط الطبعة الرابعة القاهرة 1987

12-البيظان تسمية يطلقها العرب في موريتانيا على أنفسهم

[13] محمدو بن محمدن وثائق من التاريخ الموريتاني ص 53-54 منشورات جامعة نواكشوط 2001

في باطنها المعادن الثمينة والثروات الكثيرة التي شكلت عنصرا من أهم العناصر التي دفعت القوى الغربية في القرنين الماضيين إلى غزو القارة الإفريقية حيث "شهد النصف الثاني من القرن 19 تنافسا بين الدول الاستعمارية للحصول على المزيد من الأراضي في القارة الإفريقية، وقد اهتمت أسبانيا وفرنسا على الخصوص بمنطقة الصحراء الكبرى".

لن نتفاجأ إذاً إن وجدنا أبناء قبائل الصحراء الغربية، وقبائل أزواد بشمال جمهورية مالي، وأبناء قبائل منطقة تيندوف بجنوب غرب الجزائر وهم يقاتلون إلى جانب إخوتهم الموريتانيين لمنع فرنسا من بسط سيطرتها على هذا الجزء من أرضهم قبل أن تتقاسه مع إسبانيا، وتقسم هي –أي فرنسا– الاجزاء التي حكمت بين عدة دول، البيظان وحدهم حفظوا لنا جغرافيا بلادهم بدقة فائقة يمكن الاعتماد عليها لمعرفة أرض البيظان بغض النظر عن جغرافيا دول ما بعد الاستعمار.

من هو شعب البيضان؟.

شـــعب البيظان[14] مزيج من الأعراق المندمجة عبر تحولات تاريخية معقدة وطويلة يطغى عليه من ناحية الكم والكثافة التاريخية العنصـــر الصـــنهاجي[15] "المعرب" وهو شـــعب اختلف المؤرخون و الباحثون حول اصـــله هل هو بربري أم حميري؟ ومن الناحية الثقافية والاجتماعية يطغي العنصر العربي، خاصة، بني هلال في نسختهم المعقلية الحسانية المنساحة في هـــذه الربوع، والتي "تنحدر من عرب نجد.. وقبل وصـــول هذه القبائل العربية إلى البلاد الموريتانية الحالية مرت بمسيرة طويلة".

إضافة إلى وجود فقعات نتجت عن انصهارات الاجناس مختلفة نتج عنها مجتمع هجين مثل البافور[16] والأزير[17] الشعبين القديمين والمنقرضين الآن واقعيا، والذين لم يبق لهما سوى مياسيم

---

14 . محمدو ولد محمدن: المجتمع البيضاني في القرن التاسع، مرجع السابق، نفس الصفحة.

15 - إزيد بيه بن محمد محمود: الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، الطبعة الثانية، المطبعة الوطنية الموريتانية، نواكشوط، 2002م، ص69

16 . البافور شعب مختلف في أصوله كان يسكن منطقة آدرار يرى بعض المؤرخين أنه من صنهاجة، بينما يرى المؤرخ البوركيناني جوزيف كازربوا أنه من أصول يهودية، وأنه هاجر من المغرب إبان الاجتياح الهلالي. أنظر كتابه:

.Joseph Ki-zerbo :Histoire de L' Afrique noire, P.U.F, Paris,1978, p107

17 ـــ الأزير مزيج من صنهاجة والزنوج كانوا يعمرون منطقة تيشيت وولاتة، وقد اندمجوا في مجتمع البيظان. وأصبح بعضهم يعرف بمساسة و يسكن بعضهم في تيرني بولاية الحوض الغربي. ولعل سكان قريتي: أغور تكداوس والتخمية المحاذيتين للحدود الشرقية لموريتانيا قرب مدينة عدل بكرو من بقايا شعب لأزير، علما بأن لهم لسانا مختلفا عن ألسن زنوج المنطقة ويضم بعض الألفاظ السلوكية كما هو حال الأزيرية القديمة.

حضـــارية تشـكل مرتعا خصـــبا للأركيولوجيين والمؤرخين، فأصـــبح هذا الشـــعب بفعل هذا الانصهار مختلفا في عاداته وتقاليده عن بُعده المغربي في الشمال.

"ومن المؤكد أن الدين الإســـــلامي، الذي يوجد في هذه المنطقة منذ القرن الثاني الهجري، والذي تعزز بفضل قيام الدولة المرابطية، قد سهل عملية التمازج والوحدة الثقافية، كما أن تشابه نمط العيش لدى عرب المعقل الوافدين وصـــنهاجة الصـــحراء قد ســـاعد من جانب ثانٍ في هذه العملية، فتقوت ظاهرة التعريب لتشـــمل تقريبا جل القبائل بمن فيها تلك المنحدرة من أصـــول صنهاجية، والتي باتت تبحث لنفسها عن رابطة جينالوجية ترفع نسبها إلى أصول شريفة أو إلى إحدى القبائل العربية الأثيلة"[18]

ننبه كذلك إلى أن هذه البنية المعقدة التي أشرنا إليها يحمل موروثها الثقافي في كنهه دلالات عميقة مثقلة بإيحاءات غامضـــة، ربما تكون لحضـــارات وشـــعوب قديمة ومجهولة حتى الآن لم تُعرف ولا يُراد أن يعرف عنها الكثير، كما يبدو من عزوف الباحثين عن الحديث عنها، فالمسـموح به على مسـتوى الدراسـات المهمة هو التاريخ الرسـمي (ذي البعد السـلالي) وليس التاريخ الثقافي (ذي البعد الحضاري) الذي نحن بحاجة ماسة إليه لتسليط الضوء -ولو جزئيا- على ذلك المخزون الحضـــاري الغابر الذي أصـــبحنا لا نشـــعر بالانتماء إليه لأننا لم نعد جزءاً منه بل إننا مبتورون عنه، فهو لا يمثل بالنسـبة لنا شـيئا ولا نعتقد أننا امتداد له، حيث لا نفكر فيه بمنطق علمي يجعلنا نتصور أن بعض المكنونات الاجتماعية والثقافية يمكن أن تكون بقايا لإشعاعات حضارية جبارة مثلت بُعدًا إنسانيا في القديم وهي التي تُمثل رتوشها الإبداعية والفنية في ثوابتنا الثقافية الحديثة والمعاصرة دون وعي منا، رتوش نفضل البحث لها عن جذور خارج ذواتنا بدوافع أيديولوجية لا شـــعورية، قد يســـاعد البحث المجرد داخل تلك الرتوش، وبناياتنا الاجتماعية، وتاريخنا الثقافي القديم (جدا) إلى الوصول لمعرفة حقيقة تلك الرتوش.

أما التاريخ الرسمي(السلالي في الغالب) فما زال محكوما هو الآخر وإلى حد كبير، بالأصلين العربيين (الحميري- والقرشـي)،الحميري بألوانه الباهتة ونظرياتنا الموغلة في "الأصـولية" حوله، فقل أن تجد أحدا منا يتســاءل، ولو منهجيا، عن حمير هل هي من القبائل العربية المنقرضـــة

18 . محمد ولد محمدن: المجتمع البيظاني في القرن التاسع عشر، ص211.

قبل البعثة مثلا؟ خاصـــة وأن مؤرخي الإســـلام لا يذكرون لها زخما كبيرا في أحداث التاريخ الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هل شهدت تحولات حورت ادواها واخذتها مجموعات منحدرة منها طغت عليها تسميات انست الأصل الحميري لها .

مما لا شـك فيه أن سـؤالا من هذا النوع له قدر من الوجاهة والمعقولية المنهجية، لو طُرح فلربما ساعد على فهم أو نقاش أيُّ الآراء في هذا الشأن أقرب إلى المعقولية والصواب؟ بمعنى هل آراء مؤرخي الإسلام القدماء جداً كالطبري ومنتحليه ومقلديه الآخذين بمقولة هجرة الشعوب اليمانية في مرحلة ما بعد فيضـــانات ســد مأرب أو غزوات "إفريقش" أولى بالاعتماد كمرجعية للأصـــل الحميري لصـــنهاجة؟ أم الرأي الخلدوني الذي اعتبرهم هاجروا من بلاد كنعان عبر البحر المتوسـط، وبالتالي إسـقاط الأصـل اليماني، ومن ثم النظر إلى أنسـاب صـنهاجة التي أصبحت مثار جدل عقيم في شكل مواجهة سلالية مع العرب الوافدين إلى المنطقة، التي لعب الاسلام الدور الأكبر في انصهار الشعبين فيها.

ونقصـد إسـلام القوافل الصـحيح والمسـالم الزارع للمحبة، مما جعل الشـعور بالدونية عند السكان المحلين معدوما مقابل الوافدين العرب،إسلام رشحت الدكتورة فاطمة بنت عبد الوهاب وصـوله لهذه الربوع عن طريق القوافل، وهي فرضـية لا شـك أنها جديرة بالاهتمام نظرا لما لها من المعقولية، والتماسك المنهجي بل وحتى التاريخي، حيث تقول في هذا الصدد "يبدو أنه كان لوصـــول الإســـلام مســـالما إلى هذه الأرض أبلغ الأثر في تحديد مكانة من حملوا الرســـالة المحمدية وقدموا من وقتهم وإمكانياتهم ما في الوسـع ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور"[19].
وينحى منحى الدكتورة في موضـوع الإسـلام القوافلي مقال كتبه الأسـتاذ حمادي بن المرتجي عن تاريخ مدينة ولاته جاء فيه "والراجح أن مدينة ولاته وصلها التجار... المصريون مبكرا وهم من حملوا الدين إلى تلك المنطقة، وربما كان ذلك في القرن الثاني الهجري، فقد بدأ التجار المسلمون يحملون التجارة والدعوة إلى الدين الجديد إلى مراكز التجارة التي يذهبون إليها بعد ما قام عبد الرحمن بن حبيب–المتوفى 137هجرية بحفر سلسـة آبار بين "تامليت" و"أودغسـت"، فسـاعد ذلك في نشـاط حركة التجار والدعاة المتجهين إلى صـحراء الملثمين وعبرها إلى بلاد السودان، فحمل هؤلاء العبء الأكبر في تثبيت دعائم الإسلام ونشره سلميا بين أهاليها، فشكلت

[19] فاطمة بنت عبد الوهاب: الفقه في بلاد شنقيط : مرجعية المركز في بلاد السيبة، ندوة شنقيط، جامعة نواكشوط، 2004.

رحلاتهم في تلك المناطق تيارا انسـابت عبره الدعوة وانتشـر الإسـلام بخطوات بطيئة ولكنها ثابتة"[20].

أما الرأي الأوروبي ذو النزعة الاسـتعمارية القائل بالأصـل الجرماني، أو حتى الهند أوروبي للأمازيغ وكذلك صـــنهاجة فهو وإن حمل جزءا من المعقولية، فإن تعاملنا معه يتم في أغلب الأحيان من منظور أيديولوجي ظاهر ،حيث ينظر إليه من زاوية كونه دعوة لمد أواصـــر القرابة مع بربر وصـنهاجة المغرب العربي، تمهيدا لشرخ المجتمع الذي وحده الإسـلام لتسـهيل عملية الاستعمار.

مع كل هذه الآراء والنقاشـات يقدم لنا بابه ولد الشـيخ سـيديّ معلومة تتعلق باختلاف لغات المجموعتين ويفهم من النســياق أنه لا يســتبعد اختلاف الأصـــول، يقول في كتابه "إمارتا إيدوعيش ومشـــظوف "ولم تزل لغة المغافرة العربية المغيرة إلى الآن..وجميع الزوايا وإيدوعيش كانوا يتكلمون البربرية الصنهاجية وهو متواتر..وكثير من الزوايا يتكلم بها الآن."[21]

أما الأصـل العربي الثابت لقبائل بني حسـان (معربة لسـان البلاد) والموثوق المصـادر والمراجع، فغالبا ما يبتر من سـياقه، بل أصـبح يُمفصـل على مقاسـات محددة بغية إضـافات جديدة تمكن سـلالات وبرجوازيات أو أرسـتقراطيات صـاعدة من الانتماء إلى تلك المجموعة العربية الأصـيلة والمتميزة. كما لا يُسـمح حتى الآن بتتبع تمفصـلات فروعها، حيث أصـبحت كلها ممركزة حول النسب القرشي لبني حسان، علما بأنه نسب غير متفق عليه بين المؤرخين، وإن كانوا مجمعين على صـحة نسـبهم العربي."أعلم أن كون بني حسـان من قريش غير متفق عليه كما عزاه سـيدي أحمد اليدالي لابن خلدون، وأما كونهم من العرب فلا خلاف فيه ولاشـك. ويعضد ذلك أنهم لم يتكلموا قط إلا بالعربية بل سمعنا من غير واحد أن لغة أولهم كانت عربية قحة غير مشوبة بشيء من كلام البربر"[22].

. 21 مجلة الموكب الثقافي، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد 36-37، 2004م

21 . بابه بن الشيخ سيديّ: إمارتا إيدوعيش ومشظوف، تحقيق إزيد بيه ولد محمد محمود، المطبعة الوطنية، الطبعة الأولى، 1993م، ص 170.

22 . احمد ولد احمد يوره: إخبار الأخيار بأخبار الآبار ، تحقيق جمال ولد الحسن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1993، ص 20-21

أما بن خلدون فيقول عنهم: "وهم يزعمون -أي بنو حسان- أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب وليس ذلك بصحيح.. لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بدوٍ ونجعة، والصحيح أنهم من عرب اليمن، فإن فيهم بطنين يسمى كل منهما معقل أحدهما من قضاعة، وهو معقل بن سليم، والآخر في بني الحارث بن كلب، والأنسب أن يكونوا من هذا الأخير" من غير المقبول عندنا الركون للآراء الأخرى التي تعتبر القبائل العربية (ذات الهجرة الشهيرة والتاريخ المحفوظ بسبب عوامل عديدة والتي بفضلها تعرب المغرب الكبير وتغيرت تركيبته الاجتماعية والثقافية وشهد تحولات هائلة نتيجة وصولها) ذات أصول غير حجازية, وأنها من قبائل مضرية ذات المضارب النجدية, أو اليمانية مثلا، وأنها توطنت الحجاز في فترة ما بعد الإسلام وامتزجت بأهله، وبالتالي فليست من قريش.

دراساتنا حول كل هذه الآراء أحسن ما يقال عنها أنها ما تزال عاطفية جدا تستند إلى مرجعيات قابلة للنقد والتشكيك، وتحتاج إخضاعا للمناهج العلمية الحديثة، فكل الآراء غير المثبتة للأصليين (الحميري والقرشي) حول الموضوع غير معتبرة في بلادنا وكثيرا ما تقصى ويتم التشكيك فيها.

هذه العجينة العرقية (حسب اعتقادنا) المكونة لهذا المجتمع بكل أبعادها سواء المُفكر فيها عن وعي وتمثل كالأصليين العربيين المشار إليهما مع عوامل أخرى شكلت على ما يبدو مع الزمن تلاحما اجتماعيا ناضجا تمثل في وجود حالة فريدة امتاز بها سكان هذه البلاد البدو دون غيرهم من جيرانهم، ونعني حالة الثقافة العالمة (الواسعة نسبيا والعميقة) التي خلفت إنتاجا ضخما مقارنة بالإمكانيات المتاحة في ظل ظروف شظف العيش وقسوة الطبيعة وانعدام الاستقرار اللازمين لذلك مع شيء من التحفظ -طبعا- .

ومن هذه الخلفية يمكن تفسير الشعور بالتفوق على الأجناس المجاورة وتضخيم الذات وعدم الانصياع للغرباء، شعور بالعظمة رغم محدودية الإمكانيات, جسدوه في انتقاء سلالات محددة -لها ماضٍ مشرف في التاريخ الإسلامي ومكانة دينية متميزة - ينتمون إليها ويرجعون إليها أنسابهم وأصولهم.

من جهة أخرى فإن الكثير من مشـاهير وقادة تنوير هذه الظاهرة الثقافية الفريدة التي أشـرنا إليها كان عصـر إزدهارها في القرنين الثامن عشـر والتاسـع عشـر، وكان انتشـار الظاهرة شـبه عام في أغلب مناطق الصـحراء الكبرى،وكان التبادل والصـلات الثقافية واضـحة بين علية القوم من علماء ومشايخ صوفية.

أما البعد السياسي الذي كانت تشكله في الماضـي الغابر الممالك السودانية[23]، التي شـغلت حيزا في جغرافيا المنطقة قبل أن يضمحل بسبب كثافة التواجد المرابطي فواضح أن تراجع نفوذ المرابطين في هذه البلاد تلاه مباشرة ظهور بني حسان الهلاليين.

منطقتا الشرق والكبلة الواقع والخصوصيات.

هاتان المنطقتان (الشـرق –والقبلة) جاذبتان لسـكان المناطق المحيطة بسـبب خصـوبة الأراضـي الرعوية وازدهار التجارة مع الجنوب وذلك على الأقل في هذه المرحلة التي ستشملها هذه الدراسـة، وهو ما جعلهما تشـكلان محور التفاعل بين السـكان وأمكنة بداية التصـادم مع الاسـتعمار، ودون الدخول في تفاصـيل قد تكون مهمة، سـنحاول هنا رسـم صـورة تقريبية لخصوصية كل من هاتين المنطقتين في حدودهما الدنيا وواقعهما السسيوسياسي إبان تحركات الاستعمار الجادة لاحتلالهما كي نتمكن من إعادة تركيب المُفكّر فيه إذ ذاك بكل تجلياته، وتتبع ما أمكن من محدداته ومعوقاته، وذلك بإلقاء نظرة ولو بسـيطة على التمايز بين المجالين بحكم عامل الجغرافيا والتركيبة الاجتماعية وجوار كل منهما، وتأطير تطورات أحداث محيطيهما والتفاعل مع تاريخ الحدث الاجتماعي والسياسي الخاص بكلتا المنطقتين.

كانت منطقة "الكبلة" تعيش اسـتقراراً سـياسـيا على مسـتوى المجموعات القبلية، وليس على مستوى الطبقات الحاكمة، استقرار كرسته فيما نعتقد الحرب على السيادة التي اندلعت في القرن السـابع عشـر بين قبائل بني حسـان وقبائل الزوايا، وهي الحرب المعروفة في أدبيات أهل المنطقة "بشـر ببه"[24]، وقد جعلت منها ايدولوجيا الزوايا "حربا دينية بامتياز"، مع أن ذلك

---

[23] . المقصود ممالك غانا والتكرور ومالي من ممالك الزنوج الذين عمروا أجزاء من موريتانيا الحالية قبل وبعد المرابطين.

24 ـــ شربه حرب اندلعت بين الزوايا والعرب في منطقة الكبلة منتصف القرن 17. وبانتصار العرب فيها تعززت سيطرتهم السياسية. كما خلفت آثارا نفسية على زوايا منطقة الكبلة بسبب شروطها القاسية على ما يُعتقد وتم توظيفها أيدولوجيا بشكل مبالغ فيه من طرف الزوايا رغم أن بعض الكتابات

الوصف والتوظيف الأيديولوجي أصبح مشكوك في جانب كبير من تفاصيله، كما خفت حدته وتكشفت جوانب هامة حول حقيقته مع الدكتور محمد المختار بن السعد في كتابه شُربُب أو أزمة القرن السابع عشر[25].

شربيه حرب بانتصار العرب فيها حُلت مشكلة ممارسة الحق السياسي الذي أصبح محصورا في قبائل العرب تقريبا مع وجود استثناءات في مناطق متفرقة، وانحصرت بذلك الصراعات الكبرى المهددة لكيان المجتمع، بين العرب وصنهاجة في هذا المجال، ومع تشكل إمارات بني حسان سادت ثقافتهم حتى في الحكم عند بعض قبائل صنهاجة الذين حكموا بعض المناطق، ولم يعد هناك تمايز أي انهم "تمغفروا" في ممارسة السلطة واللسان، ومن ثم أصبح الصراع على النفوذ والسلطة بالقوة يتم داخل البيوتات الحاكمة سواء كانت من المغافرة أو من صنهاجة "المتغفرة" .

وأصبح جل أبناء قبائل صنهاجة في الغالب متفرغين للثقافة العالمة، والنّحل الضرورية للعيش، فتشكلت منهم أرستقراطيات دينية حُظيت بالرعاية والاحترام من لدن الأمراء والنبلاء، وبالتالي المهابة لدى العامة والنخب الحاكمة، وظل جل الزعماء الدينيين من هذه الفئة منقسمي الولاءات بين قبائل النفوذ وزعماء الحرب وكان هذا الوضع شاملا لكل المناطق تقريبا.

إضافة إلى هذه الخلفية التاريخية فإن هذه المنطقة التي يعود احتكاك أهلها بالغربيين إلى نهاية النصف الثاني من القرن السادس عشر تقريبا، بسبب السواحل ومجاورة السنغال المحتل منذ أمد، كان زعماؤها يبرمون اتفاقيات التبادل التجاري على السواحل، ويقومون بتأمين حركة البضائع مقابل إتاوات يدفعها الغربيون، وقد شكل هذا الدور عوائق جمة وصعوبات كبيرة أخرت المشروع الاستعماري، وظل أزمة حقيقية لديه يُفكّر فيها، ومن أجلها استعمل الكثير من الحيل للاختراق، كتأجيج الصراعات الداخلية، وتشجيع الاغتيالات في صفوف الأمراء، قبل أن يُدخل على الخط بعض الزعماء الدينين المرموقين ويُشركون في المخطط الاستعماري

المعاصرة لمثقفين من أبناء قبائل الزوايا المشاركين في تلك الحرب بدأت تشكك في الكثير مما يقال حولها خاصة مقولة أن دوافعها دينية أو أن اسمها مشتق من اسم شخص منع الزكاة وحصاء العرب. يقول المختار بن حامدن في كتابه تاريخ موريتانيا "وقيل إن الإمام ناصر الدين كان إذا جند أحدا لهذه الحرب قال له شُربب أي برب (لعلها بالبربرية) فيكون معنى الاسم الحرب التي شعار رجالها البربرة ". انظرالمختار ولد حامدن: التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولي، سنة 2000، ص 208.

25 . محمد المختاروالد السعد: شربيه أو أزمة القرن 17م، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1994م.

بالاعتماد عليهم كأصدقاء مخلصين ودعاة مأمونين على ترويج ثقافة قبول الوافد الاستعماري "غير المناقضة" ؟ وغير "المتعرضة لدين المجتمع".

ويمكن تلمس اكثر من سبب لدوافع تعاملهم مع المستعمر، فهناك العامل المادي الواضح والذي يمكن الإطلاع عليه من خلال الأموال التي دفع الاستعمار لهم على شكل هبات وإكراميات، وفي مرحلة أخرى على شكل مرتبات، ويمكن بشيئ من التحفظ إعتبار الشعور بغبن احتكار المجموعة العربية للسلطة السياسية لدى أفراد من أبناء مجموعة صنهاجة وإدراكم أن الوافد الجديد يشكل عنصرا مساعدا لكسر ذلك الاحتكار من الأسباب التي دفعتهم للتعامل مع الاستعمار، ولربما يكون للمسألة بعدُ انتقامي لاحت في الأفق بوادر مشجعة على تحقيقه عن طريق التعامل مع الاستعمار من أجل عودة قبائل صنهاجة إلى السلطة، وإلا فكيف نفسر غياب الحماس الديني عند الكثير من رموزهم من أجل مقاومة الاستعمار، خاصة في منطقة "الكبلة" بنفس حماسهم في الحرب الأهلية المعروفة "بشربية" وهم الذين يمارسون الثقافة العالمة ويقدمون أنفسهم على انهم متدينون؟ بل – على العكس- نجدهم في أغلب الأحوال أشد موالاة للاستعمار واندفاعا في مشروعه من غيرهم من فئات المجتمع الأقل معرفة للدين كما رُسخ.

لا شك أن الاستعمار بدوره أدرك أهميتهم وقدرتهم على خدمته بتكاليف أقل من ناحية المكافآت وطريقة منحها كعرابين صداقة ودليل حسن نيات تجاه دين المجتمع من خلال العناية برموزه، وهم كذلك أقل كلفة مادية، فما يدفع لهم لا يساوي ما يُدفع للأمراء الذين يفرضون بالقوة تارة وبالتهديد تارة مقدار ما يتقاضون مقابل حمايتهم وتشجيعهم للتبادل التجاري، وحتى تفاوضهم بمنطق الندية ومعرفتهم للتنافس التجاري الغربي.

فقد "عرف البيظان كيف يستفيدون من التنافس الفرنسي الإنجليزي على صمغهم، فكانوا يرفعون أسعاره بشكل مستمر، ويطالبون بالمزيد من الهدايا والأتوات مقابل التبادل مع الأوروبيين ويضيف الوالي الفرنسي في السنغال البارون روجي "إن البيظان أصبحوا تدريجيا أكثر تصلبا وهم يهددون دوما بالذهاب إلى الإنجليز...وسعر الصمغ قد ارتفع الآن ارتفاعا كبيرا نسبيا، وبمجرد حصول أي توتر في علاقاتهم مع الفرنسيين بمحطات التبادل النهرية فإن البيظان يتوجهون إلى الشواطئ الأطلسية"... ولمواجهة هذه الوضعية اضطر الفرنسيون أثناء

الثلث الأول من القرن التاسع عشر إلى اللجوء إلى شخصيات أميرية قوية، فوقعوا اتفاقية سنة 1821م مع محمد فال ولد عمير الأول... مقابل منعه للتبادل التجاري بين البيظان والإنجليز"[26].

هكذا أصبح بعض زعماء قبائل الزوايا يشكلون الأصوات المباركة لخطوات الفرنسيين المتمثلة في احتلال البلاد، وقاموا بتنفيذ الكثير من المهام الموكلة إليهم بما في ذلك أعمال قد تُوصف بأنها استخباراتية، فلم يبخلوا بشيء من المساعدة وصاروا يروجون ويدعون جهاراً إلى وجوب التعاون والتعامل مع المستعمر، وأصبح بعضهم عيونا له على المجتمع يقدمون التقارير المكتوبة عن أدق تفاصيله، وعن مواطن ضعف وقوة قبائل الشوكة، وتضاريس مظاعنها، وخلافاتها البينية، وحساسياتها التاريخية، ومستوى خصوماتها، بغية إحياء كل تلك النعرات، حتى تمكن الاستعمار من استغلالها،.

وكان كبلاني يعتمد كثيرا على ما يحصل عليه من معلومات من الزعماء الدينيين، وتعج دراسات رجل المخابرات بول مارتي بسيل من المعلومات عن أدوار لشخصيات وازنة في كل المناطق كانوا مخبرين وقدموا معلومات دقيقة استفاد منها الفرنسيون كثيراً عسكريا وسياسيا.

ومن السذاجة اعتبار اعتماد الفرنسيين على بعض الزعامات الدينية يعود لكونهم قادرين على حسم موضوع الاحتلال، بل إن الفرنسيين يعرفون جيدا أن القرار السياسي – أي قرار الحرب والسلام– بيد الأمراء وزعماء القبائل المحاربة، وليس بيد الفقهاء المؤيدين لهم، ويعرفون أن نفوذهم الروحي ليس بتلك الدرجة من التأثير والقوة التي تصوغ عنهم الآن، بل تدرك فرنسا أن مواقف مؤيديها أصبحت صعبة بسبب تعاونهم معها، وعليها مضاعفة مساعداتها لهم ماديا ومعنويا في الكثير من الحالات،وتعرف أن ما يتمتعون به من النفوذ لا يعدوا كونه محاولة للتأثير على هذا الأمير أو ذاك، حسب وضعه السياسي من قوة وضعف أو طموح للوصول إلى السلطة، وذلك من أجل تسويق فكرة التعاون مع الاستعمار مقابل وعود يلتزم الزعيم الديني بإقناع الفرنسيين بها، ولاستعداد للتمهيد لذاك والتوسط من أجله.

---

26 . محمد ولد محمدن: المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، ص 221.

لم يكن لدى تلك الزعامات أي إمكانية لاتخاذ قرار سياسي يضمن للفرنسيين احتلال البلاد، وهذا من الأمور التي حان الوقت لكشـــفها والحديث عنها بقدر من الصـــرامة المنهجية والدقة العلمية، وتأكيدا لهذا الرأي يمكن العودة إلى جهود تلك الزعامات في هذا المضـــمار، وفي جل المناطق قبل وبعد الاحتلال للوقوف على محدودية تأثيرها على القرار الســـياســـي، كما كان لبعض المنحدرين من بيوتات اميرية او قبائل محاربة تحالفات مع المستعمر من اجل الوصول للســـلطة، واقصـــاء خصـــومهم أو الانتقام لقبائلهم من قبائل أخرى لهم ثأر عندهم، أو يريدون التخلص من مغارمها ونفوذها.

أما في الجهة الشرقية التي سبق وأن حددناها بشكل تقريبي، فإن الوضع مختلف نسبيا حيث لا توجد فيها عقدة الصراع المسلح بين قبائل الزوايا والعرب، بل إن المصطلحين ليسا قدحيين بقدر يشـعر بالدونية كما هو الحال في منطقة "الكبلة" إذ يدل مصـطلح "العرب" عند الزوايا في الكبلة على عدم الالتزام الديني، وعلى السلب والنهب، والمخالفات الشرعية، بينما يدل مصطلح "الزوايا" عند العرب على الذل، والنفاق، والنميمة، والحسـد،وقبول الضـيم، والخضـوع للإهانة، إلى غير ذلك من القوادح لدى الجانبين، والتي ما تزال بعض ترسباتها محسوسة عند استعمال أحد المصطلحين في سياق معين.

هذه الخلفية غير موجودة –نسبيا– في المنطقة الشرقية، إذ من بين العرب من امتهن الثقافة العالمة والايدولوجيا الروحية (التصـــوف) حتى صـــار علماً ومزارا مثل الشـــيخ محمد لغظف الداودي[27]، ومحمد صـــالح بن عبد الوهاب الناصـــري،[28] وعالي بن آف الدليمي الحوضـــي، ومحمد يحيي بن سـليمة اليونسـي، وغيرهم. كما أن بعض قبائل الزوايا حملت السـلاح وذبت عن نفسها في وجه العرب.

الفارق الثاني بين الجهتين يتجلى في الفوضـى التي كان الشرق غارقا فيها بسـبب الصـراع على النفوذ بين القبائل في أكثر من مكان، بعد سقوط سلطنات أولاد مبارك والفراغ السياسي

---

27 ـ الشيخ محمد لغظف بن حماه الله بن السالم الجعفري، الداوودي تنتسب له الطريقة الغظفية الشاذلية توفي سنة 1211هـ.1805. ومن مشاهير اتباع طريقته في الحوض الشرقي اعل ولد آف الدليمي نسبة إلى قبيلة أولا دليم العربية المتوفي سنة 1862 ومن متاخري مشاهير هذه الطريقة الشيخ مولاي علي بن مولاي الحسن النعمي المتوفى سنة 1987

28 ـ محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري ت 1845

الذي عقب ذلك الســقوط، مما يفســر تعدد الجهات التي تعاملت الســلطات الفرنســية معها واعتمدت عليها، وهي جهات في الغالب تمثلها شــخصــيات لا تتمتع بروح قيادية شــعبية أو سياسية تضمن تمرير المشروع الاستعماري بطريقة مقنعة ومقبولة عند القبائل المحاربة، كما أن تلك الفوضى ترتب عنها عدم وجود القبيلة الرائدة التي تستطيع حمل السلاح بصورة مؤثرة في وجه الاحتلال كما هو الحال في مناطق أخرى باستثناء قبيلة إيدوعيش.

في هذه الفترة كانت قبيلة مشظوف هي الأقوى في أقصى شرق المنطقة، غير أنها لم تكن قادرة على إبرام أي اتفاق منفرد مع الفرنسيين يكون ملزما لكل القبائل المحاربة، وكانت تعيش حربا داخلية مزقتها إلى تجمعات متقاتلة كما تتعرض للغارات من طرف القبائل الأخرى على الدوام، ولم تكن توجد في المنطقة زعامة دينية متنفذة وقادرة على التحالف مع الفرنسيين وحشد التأييد لهم في صفوف قبائل الزوايا، وتسهيل مهمتهم كتلك الموجودة في منطقة الكبلة.

سلطنة أولاد أمبارك النهاية الغامضة.

قبيلة (أولاد مبارك) التي كانت قوية جدا في زمن الرحالة الشهير مانغو بارك لم تعد موجودة وبشكل سريع اختفت الذكريات، لأن الضابط بيرود الذي بعثه فيدرب سنة 1865م إلى نيورو قال "هذه القبيلة على الأقل لم تعد معروفة بهذا الاسم".

بول مارتي

الحروب البينية.

هذه السلطنة[29] يُنظر إلى فعلها السياسي نظرة أقرب إلى الأسطورة منها إلى أحداث واقعية لها منطقها، فأنصارها يفضلون أن تكون الحروب الداخلية هي السبب الوحيد لاختفائها عن المسرح، وخصومها لا يجدون حرجا في اعتبار قبيلة مشظوف هي من قضت عليها، بينما توجد عناصر عدة غير هذين العاملين أكثر وجاهة وإقناعا في أسباب وظروف اضمحلالها علما بأنها عناصر في الغالب مهملة من لدن المهتمين لسبب ما، وسنعرض بعد حين لما نعتقد

[29] اخترنا في هذه الطبعة استخدام مصطلح السلطنة بدلا من الإمارة نظراً لكون السلطان هو اللقب الذي كان يطلق على حكام أولاد مبارك وتميزوا به عن غيرهم.

أنه عناصـــر مســـاعدة على تكوين فكرة مقبولة عن نهاية هذه الســـلطنة، بعيدا عن النظرتين المتداولتين لكن قبل ذلك سـنعطي نبذة عن هذه القبيلة صـاحبة السـلطنة وعن حضـورها في الذاكرتين الشعبية والثقافية على السواء، نظرا للفراغ الذي أحدثه سقوطها ونظرا كذلك لما امتاز به بعض أمرائها ونبلائها من الخصال الحميدة كالشجاعة والعفة والكرم والشهامة، حتى صاروا مضرب الأمثال وملهمي شعراء المديح الشعبي، فبالغوا في مدحهم والإشادة بهم حتى أصبحت مقولة أن موسيقى البيظان منتج خاص بهم شبه مسلمة لكثرة ما خصوا به منها.

كان مجال هذه الإمارة يضـيق ويتسـع حسـب عوامل قوتها وضـعفها وفي كل مراحل ذلك الضيق والاتساع نجد في الشعر العامي ما يسجل ذلك مدحا لهذا الأمير أو إشادة بمآثر أسلافه أو حزنا على موته أو فقدان شيء من أرضـه، وأكبر مساحة غطاها الشعراء كمجال لسلطتهم حسب ما حصلنا عليه هو قول أحد الشعراء مادحا عثمان بن بوسيف[30].

سياسة اعرب لمزيريف	واظهر وكان وكيهيدي
وكْمب أو طل وأم مغيريف	ل منهم الباس ورفودي
ال عثمان ولد بوسيف	ول احمد لهنون لعبيدي

ومن أحسن ما مدح به أحد أمرائهم قول أحد الشعراء:

أل ما خالك موجود	يلحك مد ايدك يا عثمان
أولا تكرفه كون اتعود	وقت الشله حاكم لعنان

كما توجد قصيدة من روائع الفخر تنسب لمحمد ولد اعل ولد النمير لمباركي (من فخذ لوكيرات) يقول فيها:

[30] . عثمان بن بوسيف أحد أمراء أولاد أمبارك توفي سنة1778 فخلفه أخوه هنون ولد بوسيف أرفع امراء البيضان صيتا توفي سنة1826.

الشر ج ما بيه إحن	والين ج بيه افرحن
ما كط عنو سيحن	أولا كط عنو فركين

ومن الأمور التي امتازت بها هذه القبيلة وجعلت الذاكرة الشـــعبية تحتفظ لها بجميع أنواع الريادة والتميز عن غيرها أمران اســـاســـيان ونادران: أحدهما أنها لم تكن تفرض المغارم على القبائل التي هزمت في الحروب وهو عرف متبع لدى القبائل الحاكمة.

الأمر الثاني : أنها لم تمارس ما يعرف بـ"تزنكي" .وهو عبارة عن اخضاع المجموعات القبلية الضعيفة لنظام "القن" حيث هم واموالهم ملك للنبلاء يتصرفون فيهم كما يشاؤون، لذلك لا يوجد في منطقة الحوض حيث حكموا قبائل تعرف بأنها غارمي أولاد مبارك أو" أزناكنت" أولاد مبارك ، كما كان حكامهم على قدر من العدالة جعل عصـــر قوتهم عصـــرا ذهبيا تندر فيه الحروب القبلية والسلب والنهب يلاحظ ذلك بالعودة لكتب توارخ المنطقة التي غطت فترة سيطرتهم .

وعن عوامل نهاية هذه الســلطنة تأتي الحروب الداخلية التي هي بداية الضـــعف لكل الدول وكانت البداية الفعلية لحروبهم الأهلية حسب محقق الحسوة البيسانية معركة "وسط بئر ببلاد (باغنة)، التي وقعت عندها أولى المعارك بين أولاد العالية، وأولاد عيشـــة، فكانت فاتحة حروب أولاد مبارك الداخلية التي ستقضي على سلطنتهم".

هذه الحروب بدأت وفق نفس المصدر سنة 1235هـــ وتّوجت بمعركة مد الله عام 1257هـ التي قتل فيها آخر ســـلاطين أولاد مبارك المختار (خطري) بن أعمر بن اعل، والذي شـــكل مقتله إيذانا ببداية نهاية الدولة.

الحرب مع فوتة (الفلان)

مثل التصـادم بجيوش "فوتة" الخارجين حسـب المعلن لجهاد الوثنيين من البنابرة ما يمكن ان يعتبر الضـربة القاضـية لقوة أولاد امبارك بسـبب دعمهم لحلفائهم وأهل مغرمهم ، حيث كان

مجالهم السيادي يمتد داخل بلاد السودان، بل إن إحدى أهم سلطناتهم وهي سلطنة أهل هنون ولد بهدل كانت بباغنة،[31]" .

يقول صاحب الحسوة عن تأسيسها "فهنون هو أول ملوك أهل بهدل الذي وطد لهم الملك بأرض باغنة من بلاد السودان" وطبيعي أن يكون لهم حلفاء من أمراء الزنوج الوثنيين، ويؤكد ذلك ما ينقله صاحب الحسوة أيضا عن نزاعاتهم الداخلية بخصوص اعل بن أعمر بن هنون "ونتازع في الملك هو وعمه اعل الشيخ بن هنون بن بهدل فغلبه اعل بن عمر وطرده إلى بلاد ماصه من بنابرة السودان فمات بها" ويقول أيضا في حالة أخرى "وطرد أحمد بن اللب – بتفخيم اللام– إلى بلاد سيكو من بلاد السودان فمات بها" وينقل لنا سنين قليلة قبل مجازر فوتة وخلال حديثه عن حروب المباركين البينية وأطرافها الآخرين من الزنوج بأن"المختار الصغير بن سيد احمد بن المختار بن سيد احمد رئيس فات انغلي من أولاد مبارك من فرسان العرب وسادتهم وحذاقهم، وهو القائم في إحياء دولة أهل بهدل بن محمد الزناكي في باغنة باعل بن المختار بن عمر بن اعل وقاتل له بعض البنابرة وإفلان قتالا شديدا حتى فتح له هو وأهل سيكو من البنابرة وأهل آسكر مدينة "دكنه" على افلان وقتلوا أميرهم محمد بن الحاج بن إبراهيم بن الفغ قداد البواري ومن لا يحصى منهم عددا وذلك سنة 1268هـ"[32].

هذه العداوة مع افلان (الذين ينتمي إليهم الفوتي عرقيا، وإن كان يختلف مع البوار ايدولوجيا إذ هم في الغالب قادريون) ومحاولة إعادة السيطرة على باغنة من جديد في ظل تمزق الكيان القبلي، وغياب قيادة مركزية، وضعف الحليف "البنابرة" أهل سيكو مقر ملك الوثنيين المستهدفين أساسا من الفوتي، شكلت عوامل تصادم، فدخل أولاد مبارك الحرب ضد فوته فتعرضت السلطنة المهترئة أصلا للضربة القاضية والمؤلمة حيث تلاشى أمرهم على يد القائد الفوتي أبي بكر سنبنو[33].

---

[31] باغنة ارض شاسعة تضم أجزاء واسعة من شرق موريتانيا الحالية منها بلاد كوش أي مقاطعتي لمرج وعدل بكرو وأجزاء من تمبدغة وجيكني وكوبني

32 ـــ صالح ابن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، تقديم وتحقيق ازيديه ولد محمد محمود و سيد احمد ولد احمد سالم، المعهد الموريتاني للبحث العلمي،1998، ص104

33 ـ قائد من قادة الفوتي كتب بن حامد مشور بدل سنبنّ واعتبرهم قبيلة من افلان موجودة فعلا في تلك المنطقة. لكن حوليتي ولاته والنعمة ذكرتا أنه قائد من قادة الفوتي

بعد أن كانوا أقوياء مرهوبين جدا من الجل، عربا وزنوجا، كما تركوا بصـــماتهم على ثقافة المجتمع في مناح متعددة، منها الجدير بالتمثل والمحاكاة نظرا لما يمثل من قيم عالية وحميدة،كالســخاء،والنبل،والشــهامة ونصــرة المظلوم، ومنها، ومن أجل الأنصــاف ينبغي أن يُوضعوا في سياق مرحلتهم التاريخية، فقبيلة أولاد مبارك صاحبة السلطنة، والسمعة الواسعة بما لها وما عليها لم تُحظ نهايتها حتى الآن –حســب علمنا– بما يكفي من الدراســات الموضــوعية، فقد انســاق المهتمون بتاريخها في الغالب وراء طروحات وَرثَتِها وحروبهم، وانتصــاراتهم المزعومة أو الحقيقية عليها، لأن المنتصــر هو من "يكتب" التاريخ، والذي هزم أولاد مبارك من القبائل المحاربة سيُنظر إليه نظرة أسطورية، ويتبوأ مكانة بطولية متميزة وهذه الميزة لا تتمتع بها أي من القبائل التي ســادت بعدهم، وآخرون من محبيها لهم مواقف مختلفة حول نهايتها، وقد تكون الكوارث الطبيعة والمجاعات وانتشــار الامراض خاصــة الملاريا في المناطق الرطبة حيث توجد قوتهم كلها عوامل قد تكون اضـعافهم وجعلتهم لقمة صـائغة لكل معتدٍ[34]

هذه الحرب التي قضت على سلطنة أولاد أمبارك من طرف الفوتين وما تعرضت له من السبي على يد جيوشهم يتحدث عنها أحمد بن بدي العلوي في كتابه الدرع والمغفر في الرد عن الشيخ عمر بشيء من التفصيل، محاولاً تقديم الأدلة الشريعة المسوغة لما قام به شيخه من فتك بالمســلمين، كما نجد إشــارات إليها في حوليتي النعمة وولاته، وكتابات أخرى منها ما هو فرنسي، فتحدثت الحوليتان عن الموضوع على النحو التالي: "وفي عام 1273هـــ (...) وفي جمادى الأولى إغارة ســـنبُنُ الأولى على أولاد أمبارك التي توفي فيها آل الطالب أحمد راره (التنواجيويون).. وهذا العام يُدعى عند أهل الحوض عام "تجكنت" وهو عام تدمير فوته لأبناء مبارك..."وفي عام 1274هـ وقعة سنبُنُ الثانية بأولاد امبارك وفيها مات المختار بن سيد احمد بن المختار وسبيَ النساء والذراري. وفي عام 1277هـــ المحرم "اصطلح بادي بن سيدي أحمد بن المختار والمصطفى غلام الحاج عمر[35]. وانتقل بمن معه من أولاد امبارك نحو أرضهم بعد

---

[34] يعتقد محمد فال ولد سيدي ميله أن الملاريا كانت عاملاً حاسما في إضعافهم ويرى أن الشور الذي يتغني به "بالالي جاني الليل" يعبر عن خوفهم من البعوض الذي ينتشر في المنطقة.

35 ــ الحاج عمر بن سعيد الفوتي ت 1864 عالم وشيخ صوفي ومجاهد كبير ، احتل عاصمة البنابرة الوثنيين ولعب دورا كبيرا في ترسيخ الإسلام في غرب إفريقيا

تشتيت سنبُنُ لهم" كما نجد إشارة أخرى إلى هذه الحوادث في مرثية من الشعر الشعبي يقول صاحبها :

اخل عرب الحاس والواد	واعرب لكليب أوفصاله
وخل ياسر من لعرب زاد	معاه أكبير ورجاله

إلى أن يقول:

ذاك اخلعن كامل عاد	كشيء كان وزال

ويذكر مخطوط متداول لدى الباحثين الموريتانيين لكاتب يقولون إنه مجهول يُرشـــح أنه من أهل تمبكتو[36] جاء فيه أنه شاهد أشراف أبناء مبارك سبايا عند جند الحاج عمر.

و يقول صـــاحب التكملة "ثم إن أولاد مبارك لما فتح الحاج عمر بلاد بمباره أعانوا أهل مغرمهم فحطمهم واستأصل شأفتهم" ومن أدلة سبيهم على يده يقول صاحب الدرع "قيل إنكم سبيتم أولاد أمبارك وما تعلق بهم وصبيانهم واسترقتموهم، وكلا الأمرين غير جائز شرعا عند المعترض[37] "علما بأن صاحب هذا الكلام صاغه للدفاع عن الشيخ عمر، ومن الغريب أن كل هذه الوثائق التي تتحدث عن نهاية هذه السلطنة لا تحظى باهتمام الباحثين الذين يركزون على قبيلة مشظوف باعتبارها من قضى عليهم في معركة آغوينيت، وهناك عامل آخر مسكوت عنه دائما وهو موقف الصوفية القادرية الذين شاركوا في إجهاض المشروع الفوتي، بعد حملته على مدينة "حمد الله" مقر الزعيم القادري الشـــيخ أحمدُ أحمدُ الذي حمى قادة البنابرة الفارين من الزحف الفوتي بعد سقوط عاصمتهم وتحالفات قبيلة كنته وإمارة ماسنا القادريتين ضده، وقد أدى التحالف إلى مقتل الحاج عمر في ظروف غامضة وملابسات معقدة في بنجگاره[38] ثم حروب

---

[36] . تمبكتوا مدينة أثرية في منطقة أزواد بجمهورية مالي الحالية لعبت دورا كبيرا في نشر الثقافة الإسلامية.

[37] الدرع والمغفر في الرد عن الشيخ عمر مس 13

[38] . بول مارتي: دراسة حول الإسلام وقبائل الساحل، ط، 1930.
Paul Marty : Etudes sur l'islam et les Tribus du Sahel, édition.Ernest Leroux, Paris, 1930

أبنائه من بعده، وكذلك الإشـارة الواردة في الحوليتين آنفا عن مقتل اثنين من مشـاهير تنواجيو ممثلي السلطة الروحية في السلطنة المباركية في حرب فوته ضدهم.

ويقول صـــاحب الدرع والمغفر كذلك خلال تعداد خصـــال شـــيخه وحلمه "وهكذا فعل مع تنواجيو في إعانتهم عليه لأهل باغنه وأولاد مبارك واعرض عنهم غير ما مرة وآل أمرهم إلى ما آل إليه[39] " ويؤكد في موضـوع أخر "والحاصـل أن معاداة تنواجيو للشـيخ عمر وموالاتهم لأعدائه أشـــهر وأظهر من أن تذكر وأكثر الزوايا وجميع حســـان أعداء له وموالون لأعدائه[40]" هؤلاء فوته التجانيون نجد الكثير من قادة الفكر الصوفي القادري من معاصري زحفهم يتحدثون عنهم إما كأعداء وإما كخصـوم، وهذه العادة مترسـخة في الثقافة الإسـلامية منذ نشـأتها انظر كتب الفرق مثلا وما تعج به من تكفير وشيطنة المخالف.

ونجد ما يناقض هذه العداء في تعاملهم مع القادرية ماثلا في وفادة أحد علماء القادرية الذي كان يتمتع بنفوذ كبير لدى الزنوج، وهو جعفر بن المهدي النعمي الذي يذكر في أبيات له أنه لما جاء إلى الفوتي أطال مكوثه عنده، فكتب أبياتا ألغز فيها نحوياً من أجل الإذن له بالانصراف، فقال موجها خطابه إلى أحمد بن الحاج عمر الفوتي.

يا من وقاك الله في دهرك الخسفا	وكف اله الناس عنك البلا كفـــــا
فما بال اقوام اردت انصرافهم	وتأبي انصرافي حيث صرفك لي أشفى
فإن لهم من مانع الصرف عجمة	فمالي من عجمة تمنع الصرفـــــا

ويقول إن الفوتي أكرم وفادته ولا يتحدث بالتفصـيل عما دار بينهما علما بأنه قادري وبالتالي يشـــترك مع قبيلة كنته خصـــوم فوته في الطريقة غير أن مواقفه كانت أقرب إلى الحياد في

---

[39] نفس المصدر ص 23

[40] نفس المصدر ص 61

قضـــية فوته من المواجهة أو الانتقادات أو حتى التشـــكيك في جهادهم، كما فعل ذلك بعض فقهاء القادرية[41].

ونجد صـــدى ذلك الحياد في رســـالة له إلى بن عم له يدعى باب عينينا بن علال القادري المتحمس،ينهاه فيها عن الاندفاع في معاداة الفوتين من أجل موقفه الصـــوفي المؤيد لكنته، ويصـــف له ما يمكن أن يترتب عن ذلك التصـــرف من عداوات هو في غنىً عنها،كما تعطى الرسـالة إيحاءات كثيرة يفهم منها أن الوضـع كان معقدا ومضـطربا كثيراً في تلك المناطق بين القادرية والتجانية، فهل كان للخلافات العرفانية بين المدارس الصـــوفية في المنطقة دور في إجهاز فوته على هذه السلطنة المحتضرة؟ لأن فوتة التيجانيون كان لهم مشروع دولة وليس فقط القضاء على البنابرة ؟ نجد في الرسالة ترميزاً لوجود أزمة كبيرة جداً.

تقول الرسالة:

«بسم الله والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من عبد ربه جعفر بن المهدي إلى أخيه الأعز الماجد الأبر باب عينين بسلام تام بر عام.

وبعد فموجب كتابي إليك بعد السلام عليك والسؤال عن حالك أنه بلغني أنك أزمعت التأخير عن الذهاب لجهة تمكبتو لانتظار قدوم (جمار)، ولا أود منك أن تفعل لأمرين مضرين: أحدهما ما يغشـاك من سؤالها وأكلها ومشـاقها، وثانيها: ما عسـى أن يدخلوك فيه من الرأي والمشورة فيما يجري بين البنابرة والسوانك مع الشيخ، بما عسى أن يشيع ويذيع ويسير به الركبان ويحمل إلى البلدان، فإن السفالة تختلف إلى العدو والعيون معكم تسمع وتعي.

وأهل فوته أعاجم وأعداء ولهم عناية بحفظ أخبار من في بلاد العدو، والســؤال عن من يكيد لهم أو يضيرهم لاسيما من معروف الاسم. فإنه بلغني العام من بعض القادمين من قب[42] وهو لا يعرفك أنه ســـمع آكي أعني ببكرعمُ التنواجيوي في جمع من فوته يقول إن أحمد بن الحاج

---

[41] حصلنا على وثيقة تفيد أنه كان يقوم بوساطة بين فوتة وكنتة.

[42] . قب: تطلق في السابق على مدينة انيورو المالية العاصمة الروحية للطائفة الحموية التيجانية

عمر ما رأى أشـد عليه من رجل من أهل النعمة قاطنا سـسـنديج يؤلف الأعداء ويؤلبهم عليه وسماك بسمك.

فإنك تعلم امتناعي لسيد المختار بن الشيخ سيد البكاي من المشـي إلى التجاني لما بعثك إلي بذلك، وتعلم ما قلنا في ذلك... ولا تعادي أحدا من أجل أحد لاسـيما في أمر ليس لك منه شيء إلا أنك تتعب فيه وتبذل جهدك، ويكون الاسم والمعنى لغيرك فإن تلك عادة الأتباع وأنت ولله الحمد خير من التبعية فإن لم تكن متبوعا لا تكن تابعا، فإن التبيع إنما يبني لغيره ويفنى في خدمته بلا مآل نفع ولا سمع له».

ونجد إشارة مشابهة وإن كانت في سياق مختلف عند الشيخ سعدبوه بن الشيخ محمد فاضل في كتابه "النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة فرانصه" حيث يقول "وقد تعلم ما كان عليه الوالد رضي الله عنه من التنفير من السلاح، وقد تعلم قضية ابنه سيدي بوي لما أمره الحاج عمر زمن ظهوره وتعرضـــه للجهاد في زعمه على أن يتأمر له على جميع أهل الحوض ويعينه بألوف كثيرة والتزم له مؤن الجند وتجهيزها بعد معارضـــة طويلة وامتناع من ســيد بوي واحتجاج منه على سقوط الجهاد.

فآل الأمر إلى أنه ذهب من عنده ليشاور شيخه ويقف عندما قاله له فلما جاءنا صلى خلف الوالد متقلدا بعض آلة الحرب فالتفت إليه وأمره بإعادتها فلم يفعل لتمسكه بظاهر الحكم لأنه لم يظهر له خلل يوجب الإعادة. فلم يزل يأمره بها سـبع سـنين إلى أن قال له إن كنت تكلني في هذه المسـألة إلى علمي فإني لا أعلم قولا ولو شـاذا ببطلانها مع اطلاعي وإن كنت تأمرني من حيث أنك والدي وشـيخي.. وفي قضـائها بروزك ورضـاك فعلت فقال له نعم فقضـاها بعد ذلك بأعوام"[43]

43 . الشيخ سعدبوه بن الشيخ محمد فاضل: النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصه، مخطوط بحوزتنا نسخة منه

الحرب مع مشظوف الصنهاجيين

لم ينته التفوق السياسي لعرب بني حسان على الساحل والحوض حوالي 1850م إلا ليحل محله الفرنسيون عام 1891-1896م وقد شُغل هذا الفارق الزمني القصير من طرف مشظوف.

بول مارتي

قبيلة مشظوف الصنهاجية قبيلة متمغفرة[44]هي الأخرى مثل قبيلة إيدوعيش وكان مواطنها كما يقول بابه بن الشيخ سيديّ "تكانت وما يواليها حتى أجلاهم منها ما كان ينالهم من إيدوعيش من أنواع الأذى، مع اقتضاء الاتاوات فارتحلوا إلي أرض الحوض في زمان إمارة بكار ولد اسويد أحمد في القرن 13 هجري" حيث قاد أحمد محمود ولد امحيميد حركة تمرد ناجحة أعتقتهم من سلطة إيدوعيش، ودخلوا في حروب جمة ومتواصلة كللت بالكثير من النجاحات حتى لقبت العامة زعيمهم "بهاتك الدول" حروب كانت معركة آغوينيت[45] فصلها الأهم حيث كرست هيمنتهم كأقوى قبيلة في المنطقة مع حلفها الكبير الذي خاض معها تلك المعركة والمكون من أولاد الناصر وأهل سيد محمود وكنته، في وجه الحلف الضعيف المكون من أولاد مُحمد[46] وفلول أولاد مبارك وأهل الطالب[47]. ويقول بابه بن الشيخ سيديّ "وكان ذلك بعد حروب عظيمة منها يوم أفارة على أولاد بوحمد ومن معهم"[48]

ورغم أن مشظوف بعد هذه المعركة أصبحوا أسياد الموقف إلا أنهم لم يُخضعوا كل القبائل، وبذلك ظلت سيطرتهم نسبية وظلوا داخل التحالفات القبلية، ولم تعمر قوتهم طويلا. يقول بول مارتي "دائما ما كان أولاد علوش و أهل بوردة من أولاد داود يغيرون من الشرق، وأولاد الناصر من الغرب لغزو مشظوف وقد انتهي بهم الأمر إلى الحصول على بعض المغارم من

---

44 . مصطلح وصف به الدكتور محمدو بن محمدن إمارة إيدوعيش وقد استعرناه للدلالة على طموح هذه القبيلة المتمغفرة هي كذلك

45 ـــ يقع غرب مدينة النعمة عاصمة الحوض الشرقي وقعت عنده معركتان كرستا سيطرة مشظوف على المنطقة حسب حولياتي النعمة وولاتة وقد وقعت المعركتان أعوام 1863-1867 حولية النعمة وولاتة من تأليف كل من محمد المصطفى ولد آل دحان لإبدوكلي النعماوي ت 1914 .

46 ـ مجموعة تتكون من خليط من بني حسان وصنهاجة لعبت دورا سياسيا لفترة في منطقة الحوض الشرقي كتب عنها بول مارتي بإسهاب، تعرف في بعض المصادر بإيدغموسة وقد قام هذا التحالف في وجه حلف مشظوف.

47 . تعود نشأت هذه القبيلة إلي الطالب مصطف نسبه في قبيلة إيديغب وفي أحفاده صلاح وكرم.

48 . بابه ابن الشيخ سيدي: إمارتا الدوعيش ومشظوف ص 162

بعض قبائل مشـــظوف بشـــكل منتظم، وظلت علاقتهم متوترة مع جيرانهم حتى احتلال ولاته 1912. وكانت المعارك تدور بلا هوادة مع أولاد الناصـــر الذين كانوا ينهبون باســـتمرار مخيمات مشظوف" .

وســرعان ما اندلعت حرب أهلية بين مشــظوف بعد وفاة أحمد محمود مؤســس الكونفدرالية المشظوفية وتحالفاتها سنة 1301هـ1884، وهي حروب وانشقاقات ظلت مستمرة حتى تعامل الاســتعمار الفرنســي مع أطرافها.. والمدة من معركة آغوينت المكرســة لســيادة مشــظوف إلى احتلال الحوض من طرف الفرنســـين لا تتجاوز كثيرا الأربعين ســـنة، إذ أن معركة آغوينيت الثانية وقعت عام 1867م،واحتل الفرنســـيون ولاته عام 1912م وعليه تكون مقولة إمارة مشظوف فيها الكثير من المبالغة، خاصة إذا وضعنا في الحسبان عدم الاستقرار وعدم السيطرة المطلقة على القبائل وتغريمها كما رأينا. إضــافة إلى الاغتيالات الواســعة في صــفوف زعمائهم وكذلك تعرض مستقر سيادتهم (الحلة)[49] للنهب عدة مرات من قبل بعض القبائل المعادية حتى قبل موت أميرهم المؤسس، ومثال ذلك ما ورد في حولية النعمة عما وقع في عام 1300هـــ-1883 ليلتين خلتا من شعبان وهي "وقعة أحمد بن عثمان بن الحبيب على حلة أحمد محمود بن المختار بن المحيميد فكانت الغلبة يومئذ لأبناء الناصــر فحملوا جميع أموال حلة مشــظوف والواقعة عند فوق[50].

أما ما يتعلق بعدم الاســتقرار داخل الأســرة الحاكمة، والدال على عدم الهيمنة المطلقة، فإننا ســـننقل من الحوليتين الاغتيالات التي حدثت والأحداث التي تلت ذلك "وفيه (أي1301هـ 1884م) توفي لســـت ليال بقيت من رمضـــان أحمد محمود بن المختار بن امحيميد عريف مشــظوف"وبعد ســت ســنين قتل وريثه ففي "عام 1308هـ-1890م وقعة إكنُو التي مات فيها محمد محمود بن أحمد محمود رئيس مشظوف لخمس مضت من ربيع الثاني" .

وتواصل وفي "عام 1309هـ-1895م مقتل المختار بن أحمد محمود (أخو الأمير) بأمر من أحمد بن محمد محمود بن أخيه" بعد اجتماعه هو وأحمد بن اعل محمود (بن عمه) على ذلك، وفيه تغريب المختار الشيخ بن أحمد محمود (على يد بن أخيه) فتمت رئاسة مشظوف "لأحمد

---

49 . الحلة مصطلح شعبي يطلق عادة على الحي الذي يوجد فيه زعيم القبيلة المحاربة خصوصا.

50 . تقع في الحوض الشرقي قرب مقاطعة جيكني

بن محمد محمود على ما يقال" وبعد خمس سنوات أي في سنة "1314هـ-1895م مات أحمد بن محمد محمود قتل مغدورا غدره أحمد بن اعل محمود ليلة الخميس غرة جمادى الأولى وفي اليوم الأول من شـــوال يوم الســـبت غدر أحمد بن اعل محمود غدره محمد المختار بن محمد محمود بن أحمد محمود[51] وبين الغدرتين خمسة أشهر نسأل الله السلامة والعافية".

وارتأينا في هذه الطبعة الجديدة للكتاب أن نضـــيف معلومات أكثر تنير القارئ حول غياب وجود قبيلة قادرة على اتخاذ قرار الحرب أو الســـلم مع الفرنســـيين يكون ملزما للجميع، ولكون قبيلة مشـظوف هي اكبر القبائل في المنطقة فسـننقل من مصـادر فرنسـية وضـعها السـياسـي والعسكري ودور المخابرات الفرنسية في تعميق خلافاتها العميقة أصـلا يقول المؤرخ بول مارتي في دراسته لوضـع هذه القبيلة في تلك الفترة " عند ما تزعم محمد محمود بن احمد محمود قبيلة مشـــظوف بعد موت أبيه أحمد محمود بن المختار يوم 18 يوليو ســـنة 1884 رفع أخوه المختار الشـــيخ راية العصـــيان، وتبعه في ذلك مجموعة من إخوته، بالإضـــافة إلى (قبائل) لحمنات، ولمزاوير، ولبريكات، وجزء من أهل ماني مع زعيمهم مامي ولد الدو، وطائفة أهل أوبك من أهل سيدي يقودهم سيدي محمود ولد المامي، وفصيلة لعتاريس المحاربة، ولم يتخلف أولاد الناصر[52] المتمردين، وظل التطاحن متواصـلا على مدى ثلاث سنوات، وبدائل مختلفة، فتلقى الأمير خسارة فادحة في وقعة شكرطيل يوم 4 سبتمبر 1888 وأخيرا جرح الأمير -محمد محمود- جرحا قاتلا من طرف عصـــابات المختار الشـــيخ يوم 18 نوفمبر 1890 في معركة وقعت على مشـــارف ولاتة، عند أكنو (مات من الجرح) وقد أدى موته إلى إعادة ترتيب التحـالفات وتنـافس أحمـد (ابن القتيل) مع أحمـد ولـد اعل محمود (أحـد أقـارب القتيل) على القيادة، وقد انتصـــر احمد ولد اعل محمود بعد ما جمع تحت قيادته كل الأحياء الموالية للزعيم السـابق، بينما هرب أحمد (ابن الأمير المقتول) لعقد تحالف مع عمه المختار الشـيخ، رغم أن عصابات هذا الأخير هي التي اغتالت أباه، ورغم انه هو نفسه يتقدم للإمارة.

---

51 ـــ قتل بموقع يدعى بيرذات وتعني بلغة السر قلة مكان عقد الاجتماعات وهو عبارة عن عريش مفروش بأخشاب ضخمة يعالجون فيه قضاياهم. ويقع عند هذا المكان الآن قبر الشيخ سيد الأمين المتوفى عام 1954 وهو أصغر أبناء الشيخ محمد فاضل وآخرهم موتا، صحب كيلاني عام 1889 في رحلته إلي ازواد كما في وثيقة بحوزتنا نسخة منها .

[52] انبسوا من قبيلة مشظوف.

وهكذا شبت الحرب عدة أشهر، ظهر خلالها منافس جديد هو اعل محمود بن محمد المختار بن أخ الأمير الســابق محمد محمود، فربط الأحمدان المذكوران أعلاه علاقاتهما ليغتالا المارق الجديد في شـــهر يونيو 1894، لكن الرجلين بدورهما لم يمكثا طويلا حتى اختفيا في نفس الظروف، وكان أحمد بن الأمير محمد محمود أول من يسـقط سـنة 1885 بعد أن اغتيل من طرف أعمامه اعل محمود، ومهادي، وسـيدي امحمد بتواطؤ مع المختار الشـيخ.. وعلى عجل تبعه إلى القبر أحمد ولد اعل محمود وقد اغتيل رميا بالرصاصـة عند ما فاجأه كل أبناء الأمير الراحل محمـد محمود بمن فيهم (محمـد المختـار ،واعـل الزعيم الحـالي) فقتلوه،وأمـام هـذا الاختفاء المزدوج أحس المختار الشـيخ وهو آخر المطالبين بالزعامة بأن قوة اندفاعه تراجعت، فتنازل علنا عن كل سـلطاته لصـالح أكبر أبناء أخيه، محمد المختار ولد محمد محمود سـنة 1898 ولم يحدث تصـــالح عام لقبيلة مشـــظوف إلا بعد موته يوم 4 مارس 1901،في هذا التاريخ كان الفرنسيون قد وصلوا إلى الساحل "

وعن بداية اتصالات الفرنسيين بهذه القبيلة القوية وتدخلاتهم من أجل تعميق الفرقة بينها ننقل فقرات من تقارير لضـباط فرنسـيين حول الموضـوع حيث جاء في تقرير للضـابط مارشـان" لقد بدأت علاقاتنا بمشظوف بُعيد احتلال نيور (بجمهورية مالي) حيث قمت على رأس فيلق صغير بمطاردة أحمد بن الحاج عمر الفوتي محاولا منعه من الالتحاق بمقر ملكه بمدينة سـيكو، حيث كان لا بد له من مساعدة البيظان" و كان للعفو الذي أصدرتُ عن شاب من مشظوف معتقل من طرف الحرس في انكولو هو الذي منحني الفرصة المناسبة للاتصال بمشظوف"،

فبعد يومين قامت مجموعة من المحاربين يقودها المختار الشيخ نفسه بزيارة الضابط مارشان بغية إسداء الشكر له، وقد تعهدوا له بالمساعدة، لكنهم أوعزوا إليه بأن القبيلة جد منقسمة وأنها تتقاتل يوميا وأنه من المستحيل أن يتعهدوا له بكل ما يرضيه، وبعد أيام تأكد أن عدة أحياء من أولاد الناصر ومشظوف بمن فيهم من يخضـعون للمختار الشيخ قدموا اللجوء لأحمد بن عمر الفوتي ومنحوه الوسائل التي جعلته يصل إلى سيكو عن طريق باسكنو وديا."

وفي سـنة 1893 التقى العقيد أرشـينار عند كومبو بالمختار الشـيخ حيث كانا على موعد، "وطلب المختار الشـــيخ من العقيد تناســـي الماضـــي والاعتراف به كزعيم للقبيلة..والتزم له

بالصداقة والحماية وأنه سيساعده على تضييق الخناق على أولاد الناصر، ومشظوف الثائرين، كما سيحرم عليهم دخول أسواقنا" وكان الفرنسيون عند نيويور وكومبو يقتلون رميا بالرصاص وفورا كل مشظوفي،وكل مسلح بيظاني.... وقد أعلن المختار الشيخ في أكتوبر 1893 باسم جميع مشظوف أنه سيذعن لأوامرنا وسيزورنا لاحقا..غير أن التركيبة الاجتماعية لمشظوف تجعل كل ملاحقة بدون جدوى، وهكذا قامت مجموعة منهم بمهاجمة داوا جاورا وقتلت عشرين رجلا وأربعين فرسا، وفي يونيو 1895 قامت مجموعة من مشظوف معضدة بمجموعات من أولاد الناصر بعمليات سطو في ضواحي بالا وهي مدينة زنجية خاضعة للاحتلال الفرنسي.

هذا هو الوضع في منطقة الحوض بالشرق الموريتاني، وهذه هي حالة أكبر قبيلة يمكن أن تقود المقاومة، لا شك أن الوضع كان سيئا رغم إرادة المقاومة، فقد انشقت قبائل عديدة من مشظوف عن الأمير محمد المختار وخضعت للحماية الفرنسية حيث جاء في تقرير فرنسي " أنه في سبتمبر 1905 وبسبب خلاف بين محمد المختار الرئيس العام لمشظوف، والمختار ولد عبدوك رئيس طائفة من أهل سيدي قام هذا الأخير مع مجموعة من مشظوف وأجرى مفاوضات سلام مع المركز الفرنسي برأس الماء أدت إلى توقيع معاهدة الخضوع سنة 1906 وهي معاهدة كان صديقه سيدي محمد ولد محمد زعيم قبيلة لبرابيش مهندسها، وفي السنة الموالية وفي يوم 21 يناير وقع سيدي محمد ولد سيدي مولود زعيم قبيلة اشومات المشظوفية معاهدة للحماية مع الفرنسيين، وهكذا يتضح مستوى الانقسام الذي يُأكد ما ذهبنا إليه من عدم وجود قبيلة قادرة على قيادة المقاومة كما هو الحال في مناطق آدرار والكبلة وتكانت ومع ذلك حدثت مصادمات كبيرة في هذه المنطقة سنعرض لها في ما بعد إن شاء الله.

"التاريخ هو اخطر كيمياء يفرزها الفكر، فالتاريخ يَصوغ الأحلام، ويسكر الشعوب، ويغذيها بذكريات مزيفة، ويبالغ في أهميتها ويغْض مضاجعها، ويقودها إلي هوس العظمة، أو جنون الاضطهاد، ويحيل الأمم إلى المرارة والعجرفة والغطرسة التي لا تطاق. فالتاريخ يبرر ما نريد..إنه يحتوى على كل شيء ويعطي المُثل لكل شيء"

بول فالري

"نعتقد حتى الآن بأن الأبحاث حول موريتانيا كانت متأثرة بالدراســـات الاســـتعمارية وثقافة "الكبلة"، وما تغير هو الميوعة التي تسود مجتمع البيظان أكثر من الصرامة. وهذا التبلور معبر عنه في أعمالهم"

ماريلا ديبوفيز

"إن المهمة الأولى للمثقفين هي كشــف الأكاذيب التي تســود المراجع المدرســية ووســائل الإعلام"

روجي غارودي
أمريكا رائدة الانحطاط

مؤسف جدا غياب ثقافة المواطنة عندنا، ومحزن أكثر أننا لا نعلم ولا- نُعلِمُ- أطفالنا فن التشبث بالأرض، ولا معنى التمسك بالعادات، ولادلالات التقاليد، ولا إيحاءات الأساطير، والأكثر حزنا من كل ذلك، هو تبسيطنا لماضينا وتهميشنا له، حتى وصلنا حدا نستطيع معه أن نصدح ساخرين منه، وأن نسير متبخترين دون الشعور بعرجنا البين ونقصنا العميق أمام أنفسنا وأمام الآخرين، لأن" تاريخنا مجهول" كما نقول دون أن ننتبه إلى زيف وخطورة تلك المقولة على كينونتنا، وعلى مصداقيتنا التاريخية.

هذه الفكرة التي أصبحت شائعة مصدرها فيما نعتقد مهتمون (كما يدعون) وباحثون (كما هو مفروض) غير أنهم لا يتعبون أنفسهم في البحث والتنقيب العلمي الجاد في الكثير من أعمالهم!

فعلى ما يبدو يكفيهم امتشاق أقلامهم ورسم عبارة "الكسوف الوثائقي منذ العهد المرابطي[53] وحتى الإنسياح الحساني [54]". وكأنهم بذلك أراحوا ضمائرهم وبرءوا ذممهم، ليتفرغوا لتمجيد "العشائر" وذكر محامد الأكابر، إن طُولبوا ببراهين تدعم دعواهم حول تلك المقولة لا يجيبون، إن قيل لهم إن الكسوف الوثائقي هذا نسبي لا يستجيبون، لا يقتنعون بأن القليل من الجهد البحثي الجاد قد يكشف حقائق علمية كبيرة نحن بحاجة إليها لأنها ستنير الطريق حول ماضينا، وستساعد على فهمه الفهم الصحيح، وفق سياقه الزمني وفي حدوده المنطقية المعقولة، نسبية قد تبعدنا عن الطابع الخرافي العشائري الحالي، الذي يطبع دراساتنا ويجعل من تاريخنا مجرد ممتلكات خاصة لأفراد وجماعات،هم وحدهم من يحق لهم كتابته وتفسيره وتأويله وتحديد الزائف منه وفق أهوائهم، أما كتابة غيرهم –ممن لا يكتب الخرافة ولا وجهة نظر القبيلة والعائلة والجهة– ولو توصلت إلى عين الحقيقة أو ما هو قريب منها بالأدلة والبراهين الموثقة فهي كتابة عدو له دوافع غير شريفة يسعى لتشويه "الماضي" بمعناه الضيق، خاصة عند ما يتعلق الأمر بتاريخنا المعاصر، وبالأخص جانبه المتعلق باستحبالات فترة الاحتلال الفرنسي وما واكبها من ردود أفعال.

كثير من الباحثين في هذا المجال لا يودون الإشـــارة مثلا إلى أن أخطاءً ارتُكبت، وأن معالم لحقائق طمست، وأخرى قُلبت، أو حُرفت، تستراً على أدوار مشبوهة للبعض، خاصة في الحقبة الاستعمارية التي سنتناولها في هذه الدراسة.

مؤسف كذلك أنهم إن طُولبُوا بكشف تلك الحقائق تذرعوا بحساسية الموضوع على مستوى القبائل!!.. يندر بينهم من يشير إلى وجود من خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا من بين صفوة مجتمعنا عبر ماضـيه الحديث والمعاصـر دون أن يكون في ذلك قدحاً أو تهكماً أو لمزاً فنحن مجتمع –كغيرنا من المجتمعات– منا الصالحون والمقسطون، ومنا من هم دون ذينك.

ومن المؤسف كذلك أن "مرحلة الكسوف الوثائقي" التي أوهمّونا بها أكثر حضورا وأهمية عند هؤلاء الباحثين من مرحلة "المقاومة" التي لو لم تغيب وثائقها "عمدا" حســـب اعتقادنا لتغير الكثير من المفاهيم حول تاريخنا الحديث، علما بأن هذه الوثائق المحيّدة أصـــلا ـــــمرشـــحة للاختفاء والإخفاء والضياع، لأنها بالفعل تشكل حرجا "ربما" وأدلة إدانة تقتضي مراجعة بعض

---

[53] يرجع تاريخ تأسيس هذه الحركة إلى رحلة الحج التي قام بها إبراهيم بن يحيى الكدالي ولقائه بأبي عمران الفاسي بالقيروان

[54] مجموعة قبائل تنحدر من حسان بن معقل الساحت في الصحراء الكبرى مطالع القرن 15 وأسست إمارات في موريتانيا الحالية.

المفاهيم السائدة عندنا عن البعض، إن قمنا بكشف ذلك فسيكون إنصافا لبعض المظلومين، وتحجيما لبعض المضخمين، أو-على الأصح- وضعهم في حجمهم الحقيقي، وسياقهم الزمني، باعتبارهم ليسوا الوجه المشرف الوحيد الممثل لطموحات المجتمع الذي ينبغي لبعضه على الأقل أن يعتز بغيرهم.

بل إنّ ما حدث هو أننا خُدعنا بهم وقُدموا لنا كقادة أفذاذ، متميزين في المجتمع، وهم في الحقيقة ليسوا سوى أشخاص عاديين لهم مكانتهم التي لا تُنكر، ورؤيتهم التي قادتهم إلى صف المستعمر الذي شارك – بدوره وإلى حد كبير-في تمكينهم وتسخير وسائل الدعاية والدعم لهم، -هذا حقه- هذه القضايا من حقنا بَعد كل هذه الفترة أن نثيرها، لأن وثائقها متوفرة، وهي جديرة بالاهتمام لارتباطها بحاضرنا ولها تأثيرها على مستقبلنا فهي تتحدث عن مرحلة من تاريخنا مطمورة أو متجاهلة وأقصد هنا مرحلة تاريخ المقاومة بكل جوانبه المسلح، بمعاركه الباسلة التي اعترف المحتل بشراستها وقوة تنظيمها، والشعبي بشقيه، الرافض للمستعمر والحاضن للمقاومة أو المتستر عليها، والإفتائي الداعي إلى الجهاد وحرمة التعامل مع "النصارى" حتى بعد الاحتلال.

هذا هو تاريخ المقاومة الذي نعني، أي الكفاح بكل المتاح من اجل صد الغزاة عن احتلال البلاد،وليس مفهومي "الرفض-والقبول" وجدلية الشرعية واللاشرعية،ومن المحق؟ المقاوم أو المداهن؟ فتلك بالنسبة لي نقاشات غير هادفة بل لا أظن أن لها معنى فماذا يفيدنا معرفة أي الحزبين كان مصيبا، إنها احداث مرت،وبكل جوانبها تشكل تاريخنا، بغض النظر عن مواقفنا مع أوضد، كما أني لا أقصد بالمقاومة كذلك تلك الأسطر المدرسية المبتذلة التي تقدم في صورة باهتة مفرغة من أي محتوى وطني أو حتى بطولي والتي تلقن للأطفال تحت عنوان "المقاومة الوطنية" دون أن يُعلّموا معنى المقاومة: أسبابها، أهدافها، دوافعها، ونتائجها، وكم من الضحايا والشهداء خلفت حسب الوثائق الرسمية الاستعمارية؟ وما هي الخسائر في صفوف المستعمر؟ وكم هي المعارك التي انتصرت فيها المقاومة؟ ولماذا كانت هناك مقاومة؟ ومن هم المشاركون فيها؟ وما هي الأطماع الحقيقية للآخر المستعمر؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي نعتقد أنها مشروعة جدا، ولو طرحت في المناهج لكنا ربينا أجيلاً زُرعت فيهم ثقافة التشبث بالأرض والتضحية من أجلها، وليست الأجيال المشككة حتى في أن مقاومة حدثت

أصـــلا، فأصـــبح الوطن في الغالب لا يعني الكثير لنا حتى نموت من أجله، ربما بسـبب ذلك التغييب لتاريخ المقاومة في المناهج، والحضـــور الكثيف لخصـــومها المحليين بأعتبارهم من صنعوا تاريخنا الحديث، إنها مفارقة عجيبة تستحق بالفعل التأمل الجاد والحيادي لوضع الأمور في نصابها العلمي.

حتى الآن لم يجرأ أي منا على القول –ولو همسا– بأن الذين كتبوا تلك الأسطر المدرسية لم ينتبهوا إلى أن تلك الدروس التي تربت عليها الأجيال لم تكن مقنعة، ولا مفعمة بالشحنة الوطنية التي تغرس في النفوس ثقافة التمســـك بالعادات والأخلاق، وإجلال الموروث، والاعتزاز بالمقاومين، والشـــعور بالانتماء إليهم، وتقمص أهدافهم المتمثلة في التضـــحية من أجل الدين والعرض والوطن.

الآن وقد ذوت أو خفت أو ابتعدت زمانيا ثقافة "إمالزن" [55] التي كانت تسيطر على الحكم والسياسات والمناهج، هل أصبح من المشروع لنا الوقوف والتساؤل عن جدوائية تلك الأسطر المدرسية التي تظهر عمل المقاومة هامشيا جدا وذلك بالحط من قيمة رموزنا المقاومين، وعدم تشـــجيعنا على الاعتزاز بهم خارج الحقل "القبلي" وأن نفاخر ونفتخر بهم –كما يفعل الآخرون بمقاوميهم– لأنهم بذلوا مهجهم دفاعا عن دينهم وأعراضـهم وأوطانهم، أم أن الذين أشـرفوا على عملية كتابة التاريخ "المدرســـي" تلك كانوا أكثر ارتباطا بأولئك الذين إن أحســـنا بهم الظن في تعاملهم مع المستعمر قلنا إنهم اجتهدوا وأخطؤوا بمنطق زمانهم، لا أن نجعلهم يفكرون بمنطق زماننا، وأن نمتلك الشـجاعة ونقول إننا لسـنا ملزمين بأن نبؤهم المكانة التي بوأهم الاسـتعمار والتي يستحقونها عليه، لكن هل يستحقونها فعلا علينا؟ أم أنه آن الأوان كي نراجع ماضينا بكل علاته مثل بقية الشعوب.

صـحيح أن من حقهم علينا السكوت عن أعراضـهم وسـتر مثالبهم، رغم أنهم كانوا بحيث لا يُعتقد فيهم، لكن الإشارة إلى جوانب من أدوارهم قد تكون إنصـافا وصـونا كذلك لأعراض الذين جاهدوا وأوذوا على يد الاستعمار وصـبروا، ومع ذلك ظلوا غير منصـوفين حتى الآن ربما عن غير قصـد، وينظر إلى أعمالهم الجبارة وإنجازاتهم العظيمة في بعض الأحيان نظرة غير لائقة.

---

[55] إيمالزن تعني في اللسان الصنهاجي بائع العلك لأنه يتكلم بألسن زبائنه المختلفين فأطلقت على المترجمين أيام الاستعمار

ولعل في إشارتنا إلى بعض إنجازاتهم ما يجعلنا نفكر فيهم من أجل أن نرفعهم إلى المكانة التي يستحقون، خاصة أن القرءان الكريم أخبرنا بأنه [لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله] [وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما... [56]] وأن علينا أن نفضل المجاهدين من أسلافنا على القاعدين منهم، وأن نفضل المحرضين على المداهنين، وأن نفضل المنابذين على المتواطئين وعلى الذين يدعون أنهم لا يجدون حيلة، كما ينبغي أن لا ننسى بأن غورو [57] وجان بلان [58] وفرير جان[59] غزاة محتلون، وأن لا ننتظر من كتاباتهم وتقاريرهم سوى ذكر مثالب المقاومين، لا أن يثنوا عليهم ويعتبروهم من خيرة المجتمع، لأن سبب قدحهم فيهم ووصفهم لهم بالقتلة والمتمردين يعود إلى كونهم كانوا يدافعون عن أهلهم وأوطانهم ويرفضون الاحتلال، وذلك أمر يعتبر إرهابا وجرما في قاموس المستعمر. ولذا فإن من يرفع السلاح في وجه الاستعمار هدفه منع استتباب "الأمن والعدل الذي جاؤوا به!!".

هذه النظرة يتبناها ويتداولها على نطاق واسع وبشكل مؤسف باحثون وساسة وطبقات كبيرة ومتمكنة إن لم تكن هي المسيطرة على القرار التربوي، حيث لا يعتبرون ما حدث كان مقاومة بغض النظر عن دوافعها وإن كان السبب المباشر هو وجود الاحتلال.. يوجد من يشككون في المقاومة من نخبنا ويقللون من شأنها مشيرين في الغالب إلى انعدام عنصر الوعي الوطني، ومفهوم الأمة في فعلها، هؤلاء أحسن ما يقال عنهم أنهم لا ينظرون إلى الذين حملوا السلاح من منظور واقعهم وبيئاتهم، بمعنى كيف كانوا يفكرون في ظروفهم وواقعهم، وما ينبغي عليهم فعله لحماية وطنهم ومصالحه،لا كما نُفكر نحن نيابة عنهم كما يفعل البعض عند ما يتحدث عن الذين تعاملوا مع الاستعمار، حيث يعتبرهم أذكى من أهل زمانهم، وأنهم كانوا يفهمون القوة الاستعمارية كما يفهمها خريجو الجامعات الحديثة؟

مع استحضارنا لكل هذه الأبعاد والمعوقات والصعاب التي تواجهنا، فإننا لا نريد لهذه الدراسة المتواضعة أن تكون استنساخا أو اجترارا أو إسقاطا لرؤية معينة على أحداث مرتبطة بها، كما لا نريدها أن تكون ممنهجة بالطرق المعهودة والصرامة العلمية، وأن تكون موثقة بالأسلوب

---

[56] سورة النساء الآية 96

[57] الجنرال هانري غورو 1862-1946 ضابط فرنسي احتل العديد من الدول الإسلامية سوريا وانشاد وغينيا ومنطقة آدرار بموريتانيا

[58] جان بلان حاكم فرنسي لإقليم الحوض بموريتانيا في أربعينيات القرن الماضي يضرب السكان المثل بظلمه

[59] فرير جان قائد عسكري في حملتي تكانت وأدرار بموريتانيا ولد 1869- 1917

الأكاديمي، وإنما نريدها تسـجيلا لأحداث منسـية توجد معلومات نعتقد أنها كافية، ومجموعة أفكار متناثرة في وثائق موثوقة وموثقة حولها، غير متاحة في الغالب للكثيرين، رغم أن فيها الكثير من الأدلة والبراهين على وجود مقاومة حقيقية كلفت المحتل الكثير من الخسـائر باعتراف قادته الميدانيين.

بهذه الملاحظة وانطلاقا من هذه الرؤية للموضـوع، نود طرح سـؤالين أسـاسـين: أولهما عن هويات المقاومين وطموحاتهم؟ وثانيهما يتعلق بمحفزات صـناع الحدث من رَفضـةِ أي من صيغ التعامل مع الاستعمار؟ عن دوافعهم وإمكاناتهم؟ ولعل في الإجابة عن السؤال الأول ما يُمكن من إثارة أكبر قدر من الاستشكالات المسكوت عنها حول المقاومين؟ إجابة ولو مقتضبة تعطي تصـورا عنهم في حدهم الأدنى على الأقل، ويمكن أن يكون ذلك الجواب بالقول إنهم زمر من مشـارب شـتى، وفئات مختلفة ومرجعيات متباينة، وبإمكانيات تشـترك في التواضـع مقارنة مع ما يملك عدوهم من قدرات هائلة، يجمعهم هَم واحد هو الدفاع عن الوطن، والوقوف أمام أطماع الوافد المحتل، يشـتركون في الإيمان بوجوب الدفاع عن المعتقد وحماية العرض، ورفض الضـيم، وأن لا يكون للأجنبي سـلطة عليهم، وهم الأحرار المتحررون الذين تعودوا الانتجاع في أي مكان شاءوا ويرتحلون متى أرادوا.

فكيف ستكون ردود أفعالهم ونظرتهم إلى الغريب الطامح إلى جعلهم يذعنون له؟ ويخضعون لإدارته بالقوة؟ وأن يدفعوا له "الجزية" رمز السـيادة وأن يتحاكموا إلى شـرائعه؟... من أجل كل ذلك يمكن القول إنهم أعلنوا الجهاد في سبيل الله محتسبين أنفسهم وأموالهم عند الله.

وأما السؤال الثاني: حول المحفزات ودوافع الرفض فإن في إجابة السؤال الأول ما يعطي فكرة عنه. ومما لا شـك فيه أن أشـياء كثيرة سـتحركها الاسـتجابة للتحدي الجديد، حيث المخزون الديني والتاريخي، وأمجاد الأمة، وبطولات الإسـلام، وحماية الدين والوطن كلها أمور سـيجند لها، وسـتكون المهماز الأول ومصـدر الشـرعية، من هنا سـنطل بداية على الجهاد في بعديه الديني والتاريخي، ومن ثم نحدد كيف تم توظيفه وتمثله، ومدى الشحنات التي شحذ بها عزائم المجاهدين على اختلاف مرجعياتهم ودوافعهم، وحضوره الضمني في استشرافات حركة النضال

السياسي قبيل قيام الدولة الحديثة سواء عند من اعتمدوه عن وعي وإرادة، أم عند الطبقة التي حكمت والتي وظفته شكليا لدوافع سياسية وتمددات تاريخية.

لن نغوص في أدبيات كتابات الرحالة خاصة منهم الفرنسيون وما كتبوا عن أعدائهم الحقيقيين والمحتملين في أرض البيظان، ولا عن المؤامرات التي قيم بها من أجل إشـــعال الحرب بين القبائل تارة وبين الأمراء تارات أخرى تمهيدا للتدخل، أو تعميقا للخلافات من أجل الحصـــول على موطإ قدم، أو لكســب أصــدقاء محليين يكونون سـندا عند ما يبدأ الاجتياح، ولن نتحدث عن حجم وأنواع الهبات التي "مُنحت" للمخبرين والمتعاونين من علية القوم بغية تمرير المشروع الاستعماري، ولا عن التقارير الاستخباراتية عن المجندين والمتواطئين والمداهنين، فمصادر هذه الحالات كثيرة ومتنوعة تنوع اللاعبين، وإنما ســـنهتم أكثر بإبراز جوانب مســـكوت عنها ربما "خشية الإحراج" أو خوفا من افتضـاح حقائق مرعبة، وجرائم ارتكبت في حق الأمة باسم الدين تارة، ومن أجل مصـلحة القبيلة تارات أخرى؛ شـارك محليون متنفذون ومحترمون فيها و ما زال الحديث عنها خجولا إن لم يكن محرما.

ترى هل ينبغي أن تظل الأمور كذلك أم أن الوقت حان للحديث عنها؟ فقد وصلت نخبنا سن الرشـد وآن لها أن تعيد قراءة تاريخنا من جديد وفق المناهج العلمية المعمول بها واعتمادا على مصـــادر هذه الحقبة المتوفرة، والتي ينبغي أن تشـــكل مرجعية موثوقة تمثل الإجماع، لا أن نتركها مغيبة ومشـــكوكا في كل ما لا يرضـــينا مما ورد فيها، أو أن نتركها مهملة كما عليه حالها، وفي الغد نندب حظنا العاثر، ونعود إلى الحلقة المفرغة التي يعز علينا أن نتســـلى بها وهي أن "تاريخنا غير مكتوب"

بعض المشاهير والتوجس من الحضور الفرنسي.

بعض مشـاهير مجتمع ما قبل الحداثة كانوا على قدر كبير من الشـعور بالمسؤولية والعناية بالهم العام، والقدرة على تشخيص المستجدات واستحضـار سبل مواجهتها، كل حسب موقعه، ســواء كانوا من الطبقة الحاكمة كالأمراء وشـيوخ القبائل والنبلاء، أم كانوا من الطبقة "المثقفة" شـــيوخ المحاظر ،ومشـــايخ الطرق الصـــوفية ، هذه الطبقة في الغالب تتميز بحس "الجماعة" والنظرة العامة لمصـــالح المجتمع حيث تتجاوز إطار القبيلة والمجال الجغرافي لممارســـة

"الحق"،نظرا لسـعة اطلاعها واهتمامهما المحكوم بمفهوم الأمة ومصـالح المسـلمين، وفي هذا المضـمار نجد قادتها سـباقين إلى التنبيه على وجود غرباء من أمة خطيرة وأتباع ديانة قديمة العداء للمسلمين على وشك الانقضاض على البلاد.

سنسجل هنا بشكل مقتضب نُتفًا تُشير إلى مدى قلق أفراد من نبهاء المجتمع الساهرين على مصـالحه العامة من علماء وأمراء من مناطق مختلفة ومتباعدة جدا ودون تنسـيق، قاسـمهم المشـترك الحس الديني فقط، حيث أطلق بعضـهم صـرخات تحذيرية من تنامي خطر العدو الرابض غير بعيد، في إشارة إلى التواجد الفرنسي على تخوم "بلاد البيضان".

هذه المنطقة التي أصـبح الوجود الفرنسـي قربها ملفتا مع النصـف الأخير من القرن التاسـع عشر، وقبل أن يصبح مهددا وممهدا للاجتياح، نجد فيها نبهاء متوجسين، داعين إلى التعامل مع الخطر المحدق بجدٍ، من أجله يجب تجاوز الخلافات البينية، هذا القلق سنعرض لنموذجين يعبران عنه من منطقتين بعيدتين بعضهما عن بعض، وهما منطقة الشرق والكبلة وذلك لأسباب منها أنهما تشـكلان مناطق الكثافة السـكانية، مقارنة بغيرهما، وكذلك متاخمتهما لممالك السودان، والتبادل التجاري معهم، إلى غير ذلك من الأمور التي جعلتهما أكثر جذبا، كما جعل ذلك أهلهم أول الشـاعرين بالمتغير الجديد، وأول المطلعين على أبعاده، باعتبارهم الهدف الأول للغزو الفرنسـي، فكان مشـاهيرهم سـباقون إلى إطلاق الصـرخات التحذيرية القلقة من تنامي نفوذ "النصـارى"، والخوف من اسـتدراجهم أو إقناعهم لبعض رموز المجتمع بالتعامل معهم والركون إليهم، مما قد يفت في عضد الأمة وينشر الوهن في صفوفها.

نجد هذا القلق في نص رســـالة بعثها الفقيه محمد يحيى الولاتي[60] إلى أحد أعلام فقهاء منطقة الحوض المقيم في بلاد السودان[61].وهو الشريف جعفر بن المهدي[62] النعمي[63] المتوفى سنة 1894أي قبل احتلال أرض الحوض،يبدأ الولاتي رسالة بأبيات يقول فيها:

سلام زكي عائد وتحية	الى البحر علما والعزير تكرما
يشاب بنصح ناشئا عن مودة	وغيرة اسلام الى الجانب الأسمى
جنابكم السامي المعطر أن يرى	ذليلا عليه الكفر يضرب المغنما
فقد بان أن الأرض قد صار ملكها	لقوم يرون النقض للحق مغنما
وقد حل بالدين الحنيف ما ترى	وليس فقيه النفس كالجاهل الأعمى
وقد حل بالدين الحنيف ماتـــرى	وليس فقيه النفس كالجاهل الاعمى
يسومنه خسفـــاً وذلاً ومحنـــةً	وليس عليُ النفس كالقاصر المرمى
وانتم حماة الدين تأبـــون ذلـــه	لكم همة تسمو ومنقبـــة عظمـــى
وتعلم ان الأرض مغبـرةَ كمـــا	ترى وسواد الكفـر عمّ وأظلمـــا

---

[60] . أحد مشاهير علماء البلاد تولى القضاء في ولاته، دون رحلته إلى الحج، وله العديد من التصانيف في فنون مختلفة توفي عام 1912سنة من اتباع الطريقة الصوفية التيجانية.

[61] . كان يطلقها المؤرخون والرحالة العرب على جمهورية مالي الحالية واحتفظ بها الفرانسيون وبعد الاستقلال بدل الاسم.

62 . جعفر بن المهدي بن مولاي عبد الله بن مولاي صالح بن مولاي الشريف بن سيدي حمو العلوي النعمي مشارك في الكثير من الفنون من مواليد مدينة النعمة في عشرينيات القرن 19 له العديد من المصنفات من اشهرها كتاب الجمعة ي وله كتاب في التاريخ "تحفة الظرفاء في أسماء الملوك والخلفاء" ذكره الخليل بن النحوى في كتابه شنقيط المنارة والرباط" بمركز المخطوطات الموريتانية. وله كذلك العديد من الفتاوى. أسلم على يديه ماسري كيتا جد رئيس جمهورية مالي السابق مديبو كيتا حسب أبو الغيث بن مولاي أحمد بن جعفر في رسالته: تحقيق فتاوى العلامة جعفر بن المهدى معهد بن عباس للدراسات الإسلامية السنة الدراسية 1996 -1997 توفي جعفر عام 1311-1894 بقرية قيرة بجمهورية مالي.

63 . – نسبة لمدينة النعمة عاصمة ولاية الحوض الشرقي بالجمهورية الإسلامية الموريتانية، أسسها آل مولاي صالح البلحاجيين العلويين مجموعة من أشراف ولاتة 1223عام هجرية الموافق 1808 لمعلومات إضافية انظر حوليتي ولاتة والنعمة.

من كاتبه محمد يحيى بن محمد المختار إلى اخيه في الله السيد الفقيه الشريف مولانا جعفر بن السيد الولي الشريف مولانا المهدي، قد بلغنا أن النصارى يضربون المكس على من استولو عليه ويطلبونه رغما على أنفه، وقد اســـتولوا على هذه البلاد، وانتم حماكم الله من ذلك تأبى نفوسكم الزكية المهذبة ونسبتكم النبوية، ونخوتكم الهاشمية، وغيرتكم الاسلامية أن يكون لكافر عليكم سبيلا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما دم الفلك وحركاته".

وقد بعث له الفرنســيون رســـالة عن طريق حاكم دائرة بامكو غير مؤرخة تحمل وعودا بأنهم سيقومون بتأمين الطرق التجارية، تقول رسالة "الحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه وصـلى الله على من لا نبي بعده أما بعد فسلام وتحية وإكرام من كماند حاكم دائرة بامكو إلى جعفر بن المهدي فموجبه إليك إعلامك وإعلام أهل بلدك بأن قصـــدنا في هذه البلاد هو فتوح جميع الطرق وإصـــلاحهم للصـرف والتجارة وما شـاء الله نحن قائمين لإصـــلاح تلك والسـلام عليك ورحمة الله[64]". " ويقول الباحث أبو الغيث بن جعفر " تجدر الإشـــارة إلى أنه ورغم اتصـــالات الحاكم الإدراي الفرنسـي في بامكو فإن جعفر لم يندفع في التعامل مع الفرنسيين إذا مزغ وثيقة فيها ضمانات والتزامات تنفذ بعد احكام السيطرة الفرنسية على المنطقة [65] "

وقد نقل بول مارتي عن الرحالة الألماني اسكار لانز لقائه في مدينة سُكولوا المالية بجعفر بن المهدي، و تحدث عنه بالقول "جعفر حيدر الذي اســتقبل لانز أثناء مروره بســوكولو عام 1880..لانز يمدحه ويشـكره على المسـاعي الحميدة التي قام بها..ويصـفه بأنه كان محمود السـيرة وذكيا وواســع الصــدر..وكان مشــهورا في البلد وكبيرا فيه ولم يكن يخشـــي من قول الحق..وكانت له شـخصـــية بارزة جريئا لا يطأطئ رأســه ولا ينحني أمام حكام البنابرة.... لم يستقبل جعفر لانز في منزله بل استقبله في دار أحد عبيده، ولما أراد الحاكم أخذ ضـريبة من لانز باعتباره أجنبيا اعترض عليه الشريف جعفر وأعطاه هدية مقابل أن يخلصه منه"[66].

---

[64] كنا في الطبعة الأول قد ذكرنا أن العلاقة بين جعفر والفرنسيين قد تطورت غير أننا بعد طباعة الكتاب حصلنا على وثائق تثبت عكس استنتاجنا.

[65] بلغيث بن جعفر تحقيق أجوبه العلامة جعفر بن المهدي النعماوي ص 18 بحث لنيل شهادة المتريز معهد بن عباس للدراسات الإسلامية بموريتانيا السنة الجامعية 1996-1997

[66] . بول مارتي دراسات حول الاسلام في بلاد السودان الجزء الرابع ص 101 ط ارنست لبرو باريس 28 شارع بون ابيرت -6-1920

وبحوزتنا أيضا وثيقة أخرى حصلنا عليها من مكتبة سيدي محمد الملقب سيداتي بن مولاي إسماعيل حفيد جعفر بن المهدي، تحدد المبلغ الذي دفع جعفر فدية عن الرحالة لانز للامير الزنجي، وجاء في الوثيقة "هذا وليعلم الواقف عليه أن مامَري بن دابا أخذ من جعفر بن المهدي ظلما وعدوانا مئة ألف إسلامية، من جهة النصارى الذين قدموا لكال من جهة المشرق..وأخذ منه أيضا إحدى عشر مثقالا من جهة النصارى". وتختتم الوثيقة بعبارة "واستكتب فكتب لعشر مضت من شهر الله المحرم عام سبعة بعد ثلاثمائة وألف محمد المختار بن أحمد الحبيب..وعلى ما في المحول كتب من عاين الكل جميعا أحمد بن المصطفي".

وفي هذا السياق أيضا يدخل مؤتمر تندوجة الذي دعا له العبد الصالح ذائع الصيت الشيخ سيديّ[67] عرفه صاحب كتاب الوسيط بالقول "الشيخ سيديّ.. شد الرحال إلى الشيخ سيد المختار الكنتي[68] بآزواد من مسيرة شهر وأكثرها غامر، ثم وصل إليه ولازمه ستة أشهر ثم مات الشيخ سيد المحتار، فبقي عند ابنه الشيخ سيد محمد المعروف بالخليفة، لقيامه مقام أبيه فلازمه عشرين سنة يخدمه فيها حتى برع في معرفة الطريق وعلم الأسرار، ثم رجع إلى بلاده.. فتلقوه بما هو أهله واكرموه واعترفوا بفضله فلم تزل فضائله تبدو حتى أذعنت له الزوايا وحسان، وصار مثل الملك عليهم فلا يعقب أمره[69]".

حاول الشيخ سيديّ رص صفوف القبائل ذات الشوكة، وتوحيد كلمتهم، للوقوف في وجه الخطر الداهم المهدد لبيضة الإسلام. والمتمثل في تواجد الفرنسيين على أطراف بلادهم، بعد أن انساحوا في بلاد السودان المجاورة "الشيخ سيديّ بما عرف عنه من علو الهمة وسعة المعارف قارع الاستعمار الفرنسي عبر جهوده الشخصية ومراسلاته، وحاول جمع كلمة البلاد وتوحيد الإمارات في وجه هذا الخطر."[70] .

وفي سياق جهوده الرامية لتوحيد الصف في وجه الفرنسيين "عمل على إصلاح ذات بين المغافرة وحاول توحيد كلمة الإمارات الموريتانية للتصدي للخطر الفرنسي، وفي هذا الإطار

---

[67] الشيخ سيديّ بن المختار بن الهيبة توفي سنة 1867

[68] الشيخ سيد المختار بن أحمد الكنتي أخذ الطريقة القادرية عن سيد اعل بن النجيب التاركي، وعنه أخذ الشيخ سيديّ، توفي يوم الأربعاء الخامس من جمادى الآخر عام 1236هـ

[69] أحمد بن الأمين الشنقيطي كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ط 4 القاهرة 1987م

70 . إزيد بيه ولد محمد محمود: كتاب الزوايا، مصدر سابق. ص: 296

تدخل جهوده المضنية للإصلاح بين محمد الحبيب، وزعماء خندوسة العائدين من منفاهم الآدراري، ومساعيه التي توجت باجتماع تندوجه (يناير 1856) والذي ضم أمراء الترارزة وآدرار وممثلا عن أمير تكانت، بعد سنة ونيف من اندلاع الحرب بين محمد الحبيب وفيدرب. ووفق في تسوية خلافات محمد الحبيب مع أميري آدرار وتكانت؛ ليتفرغ لمهاجمة التوسع الفرنسي في مصب نهر السنغال معضضا بجناح البراكنة المنضوي تحت إمرة محمد ولد سيدي"[71].

وكان ابنه الشيخ سيدي محمد أفضل معبر عن الخطر بقصيدته التحذيرية الداعية إلى الجهاد والمستنهضة للهمم؛ إن لم يتم تدارك الموقف والوقوف بحزم والتشمير عن السواعد والاستعداد للمواجهة بكل المتاح من القوة وعدم التهاون في أمر العدو النصراني الغازي يقول فيها:

ولو في المسلمين اليوم حر	يفك الأسرى ويحمي الذمارا
لفكوا دينهـــم وحمـــوه لما	أراد الكفار به صغـــارى
حماة الدين إن الدين صارا	أسيرا للصوص وللنصـــارى
فـــإن بادرتمـــوه تداركـتموه	والا يسبق السيف البـــدارا
والروم عاينوا من الدين ضعفا	فراموا كلما راموا اختبارا
فإن انتم سعيتم وانتدبتم	برغم منهم ازدجروا ازدجار
وإن أنتم تكاسلتم وخفتم	برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فألقوكم كما يبغون فوضى	حيارى لا انتداب ولا أئتمارى

سنكتفي في هذا المستوى بهاتين الصرختين باعتبارهما شذرتين دالتين على المُفكر فيه بالنسبة لنخب المجتمع العالمة، والمتنفذة لدى النخب السياسية في مجتمع تلك الحقبة و كيف أن الوافد الغريب، والعدو في الملة، كان ينظر إليه من جانب خطره على الدين، وليس من باب كونه مهددا لمصالح الأمراء، كما درج على ذلك بعض المهتمين وكيف أن المحرك الاقتصادي وثقافة الريع النفعية . التي يُركز عليها– لم

[71] ـــ محمد المختار ولد السعد التبادل التجاري بين إمارة الترارزة والفرنسيين من عام 1701 ـــ 1760، الجزء الثاني، منشورات المعهد الافريقي الرباط 2004، ص 566

تكن هي الدافع للمقاومة. أعني ما كان ينظر إليه الزعماء كأتوات تدفع لهم باعتبارها مغرما لهم على النصارى مقابل تأمين وتمكين التبادل التجاري مع الأهالي، والتي يعتبرها الفرنسيون أشياء رمزية يجعلون منها مفاتيح لخططهم المستقبلية، ووسائل للضغط، وإثارة الحساسيات الشخصية بين الأمراء، مما يعطيهم موطأ قدم، ونفاذ كلمة على هذا الطرف أو ذاك، بغية تأجيج الصراعات الداخلية. والتأكيد على هذا البعد الاقتصادي لفعل المقاومة مما هو معروف في كتابات المهتمين بهذا الشأن، لا نرى تأكيدا يوازيه عندهم يعتبر أن دوافع تحمس حلفاء فرنسا من طبقة الزوايا كانت أيضا نفعية مقابل الخدمات التي قاموا بها من أجل الاستعمار.

إن هذه الدوافع لم تكن مطروحة خلال الاحتكاك الأول، إذ أن لها ظروفها ومنطقها وآلياتها المنفصلة والخاصة بها،كما أن ترويجها والاهتمام بها رغم كثافتها جعل صورة الوجه الآخر تتلاشى أو تختفي كمفكر فيه، وقد لعبت ثقافة المحتل وكتابات وطنية أخرى منفعلة هي أيضا بأنساق تاريخية محلية، وتراكمات اجتماعية يحددها محيط وواقع له تجليات معينة دورا في جعل المُكفر فيه لدى القدماء هو هذا الجانب المنوه به أعلاه، وإغفال الجانب الأكثر تأثيرا والأكثر حضورا وعمقا في الوجدان الشعبي وتحريكا له والذي هو الجانب الديني. وإلا فكيف نفسر الاهتمام الكبير عند البيضان بانتصارات ملوك وأمراء الزنوج خارج مجالهم الترابي على التحركات الفرنسية. فنجد في حولية النعمة مثلا اهتماما ملفتا بتلك الانتصارات "1300هـ وفي رجب بلغنا أن بن عال دند سلطان فوته غلب النصارى وردهم على أعقابهم بعد مقتلة عظيمة وهم في عدد لا يعلمه إلا الله، حاملين على البخت والسفن، شكر الله سعي فوته".

"وفي غرة رجب وقعة النصارى والبنابرة[72] على أحمد بن الحاج عمر الفوتي في مستقر ملكه في سيقو[73] ففر أحمد عند أول ضرب "انفاظ"[74] النصارى واستولت البنابرة على سيقو ورجع

---

[72] . البنابر شعب قديم في إفريقيا الغربية أسس العديد من الممالك. للمزيد من المعلومات أنظر
.Sennenandiriamirado ; Le Mali aujourd'hui, Editons Jeune Afrique, 3 ru requepin 75008, paris

[73] . العاصمة الاقتصادية لجمهورية مالي كانت بيد أحفاد الحاج عمرالفوتي إلى أن انتزعها منهم الفرنسيون عام 1895.

74 . لفظة شعبية تعني قماشا من الجلد توضع فيه الذخيرة الحية.

النصارى إلى المغرب[75].. "وفي عام 1309هـــ غزا النصارى مرتين إلى الساموري توري[76] المجاهد في سبيل الله أيده الله تعالى فهزمهم هزيمتين عظيمتين"

هذا الاهتمام بتحركات الاســـتعمار وانتصـــارات المجاهدين من الزنوج يمكن أن ينظر إليه كتعبير عن هم عام ينبغي الاســـتعداد له قبل فوات الأوان. وهذا ما حدث عند اندلاع المقاومة المســـلحة حيث شـــارك الجل، حتى أولئك الذين كان ديدنهم المســـالمة والوداعة كقادة حركات الزهد من الغظف[77]، وغير الباحثين عن الربع أصـــلا مما يعني أن المحرك الديني كان الأقوى، ولو كان الدافع نفعيا لكان التخندق في الصف الثاني أنجى وأجدى.

ومن نافلة القول الإشـــارة إلى أن مقاومة الغريب جبلة عند الكائنات الحية بكل أجناســـها تقريبا،للدفاع عن الذات وحماية مكان الإقامة واحتكار المجال الجغرافي المعاش فيه، والإنســـان من أكثر الكائنات الحية تمسكا بمبدأ الدفاع عن الذات، والتي من أجل حمايتها ابتكر أســـاليب الحروب وأنواع الســـتر الواقية من الحر والقر، واختراع آلات القتل والإنتاج، وعمّر الســـهول بالمزارع، وذلل الهضـــاب بالمســـالك، وغامر في البحار بحثا عن الأمن تارة وعن الربع تارات أخرى، ودبر الحيل، وروض الحيوانات، وسخر الطبيعة خدمة لحمايته، كما سطا بعضـه على بعض على مر العصور في دورة كونية تكاد تكون سنة الحياة، فدالت دول، وانقرضت شعوب، واندثرت حضـــارات، وظهرت ملل، واختفت نحل، والدافع يتجدد إنه حب البقاء والســـيطرة، الظاهرة الملازمة والمزامنة للإنســـان، والتي من أجلها طور مفهوم حب الســـيطرة والظفر بكل شيء.

تاريخ الشعوب مليء بالذكريات، وذاكرة كل أمة مشحونة بأمجادها وانتصاراتها على أعدائها، أما الهزائم فلا ترِد إلا لمَما، لأن الشـعوب خائفة من تلك الصـحائف القاتمة المذكرة بتلك الآلام المفزعة المحفورة في الذاكرة؛ مشكلة أنا الانتقام كلما سنحت الفرصة.. ولأن الانتقام يكون بأنواع شـتى، وإن كانت دلالة الكلمة تصـرف إلى الفعل التصـادمي العنيف لا إلى التجاهل والنسـيان

---

75 . يقصدون بلاد السنغال

76 . مجاهد زنجي من غينيا اعتقلته القوات الفرنسية ونفته إلى الغابون التي مات بها عام 1895.

77 . نسبة إلي الشيخ محمد الأغظف الداودي توفي 1211 1805 وقبره بمكان يدعى المبروك داخل التراب المالي قريبا من مدينة عدل بكرو بالشرق الموريتاني.

فإنه شكل من أشكال الانتقام في الأنا قد يجسد بعض الأحيان في تلميع صورة المناصر، وذكر إيجابياته والسكوت عن سلبياته، حتى يتحول مع الزمن إلى هبة من الله تداركت الناس لإنقاذهم حال فرنسا المستعمرة عند مناصريها!!. والتنقيص من المقاومة والحديث فقط عن مثالبها والتركيز على أخطائها، حتى تبدو لنا وكأنها مجموعة عصابات مأجورة يعمل بعضها من أجل النهب، والبعض الآخر لصالح الخارج.

انطلاقا من هذه الرؤية سنسجل شذرات من تاريخ مقاومتنا الحديثة والمعاصرة، واقفين عند نماذج من تشكلاتها وبعض تنوعاتها، مستقرئين دوافعها المباشرة، ومنطق أسبابها الواضحة كما يفكر أهل زمانها، لا كما نفكر نحن نيابة عنهم بمنطق ثقافة عصرنا المنفعلة بأيدلوجية المنتصر، التي تجعل من تفكير حليفه المحلي تفكيرا خارقا وسابقا لزمانه من فرط الموضوعية وحدة الفطنة ورجاحة العقل، حيث أدرك عدم التكافؤ وانتشار الضير البيني إلى غير ذلك من المسوغات التي تصل قمة تجلياتها عندما يذهب البعض إلى أن الدوافع النفعية هي المحرك الأساسي والأوحد للفعل السياسي في تلك الحقبة بكل أبعادها.

شيوخ ومشيخات مرحبة ومتحالفة مع لفرنج

فرنسا صاحبة اليد الطولى في الاستعمار، وفي مقارعة المسلمين حيث شاركت جيوشها في أولى الحملات الصليبية وفي آخرها، وأعادت الكرة وحدها مع حملة نابليون على مصر، وانقضت على ضفاف المتوسط الجنوبية المسلمة (تونس- الجزائر) فاقتطعتها من الأتراك العثمانيين، فهي بذالك الإرث تعرف جيدا معنى الفتوى عند المسلمين، ومكانة المفتي عندما يتعلق الأمر بجهاد "الروم" وتعلم كذلك من تاريخ الصراع المديد مع المسلمين أن قادة رايات النصر في القرون الوسطى هم أكثر السلاطين وأمراء الجند تجنيداً للعلماء ونشر البسط لهم والتمكين لهم خارج البلاط، وتعلم أن العديد من علماء الدين كانوا حملة مشعل التصدي للغزوي الرومي لبلاد الإسلام، معبئين ومحرضين، بل ومقاتلين، مرابطين عند الثغور، وأن منهم من كان يعتقد أن الحاكم غير المتحمس أو العاجز عن حماية "بيضة الإسلام"،يجوز فسخ بيعته.

كما يعرف الفرنسيون أن من يكسب ود العلماء لن يواجه مقاومة كبيرة، ولن يصمد أعدائه، ولن يجدوا حواضن اجتماعية تحمي ظهورهم وهي مُقدمة على احتلال صحراء ليس بها حكام متحالفين أو طامعين بالتحالف معها، فكان عليها البحث عن موالين حتى لا يكون الكل ضدها فتتحمل من الخسائر أكثر مما تستحق هذه البلاد الصحراوية الشاسعة، ومع أن قرونا من المجاورة والمعاملات والبعثات والاستكشافات، لم تمكنها من معرفة سوى القليل عن منافذ الأرض التي ستدخلها لأن سكانها من أهل الشوكة مدعومين بأهل القلم منعوها(إلا في النادر وبالحيل) من التوغل داخل هذه الربوع، مع ذلك فإن طول المجاورة والمثابرة علمتاها كيف تخترق الحصن الأهم الذي كان يفترض أن يَصمد أكثر من غيره، وأن يكون اختراقه مستحيلا، ونعني به حصن الفقهاء الذين آزر بعضهم فرنسا، ووجدت بذلك سنداً قوياً لمشروعها.

ظاهرة الاختراق هذه منتشرة في غالبية الشعوب التي تعرضت للغزوي، كما انها ليست غريبة في التاريخ الإسلامي، ففي كل زمان من تاريخ الأمة يكون بها علماء متعاونون مع الغزاة يرفعون حججاً -لا مجال لمناقشتها- يدعمون بها مواقفهم تلك، ولم تكن هذه البلاد بدعاً في هذه الظاهرة، فقد انبرى علماء كبار للدفاع عن المشروع الاحتلالي. لكن ما يجعل حالتها شبه استثناءٍ فريد في محيطها الإقليمي -على الأقل- هو أن المتواطئين في الغالب يكونون من المراتب الدنيا علماً وصيتا، أما عندنا فقد شارك مشاهير كبار ومن جميع الجهات في الدعوة للانخراط في مناصرة الاحتلال.

زادت الدعاية من شهرتهم وأوصلتهم مرتبة صُمت فيها الآذان واختفت أو أُخفيت فيها حقائق عنهم، الأن فرنسا وجدت فيهم بغيتها المتمثلة في تمرير مشروعها، مقدمين لها الشرعية الدينية، ولربما يكون لهم عذر لو أنهم كفُوا أيديهم عن الكتابة ولم يُنَظروا لفقه الخضوع، وسقوط الجهاد، وبسطوا ألسنتهم فقط وروجوا للمداهنة والخنوع، ولو أن كتابنا المعاصرين لم يبالغوا بدورهم في التنويه بقدرتهم العلمية الفائقة، وذكائهم الحاد وشفقتهم على مواطنيهم، دون أن يتحدثوا – بما فيه الكفاية- عن ظروفهم الخاصة التي دفعتهم إلى لعب تلك الأدوار، لقد لعب التاريخ المناقبي المعتمد في دراسات أهل هذا البلد المتعلقة بأعلامهم دورا كبيرا في حجب الجوانب الموضوعية لقراءة حقيقة الأحداث التي يُشكل هؤلاء المشاهير جزءاً منها ولا يعني ذلك انتقاصا منهم أو حطاً من مكانتهم فلكل رأيه وما تمليه ظروفه وخلفيته.

صـحيح أن المشـاهير الذين أيدوا الاحتلال هم الفئة التي حظيت بتبجيل المسـتعمر وتكريمه وهذا أمر طبيعي، والاسـتفادة من خلفه بعد قيام الدولة، لكن أن تظل تلك الفئة محمية من النقد والدراســة العلمية لتصــرفاتها تلك فذلك وضــع نعتقد أن الوقت حان لمراجعته وإعادة تقييمه بأسلوب علمي يبحث عن الحقيقة وليس عن الثلب والتحامل.

أما الفئة التي ينبغي أن تكون مفخرة الأمة، وكانت تمثل ضــميرها الحي، وتمثل الســواد الأعظم كما يؤكد ذلك حتى الدكتور إيزيد بيه- رغم ليونته في كتابه مع الفقهاء المؤيدين للمشـروع الاسـتعماري- حيث يقول: إن الفقهاء رفضـة المشـروع الاسـتعماري كانوا يشـكلون أكثرية... "ويمكن القول بشــيء من التحفظ أن زوايا الرفض كانوا الســواد الأعظم من هذه الشريحة، للسجية التي فطروا عليها ولتمسكهم بظاهر النصوص الشرعية وعضهم على السنة بالنواجذ، ولا نجد عناء كبيرا للتدليل على ذلك أو إظهار مصــداقية تجليات الرفض التي عبرت عنها الهجرة. فكم ونوع وعمومية الجهات والمهاجرين بدافع حضــور الفرنســيين أشــهر من أن يشهر".

ولا غرابة في ذلك، ففقهاء هذا البلد الذين كان شح المراجع يفرض عليهم أن يكونوا مستعدين لتقديم الحلول لكل مســتجدات بيئتهم الموغلة في البداوة، لا غرابة أن تجدهم كلما ألمت حادثة في بيئتهم تلك اجتهدوا لها وســموها "نازلة"، فخلفوا لنا كما معتبراً من النصــوص تتعلق بمستجدات عصورهم، أما في موضوع مقاومة الاحتلال الفرنسي فإن الأمر لا يحتاج إلى اجتهاد أو جدل فقهي كبير، لأن النصـوص المتاحة صـريحة في وجوب الجهاد (إن فاجأ العدو الكافر بلاد المســلمين) وعلى المثبطين أو دعاة ســقوط الدفع وحدهم أن يجتهدوا ويثبتوا دعواهم المسقطة للجهاد.

نشـير قبل الاسـترسـال في الموضـوع إلى أن الفقهاء -قبل كشـف المسـتعمر عن نيته في احتلال البلاد- لم يثيروا مسألة التبادل التجاري معه بشكل كبير من ناحية الجواز أم لا، بل إن كبريات قبائل الزوايا وشـخصـياتهم كانوا يتبادلون معهم السـلع، غير أن الموقف تغير مع بداية المشــروع الاســتعماري الفعلي وإفصــاحه عن نيته الحقيقية، فكانت معركة القلم بين الفقهاء

شديدة الضراوة لأن المواجهة مواجهة فكرية مع أخ في الدين وبن العشيرة وله مناصروه وأتباعه المقلدون له.

ولم تنته هذه المعارك حتى بعد الاحتلال لكنها وكما تمت الغلبة العسكرية لفرنسا، فقد ظل صوت مؤيديها الوحيد المسموح له بالانتشار، خاصة في المسائل الناتجة عن الاحتلال، ومع ذلك لم يحصلوا على شرعية و تزكية كل الشيوخ في الغالب كما أن من النادر أن نجد صدى لتلك الأسماء اللامعة في مساندة الاستعمار في مجالس شيوخ المحاظر أو تدريسا لنصوصهم، وإن كانت سطوتهم المستمدة من المحتل أساسا والهالة القدسية التي أحاطهم بها تفرض عدم المجاهرة باحتقارهم من باب "التقية" لا غير فيما نعتقد.

في عرضنا لمعارك القلم لن نسهب كثيرا لاعتبارات منها أن الفتوى لم تتوقف، حيث ما فتئت المستجدات المرافقة للاستعمار تواجه بفتاوى ذات مضامين تعكس في الغالب المواقف الرافضة، كالطعن في شرعية مفتي إن كان من المؤيدين للاستعمار، واعتبار فتواه غير ملزمة و لأننا مهتمون أكثر بمعركة السيف بدرجة أولى فإننا سنهتم فقط بواحدة من أهم الفتاوى المؤيدة التي ظهرت عند بداية احتلال الجنوب الغربي (منطقة الاحتكاك)، ومع أحد أعلامها البارزين، وأخرى معاصرة نسبيا تعبر عن الرفض في أوسع وجوهه لأحد أعلام المنطقة الشرقية لموريتانيا الحالية.

الشيخ سعدبوه ولد الشيخ محمد فاضل الحسني الحوضي (ت 1917)

من بين زعماء المشيخيات المرحبة بالاحتلال الشيخ سعد بوه، بن الولي الكبير ذائع الصيت الشيخ محمد فاضل بن مامين، الذي يرفع نسبه إلى الحسن بن علي عليهما السلام عبر السلسلة الادريسية، أقدم أشراف المغرب الأقصى، الذين اختفوا في الصحراء الكبرى بعد سقوط دولتهم المتزامن مع قيام دولة المرابطين صحراوية الأصل،وفرضت تلك التحولات على الكثير من الأشراف الأدارسة المهاجرين إلى الصحراء التكتم على أنسابهم خشية البطش، ولعل ذلك ما يُفسر عدم كثافة المعلومات التي تقدم المراجع عن تاريخ أسلاف هذا الشيخ، وتبقى الرواية الشفوية هي الغالبة،ومن أهم تلك الروايات المنقولة عنهم أنهم استوطنوا مدينة تمبكتو زمانا، وفروا منها أمام زحف السعديين عليها في القرن 16، واستوطنوا الحوض (شرق موريتانيا) ردحا

من الزمن، ومنه هاجروا إلى تكانت (وسط موريتانيا)، حيث قبر جدهم الذي تحمل القبيلة اسمه الطالب مختار باللسان العربي، أو جيه المختار باللسان الصنهاجي[78]، ثم تعرضوا -ودائما حسب روايات شيوخهم الشفوية- إلى بطش أحد زعماء القبائل الحاكمة يُدعى "قيوار فعادوا ثانية إلى الحوض وتخلو عن التسمية الأصلية والتعصيب مع أبناء قبيلتهم القلاقمة"[79].

ومع ظهور الشيخ محمد فاضل في القرن (19) تغير الوضع، وبدأ فعلا التاريخ الحقيقي للقبيلة، وارتفع صيتها عاليا وحّظي هذا الشيخ باهتمام جهابذة العلماء حيث أفرد له الطالب بوبكر المحجوبي الولاتي صاحب كتاب منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، ترجمة خاصة في كتاب مخطوط له وذلك أمر نادر في علماء ولاته، أنجب هذا الشيخ الكثير من أعلام البلاد الذين امتازوا بخصال حميدة حتى استحق فعلا لقب "أب الأولياء" حسب تعبير الخليل بن النحوي في كتابه "شنقيط المنارة والرباط"[80].

الشيخ سعد بوه ابن لهذا الولي، وبه يمر أكثر سند الطريقة الفاضلية القادرية في موريتانيا، وخاصة في الجنوب الغربي والشرق، حيث انتشرت على يد مريديه الشيخ التراد بن العباس، والشيخ أحمد أبا المعالي التاكاطي.

تُرجم للشيخ سعد بوه كثيرا وعليه لن ندخل في تفاصيل حياته، بل سنكتفي بنقاط معينة تنير مسعانا لمعرفة خلفية هذا الرجل والظروف التي اكتنفت أو فرضت عليه الدخول في المشروع الاستعماري، وسنبدأ حديثنا عن بداية مشواره كما أورده هو في كتاب له مخطوط بعنوان "الجواب المحتوم للمعترض علينا في أمر الروم" الذي تحدث فيه عن هجرته التي تمت في حياة والده وبأمر منه "فلما أراد الله استيطاني عن وطنه وابتعادي عن مكمنه، فأشار إلي بالانصراف، من غير أن يكون له ولله الحمد عني انحراف، فامتثلت أمره المطاع.. فما زلت أطوى بالمطايا ممدود البلاد.. حتى انتهيت إلى منتهى منتشر صيت أبي، فضاق بذلك صدري.. فيممت أقاصي المغرب حيث لا مجاوز وراءه للمغرب".

---

[78] ومن المفارقات أن أبناء هذه القبيلة يفضلون التسمية الصنهاجية (جيه المختار) على التسمية العربية الطالب مختار؟

[79] ـــ هذه القصة ذكرها كذلك الرحالة بوبريك في كتاب له بعنوان: La confrérie Fadilliya L'Islam Saints et Societ en Ouste Saharienne طبع بباريس سنة1999 وعلق عليها بالقول إن مؤرخي وكتاب المنطقة لم يذكر أي منهم شخصية بهذا الاسم قط.

[80] . الخليل ولد النحوي: شنقيط المنارة والرباط، تونس، 1987

وقال إن من أسباب إقامته في هذه الأرض أن يرفع الله ذكر والده بين أهلها الذين لم يسمعوا به، ومنها بدأ نشاطه الصوفي في الانتشار، وبدأ اسمه يدخل التاريخ، وإن كانت بدايته لم تكن مفروشـة بالورود حيث عانى الكثير من المضـايقات من (الزوايا) ومحترفي مهنة العلم حسـب دعواه.

وقد عبر عن الشـعور بالمرارة كتابة أكثر من مرة، وخاصـة في مخطوط له يحمل عنوان "المحرش" يتعرض فيه لمواقف قال إنها بدرت من بابه بن الشيخ سيديّ اتجاه اسرته، واغتيابه لهم وحطه من مكانتهم، حسـب المخطوط الذي يتحدث فيه عن الكثير من المآخذ، ويبدي فيه الإحسـاس بالانزعاج من تصـرفات بابه المعادية له ولأهله، ولا يتحدث عن أسـباب تلك الانتقادات وهو ما يجعلنا نرجح أن يكون من أسـبابها التنافس على الحظوة والجاه، وكسـب الأتباع، وكان موقع بابه الأقوى لموروث جده الشيخ سيديّ، ولكونه من أهل المنطقة وله قبيلة تحميـه، ومع ذلك فإن سعد بوه استطاع أن يجد موطأ قدم و نفوذ روحي، وحظوة لدى أمراء الترارزة ونبلائهم لا تقل شأنا عن غريمه الذي خصص مخطوطا للرد عليه ومهاجمته بأسلوب متشنج يفهم منه وجود أزمة ثقة حادة جدا وعميقة بين الرجلين.

وإن كان رد أسـباب هذه الأزمة إلي الصـراع من أجل النفوذ الروحي والذي يرى فيه بعض الباحثين دافعا لخضـوعهما للحماية الفرنسـية كضـمانة لتعزيز ذلك النفوذ، مع ذلك يبدو أن الأزمة كانت أعمق، فسـعد بوه في المخطوط لم يشـر قط إلى ما يفهم منه أن خلافهم له دوافع تتعلق بالمرجعية الصـوفية وهذا ما يجعلنا نرجح أن يكون جزء من صـراعه مع زوايا المنطقة عموما خاصة تلميحه إلى وشاية، وهو ما نجد له أصداء في مخطوطه الذي يهمنا أكثر (الجواب المحتوم للمعترض علينا في أمر الروم) والمتعلق ببداية اتصـاله بالفرنسـيين، حيث تكلم فيه بإسـهاب وبنبرة غاضـبة وأسـلوب مجرح عما جرى له معهم، قبل أن يبدأ الحديث عن بداية اتصاله بالفرنسيين، وكذلك عرضه للوجه الشرعي لتصرفه المناصر لهم.

والملفت في هذا المخطوط هو حرصـه على لعن النصـارى عند كل ذكر لهم غير أن هذا الموقف سـرعان ما تغير في مخطوطه الرسـالة العامة والخاصـة في التحذير من محاربة لفرانصة.

وقد عرفت علاقات سعد بوه بالفرنسيين مرحلتين، الأولي عبر عنها في هذا المخطوط الذي يبدو فيه غير مرتاح لموقفه، ويبالغ في تقديم الأعذار لتصرفه المدان من طرف خصومه الذين يصفهم بأنهم "حسدة واشون"، ويحاول إعطاء الانطباع بأنه ليس نصيرا للفرنسيين. كما يسهب في شرح نياته اتجاههم، وأن كل ما يقوم به من خدمات لهم هو في النهاية من أجل مصلحة المسلمين.

غير أنه في مخطوطه التالي (النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة لفرانصه) يدشن مرحلة جديدة من التعاون الكبير والدفاع عن المشروع الاستعماري مهاجما كل من يعادي فرنسا، بمن فيهم أخيه الشيخ ماء العينين، ليتوج هذه المرحلة بتسليمه لفتوى غريمه بابه بن الشيخ سيديّ، الداعية إلى مسالمة فرنسا والخضوع لها بأسلوب مفرط في المحاباة، فلا يصدق أن مؤلف "المحرش" الذي يهاجم نفس الشخص هو صاحب ذلك التقريظ. ولم يقف تحركه عند هذا الحد بل انتقلت جهوده الداعية إلى مناصرة فرنسا والوقوف إلى جانبها إلى مناطق نفوذه الروحي في شرق البلاد الذي تعاون فيه أكثرية أبناء قبيلته مع الاستعمار، ولم يظهروا أي تعاطف مع أخيه المقاوم ماء العينين حسب ما نقل بول مارتي.

يقول سعد بوه بشأن الفرنسيين في كتابه الجواب المحتوم " شاع في البوادي وأهل القرى أني أسعى والعياذ بالله في مصالح النصارى،[81] وشاع وذاع في الثقلين أن بعض العلماء أباحوا عرضي" وبعد أن يذكر هذا الدافع للرد يبدأ في ذكر أول اتصال له بالنصارى، حيث يقول إنه زار اندر (مدينة سان لويس السنغالية) واستضافه الحاج أبو المقداد وأكرمه وطلب منه مقابلة الفرنسيين لأنهم يكرمون أهل العلم فامتنع "وأخبرني أنهم يحبون أهل الفضل ويكرمونهم مع كفرهم الصارخ... فلم أرض له ذلك، ولم أقبل مما هنالك" .

وجاء الاتصال بهم بعد ذلك على خلفية عراك حمية للدين كما يقول، وذلك عندما قام مع تلاميذه يذكرون الله جهرا فجاءهم فرنسيون وأمروهم بالسكوت فوقع بينهم اشتباك بالأيدي "فأتاني جماعة من النصارى لعنهم الله تعالى وزجرونا عن الذكر، فقام إليهم مريدنا محمد

---

[81] . تعبير يستخدم للدلالة على المستعمر الفرنسي، سواء عند العامة أو عند أصحاب الثقافة العالمة، وسنتمسك باستخدامه في هذا الفصل انسجاما مع النصوص والرسائل التي سنتعرض لها.

الأمين بن عيسى وصفع رئيسهم فأدمى أنفه وملأ من دمه لحيته وثوبه. فأرسل النصارى مريدهم إلى رئيس قريتهم فجاء عاجلا وتكلم بعض الكلام فأغضبني حتى حلفت له أن لا يتكلم أحد لنا ولا لمريدينا هذا إلا وخسف بالقرية، فارتاعوا والله الحمد غاية الروع وبجلوني غاية التبجيل وأهدوا إلي غاية الهدية، وطلبوا مني العهد فتعاهدت معهم على أن من وصل بلدا أنا فيه أأمنه من بني حسان، ما داموا لم يقع بينهم وبينهم حرب لا أزيد ولا أنقص، وعاهدوني على أمور أنهم لا يصدون أحدا عن الذكر جهارا، وأن لا يؤذى في أرضهم أحد من تلامذتي، فتفرقنا على ذلك والله يحكم لا معقب لحكمه".

هذا ما عاهد عليه النصارى، كما يشير إلى أنهم لم يحتاجوا إلى خدماته وأن الحادثة التي أتهم فيها بمساعدتهم كانت تخدم المسلمين وليس العكس فيقول "ثم إنهم لعنهم الله تعالى لم يحتاجوا إلينا في أمر ولم يطلبوا منا أمرا ما، إلى أن أرسلوا صاحبهم (صل) بكتاب نحو بن امحمد رحمه الله تعالى، فأتاني فلم اشتغل برده ولا ذهابه لجهلي حقيقة بن امحمد وحقيقة أمرهم معه، فطلب مني أحد من إخوتي يسير معه إلى آدرار فأبيت، وليس معه إلا رجل من تكنة وآخر جكني وسوداني فقط، ثم بعد أيام بلغنا أن محمد بن عبد الله سار في إثره طالبا قتله، فعلمت أن ذلك إذا وقع، وقع هرج عظيم بين النصارى لعنهم الله تعالى وبين المسلمين، وأرسلت بأثره أخوتي فمنعوه من قتله، وأتوني به فرددته إلى أهله سالما والله يعلم نيتي في ذلك... وما بلغني أن أحدا من فحول علماء الأمة كمحمد بن محمد سالم وأمثاله نغموا علي، ولا طعنوا في بل بلغني أنهم استصوبوه... ثم إن النصارى لعنهم الله تعالى بلغهم خبر صاحبهم، وأن آل باركل أغروا به بن عبد الله وأمروه بقتله، فلما أتيتهم بينت لهم حقيقة أبناء اداليم وأنه لا حكم لأحد عليهم، واعتذرت لهم عن آل باركل، وقلت لهم ما بلغكم عنهم هو محض كذب، وسعيت في إطفاء تلك النار عن آل باركل وهم لا يعلمون".

كانت هذه بدايات اتصال سعد بوه بالنصارى كما رواها هو، ولا شك أننا سنجده أكثر وضوحا وتعاونا خاصة في إنقاذ بعثة ابلانشي[82].

82 ــ وثائق حول تاريخ احتلال موريتانيا غير منشورة موجودة بأرشيف الدكتور عبد الرحمن بن حرمة بن بيابا العلوي وسنشير إليها بوثائق ود حرمه ص 656

أما في مخطوطه الآخر "النصيحة العامة" الموجه أساسا إلي أخيه الشيخ ماء العينين لصده عن الجهاد، فقد أصبح في تلك الفترة رجل فرنسا الأبرز، فلم يترك شيئا يدعم موقفه إلا ووظفه حتى الآثار الواردة في الحض على اعتزال فتن المسلمين البينية استطاها وأسقطها على المستعمر، يقول في هذا المخطوط "فلا يخفى على كريم علمك ما كان يوصيهم به من ضد ذلك عند ظهور الفتن التي أولها قتل عثمان، كما فهمه جلة الصحابة رضوان الله عليهم، كالحديث الذي فيه قطعوا أوتاركم وكسروا قِسيكم، والذي فيه الماشي فيها خير من الساعي، وكن خير ابني آدم" هذه الآثار وغيرها يجعلها مدخلا لثني أخيه عن الجهاد حيث ما سيقوم به هو فتنة وليس جهادا، ويحرم فيه حتى الدفاع عن النفس"، وأما بن العربي فصرح أن الدفع عن النفس جائز لا واجب" ولا يكاد في هذا المخطوط يترك أي نص يمكن أن يفهم منه التخلي عن الجهاد إلا وأشار إليه، وذهب بعيدا في تهويل إمكانيات الاستعمار المادية والتشكيك حتى في جهاد الغوتيين للوثنيين، كما سبق وأن أشرنا، والتشكيك في قدرات أتباعه الذين هم في أحسن الأحوال لا يستقيمون على الطاعة، فكيف بالحرب.

"وإنك لتعلم أن من يساندك على حضور الجماعات وكف الجوارح عن الحرام واتقاء الشبهات أقل من القليل، هذا مع العافية والسلام ومع هذا تطلب أنت أن يبذلوا مهجهم خالصة لله تعالى" ولا يغفل أن يذكره بأن عشيرته، حتى ولو كان فيها فهي ضعيفة ولم تحمل السلاح قط "كما تعلم ضعف عشيرتك وقلتها وكون آبائك لم يحملوا سلاحا قط، ولم يمارسوا الحرب هذا إن كنت في ظهرانهم، وهم في قبضتك، وإن كنت في غيرهم تقاتل ففي المثل الحساني"إل غير الظهر يطيح". ويسترسل في الاستشهاد والاعتماد على أقوال علماء الأندلس أيام ضعفها وعجزها عن الجهاد فيقول" أفتى علماء الأندلس في القرن الخامس هجري بالإذن للنصارى بإحداث الكنائس".

وينتقد حرب الاستنزاف التي يقوم بها المجاهدون من مناصري أخيه في الشمال، والمتمثلة في الاستيلاء على جمال القبائل المؤيدة للفرنسيين حتى لا تستخدم ضدهم فيقول "المقسط منهم الذي عليه وسم العدالة من يقول إنما أباح لنا أشياخنا الإبل فقط" ويضرب أمثلة بقوة الفرنسيين وما فعلوا بأمراء الزنوج المجاهدين "والدليل على ذلك أنى أدركت عند مجيئي للساحل جميع بلاد السودان مشحونة بالدول القوية والملوك الجبابرة والأمراء والعلماء، فمازال الفرنسيون

يقتحمونهم قرية قرية ويقهرونهم ملكا ملكا عاما بعد عام إلى أن بلغوا الغاية القصـــوى" إلى أن يقول في وصف مجتمعه "وأما نحن أهل هذه الصحراء فالغني من أهل بوادينا من عنده ذود من الإبل وهو القليل، ومن أهل قرانا من عنده حظيرة أو اثنتان من النخيل، وأما النصـــارى فالفقير منهم من يجهز جيوشا كبيرة أعواما عديدة من نفسه دون بيوت أموالهم" وبعد كل هذا يستشفع لأخيه بالتخلي عن الجهاد، وأن يكون وسيطه عند الفرنسيين على شروطه هو، وأنه ضامن قبولها. فيقول "وأما عافيتهم وسلمهم فلك عهد الله وميثاقه إن تركت ما لا يعنيك من الاشتغال بالسلاح والقتال أن آخذ لك العافية منهم".

بهذين المخطوطين حجز سعدبوه مقعده وضمن مصالحه إلى جانب أتباعه الزنوج الخاضعين للاحتلال، بل إن صديقه الأمير أحمد سالم بن اعل (الملقب بياده) على مستوى إمارة الترارزة كان هو الأضـــعف وســـتفرض عليه الظروف في مرحلة ما قبل التوغل الفرنســـي المداهنة، وعلاقته بالزوايا غير مريحة خاصـــة بابه الذي أصـبح نجمه خفاقا مع تنامي نفوذ الفرنسيين. وظل سعد بوه محكوما بهذه الإبعاد فأرضى الفرنسيين بتوقيع معاهداتهم وتسليم فتوى بابه وقدم النصيحة العامة عربونا على الصداقة والمشاركة في المجهود الحربي ببسط رأيه الديني وموقفه المناهض للجهاد، بل ذهب إلى اعتبار ما يُقام به ليس جهادا وإن لم يدخل في التفاصـــيل، كتفضـــيل النصـــارى على اقتتال القبائل وربما يكون مرد ذلك أنه لم يكن طرفا في الحروب القبلية، فظل سعدبوه محافظا على ود الفرنسيين، مأمون الجانب من طرفهم صديقا يعول عليه حتى وفاته في الثاني عشـــر يوليو عام 1917م وبذلك اختفى عن مســـرح الأحداث أحد أكبر رجالات فرنسا الذين اعتمدت عليهم كثيرا طيلة فترة احتلالها للبلاد، وظل وفيا لمشروعها مختلفا مع أخيه ماء العينين، الذي ظل "يراسله من أجل الاستسلام" وهو ما سهل فيما بعد على الإدارة الفرنسية الاتصال بأبناء الشيخ ماء العينين.

ورغم أن أبناءه أقسموا يمين الطاعة لشقيقهم الأكبر سيدي بوي "وارث البركة" الذي أصبح يلقب الخليفة إلا أن قدرته على التأثير الذي طالما مارس والده على أتباعه ظل موضوع تساؤل في هذه الفترة الحرجة ووقع على جادان عبء مداومة العمل على دعم سيدي بوي، بدلا من أن يعمل هذا على دعم جادان.. وكان سـيدي بوي أيام كبلاني "قد اتفق مع رئيس قبيلة تندغة في الجنوب على أن تقدم هذه القبيلة الكبيرة مســاندة لأبيه الشـيخ ســعد بوه تماما كتلك التي يلقاها

الشيخ سيديّ من قبيلة أولاد ابييري، ولكن سوء استخدام سيدي بوي لما تم الاتفاق عليه أدى إلى إلغاء الاتفاق عام 1912 [83]

بابه بن الشيخ سيديّ الإبيير (ت 1342 – 1924).

شيخ مشيخة أهل الشيخ سيديّ بابه،شخصية لا يمكن الحديث عن الاحتلال الفرنسي لأرض البيظان إلا فرضـــت نفســـها، نظرا للدور الكبير الذي لعبته في أحداث تلك الفترة على كل الصـــعد، مما جعلها تحظى بالكثير من الاهتمام عند الباحثين المهتمين بتلك الحقبة، اهتمام يأخذ شـكل النقد والتجريح والتحامل البين عند البعض، والإطراء والمديح المبالغ فيه كذلك عند آخرين.

هذان الموقفان جعلا الكثير من حقيقة الرجل تختفى، ومعها يختفي الكثير من المعلومات المهمة، فالرجل حفيد للرجل العظيم الشـيخ سـيديّ الذي مر ذكره ومعاداته للفرنسـيين، أما هو فكان من أكبر المؤيدين لفرنسا وأكثرهم إخلاصا، حيث لم يقتصر دوره على الإفتاء فحسب، بل حشـد لهم التأييد والمؤازرة من كل من له تأثير عليه. كما دفع بأبناء قبيلته جنودا مدافعين عن راية فرنسا في وجه إخوتهم في الملة والدم.

والملفت في موقفه أنه ابن لرجلين كانا من أوائل من استشـعرا الخطر "المسـيحي"، فشـحذ والده الشـيخ سـيدي محمد العزائم الجهادية بقصـائده، وخاصـة رائيته المشـهورة، بينما حزب جده الشـيخ سـيديّ الأحزاب، وبذل ما بوسـعه كي يوحد كلمة الأمراء في وجه الخطر الداهم، فجاء ولدهما على النقيض منهما، ربما تكون له أســبابه ودوافعه الخاصـــة، ولعل ما يتبادر هنا من دوافعه، البحث عن ظهير يسـانده في وجه الحرب الشـرسـة التي كانت تدور رحاها بين قبيلته (أولاد أبييري) وقبيلة اجيجبه خاصة بعد معركة أودن 1896م

أضـف لذلك علاقاته المتوترة في تلك الفترة مع بعض أمراء محيطه التروزي لأسـباب تتعلق بصـراعات الأمراء الداخلية، وأمراء البراكنة المؤازرين لخصـومه اجيجبه، ولما وصـلت الحرب مرحلة حرجة تدخل الأمراء لإنهائها، وبعث أمير الترارزة إلى أمير البراكنه في ذلك، فبادر أحد

83 . وثائق ولد حرمة.

أبناء قبيلة بابه بإرسال قصيدة بالشعر العامي للأمير البركني يحضه فيها على عدم الضغط علي اجيجبه لوقف الحرب بينهم ويُقال إنه سعى من وراء ذلك إلى أن يؤدى رفض وساطة أمير الترارزة إلى اشتعال حرب مباشرة بين البراكنة والترارزة.

ومطلع القصيدة الشعبية:

كول ال شيخ محاصر جكات	أ حكم المريص وتويكرات
أوحم المريش واكديات	أرض أبانه عني نبغيه

هذه الحرب كدافع للبحث عن حليف، ربما تكون من أسباب اتصاله بالفرنسيين ويدعم هذا الافتراض ما جاء في مخطوط للشيخ سعد بوه آنف الذكر من أن منتقديه قالوا له "إن ما دفع بابه للتحالف مع النصارى هي الحرب، وأنت لا تحارب أحدا فما هي دوافعك في أن تكون مع النصارى"

لهذه الشخصية المتميزة مواقف ملفتة خاصة عدم تحمسه كما يشاع لتصوف جده الشيخ سيديّ كما ذكر صاحب الوسيط وآخرون،فقد أسس جده مدرسة صوفية أمها المريدون، وارتفع صيته عاليا وبدأ معه التاريخ الفعلي لهذه العائلة، وكذلك ذكر قبيلته،وتشكل هذه النقطة القاسم المشترك بينه وبين خصمه الشيخ سعد بوه حيث بدأ زخم تاريخ عائلته كذلك مع والده الشيخ محمد فاضل الذي عُمرت مدرسته الصوفية وما تزال مستمرة، بينما لم تعمر مدرسة أهل الشيخ سيديّ الصوفية كثيرا حيث تراجع نفوذها الروحي أو الوظيفي مع بابه، ولا نرشح ما يذهب اليه بعض المعاصرين حول موقفه المنتقد للتصوف فلم يكن الرجل في رأينا بعيداً عن التصوف السلوكي حسب المحفوظ من سيرته، كما لا نرشح تلميحات وإيحات الدكتور إزيدبيه في تحقيقه لكتاب "إمارتا ايدوعيش ومشظوف"حول رأيه في التصوف والصوفيه فكما يُقال الإنسان بن بيئته، ونقده لبعض المسلكيات لا تعني بالضرورة رفض التصوف.

انه فعلا شخص طموح استطاع بقدراته الفردية الفذة أن يبرز زعيما سياسيا نجح في التأسيس على تركـــة جده، واستيعاب تطورات وتحولات زمانه،طموح جسده في عدم التصادم بطريقة مباشرة بمواقف أمراء ونبلاء العرب رغم نفوذه عند بعض أجنحتهم المتصارعة الذين لا يقبلون أن يشاركوا في ممارسة الحق السياسي في بعض الأحيان من داخل بيوتاتهم؛ فكيف يقبلون ذلك لأبناء القبائل غير المعروفة بممارسة السيادة أصلا مهما كانت مكانتهم الدينية ما لم تكن تلك المشاركة في حدود ضيقة وعبر نافذتهم، وتحت يافطة دينية خالية من أي محتوى سيادي، ولا تصل حد التنافس أو التناقض مع مفهوم السيادة.

هو لاشك يعرف ذلك، ولعل إيواءه لبعض المنشقين من التزارزة من أسباب توتر علاقته بأمرائهم، ثم إن خلافه مع سعد بوه، إن كان سببه النفوذ الروحي كما يدعي بعض الباحثين الفرنسيين، فإن مواقفه المعلنة على الأقل ليست الدفاع عن نهج صوفي معين،ولم تكن لديه محاولة نشر مذهب صوفي مثل الشيخ سعد بوه، بل هو زعيم ديني يقود قبيلة أصبحت متميزة وتحتل الصدارة بفضل مكانة جده، بينما الآخر (أي سعد بوه) داعية صوفي ووافد جديد على المنطقة، لا قبيلة تسانده ولا عشيرة تؤازره يعتمد فقط على قدراته الشخصية ويطمح إلى الحصول على موطإ قدم، همه الوحيد المعلن (كما يذكر) منصب على رفع ذكر والده في هذه الأرض التي لم تسمع به كما مر معنا سابقا، وهو ما نجح فيه بشكل كبير جداً.

وقد استمر خلافهما إلى أن تدخل الفرنسيون لإنهائه لتوحيد صفوف مؤيديها، وذلك ما نجح فيه الحاكم مونتى الذي خلف كبلاني، حيث تدخل في يوليو 1907 من أجل" إزالة ما بينهما بل يبدو أنه قد توصل إلى اتفاق يمكن أن يسمى تقسيم مناطق النفوذ بين الشيخين، بحيث يحتفظ الشيخ سعد بوه بنفوذه في المناطق المتاخمة للنهر وسكانه عموما من السود المستقرين، بينما يحتفظ الشيخ سيديّ بنفوذه في مناطق الساحل والتزارزة والبراكنة ".

ومن هنا ندرك أن خلافهما كان كبيرا جدا وإلا لما استدعى تدخل السلطات الفرنسية على هذا المستوى، كي تحافظ على التوازن في معاملتها لركيزتي تواجدها وسندها القوي، حتى لا يحدث شرخ يضعف مكانتها قبل السيطرة الكاملة على البلاد، فجاء توسط مونتي ثانية "لدى الحاكم العام رومو حتى يسمح لسعد بوه بالقيام بجولة في بلاد السنغال لجمع الهبات بالرغم

من معارضة الحكومة السنغالية... وفعلا تم لسعد بوه ما أراد ووصلت المبالغ التي حصلها هو وتلاميذه في العام 1907 إلى 80-100 افرنك"[84].

وفي الجانب الآخر وإرضـــاء لغريمه "طلب من الحاكم العام أن يســـتقبل الشـــيخ ســـيديّ رســميا..وفعلا أســتقبل في دكار في مايو 1908 اســتقبالا حافلا، ويبدو أنه كانت هناك فكرة لمنحه وسام الشرف، ولكن الفرصة لم تسمح بذلك وأستبدل الوسام بهدية مالية ...كما أنه وفر لأول أسقف رسولي جالابيير زيارة قبور المسيحيين في موريتانيا.. وقابل الشيخ سيديُ الذي أكرم وفادته... وقد تكفل الشيخ سيديّ باستخدام نفوذه لحماية أول مندوب للبابا المسيحي تطأ أقدامه موريتانيا، الأمر الذي لم يكن حدوثه ممكنا من قبل، وقد خصـص الشـيخ سـيديّ لذلك أحد أبنائه وبعض النبلاء ممن حوله"[85]

هذا جزء من نشاطات هذه الشخصية الكبيرة، وفي هذا الجو المتوتر من تاريخ المنطقة حيث تطور تحالفه مع الفرنسيين ليصل مرحلة التدخل عند بعض القبائل لصالحهم، وحتى إعانتهم بالرجال والسلاح والمشاركة الفعلية في حملاتهم العسكرية لاحتلال البلاد وقد ذهب بعيدا حيث طلب من خطيب ابتنته "الطالب أخيار بن الشـــيخ ماء العينين أحد المجاهدين أن يقنع إخوته بالتخلي عن المقاومة [86]"

وسنعرض لمختطفات من فتواه التي جاءت في شكل جواب على سؤال ذكي؟ حسب تعبير الدكتور إزيد بيه من كبلاني حول " هل ينبغي للمســلمين أن يجاهدوا النصـــارى في أرض هم فيها غير متعرضين لهم في شيء من دينهم، بل يساعدونهم على إتباع الدين بنصب القضاة وما أشـــبه ذلك، وهذا مع علم المســـلمين أن لا قوة على الجهاد كأهل الجهة الكبلية ؟" فكان جوابه صريحا وواضحا وهو:"أنه يتعين على المسلمين في هذه الحالة أن يهادنوا النصارى ولا يقصروا فيما يجلب لهم العافية منهم ولا يتعبوا أنفسهم بالمحاربة لهم" .

---

84 .وثائق ولد حرمه، مصدر سابق

85 .تقرير القرقفا الفرنسية يونيو 1917 ص 229-230 رحلة مانك جيليير الي موريتانيا

[86] وردة هذه المعلومة في تقرير فرنسي بوثائق ولد حرمة التي استقينا منها العديد من المعلومات غير المتداولة.

وتواصـل الفتوى على هذه الوتيرة مشـحونة هي الأخرى بكل إيحاء للقدماء يصـب في خانة الركون إلى نبذ معاداة الفرنسيين، وقد حظيت هذه الفتوى بتزكية الشيخ سعدبوه الذي يذكر إيزيد بيه أنه سبق وأن عُرضت عليه فامتنع عن إجابتها غير أنه أشاد بها وسنقدم لاحقًا فتوى لعالم متأخر جدا عن هذه الحقبة يمثل الرفض حتى بعد عقود من الاحتلال.

الطالب بوبكر بن أحمد المصطفي المحجوبي الولاتي

شـيخ من أعلام مدينة ولاتة الأثرية في شـرق موريتانية،وشـخصـية علمية موسـوعية يعتقد المؤرخ الفرنسي بول مارتي أنه ولد سنة 1838 وكان قاض مدينة ولاتة قبل أن يستقيل أوثقال من المنصب لأسباب تتعلق بسلطة أهل المحيميد[87] الجديدة في المنطقة، يُسهب محقق حولية ولاتة الباحث الصـحراوي،الرحالة بوبريك في شـرح خلفياتها،كما يشـير إليها العالم جعفر بن المهدي النعمي في فتوى له يرد فيها على فتوى محمد يحيى الولاتي حول سقوط صلاة الجمعة عن سـكان مدينة ولاتة،ومحمد يحيى هو الذي خلف الطالب بوبكر في القضـاء معينا من طرف أهل لمحيمد أمراء مشـظوف، اعترافا منهم لشـهادة أدلى بها لصـالحهم حسـب الرحال بوبريك.

هذا العالم صـاحب هذه المكانة المتميزة يقول عنه بول مارتي في دراسـاته المشـهورة حول قبائل الساحل "إنه أكبر المشايخ صيتا في الساحل والحوض ... كان الطالب بوبكر أحد أكبر مسـانديا وقد ربط قضـيته بقضـيتنا.. ومن خلال الأخبار الصـحيحة والدقيقة التي يعطينا،ومن خلال نصائحه الجيدة ودعايته الموالية لنا، فقد كان أحد ركائز سياستنا في المستعمرات ما بين 1912 -1916 ومنذ سنوات ونحن نصرف له مرتبا شهريا صـغيرا من 25 فرنكا ليشـتري به الكتب'

امحمدي بن سيدي عثمان

شيخ آخر ولد حوالي سنة 1867 حسب بول ماريّ الذي يقول عنه أنه لم يخرج من ولاتة إلا مرتين إحداهما سنة 1891- 1892 لأداء فريضة الحج، والثانية سنة 1899 حيث سافر إلى مدينة تيشيت ليحصل على مرتبة مقدم في الورد التيجاني.

" يعتبر امحمدي الشيخ الأكبر تشريفا واحتراما في الحوض، ويبدو أنه يستحق الاعتبار الممنوح له، فهو عالم في التشريع الإسلامي لا يبارى، وله مكتبة متنوعة تضم مائة مؤلف، وهو تاجر يملك قطعانا كبيرة، ويتلقى هدايا كثيرة، ويستخدم ثروته في أعمال الخير.. ومعروف أنه لا نظير لصدقاته وكرم ضيافته، ولم تكن استقامته ولا نزاهته موضع شك أبدا.. يقال عنه أنه البيظاني الوحيد في الحوض الذي لا يكذب.. وهو مرح، صاحب مزحة، مُتَصابٍ، يصنع أشكالا أدبية في نسق كلامه، وهو أول من يضحك لنفسه، إن محمدي يّذكر تماما بالشيخ سيديّ (بابا) ناقص الشكل الخارجي المهيب.. وفيما يخصنا ظل موقف محمدي مستقيما، وهو ذكي لدرجة أنه لن ينسى الماضي،أو يمتنع حتى من الناحية الشرعية من تقدير حسنات انتصاراتنا.. لقد أظهر موالاتنا على الدوام.. وقد توفي في نهاية يونيو سنة 1918،ومن السهل أن نفهم من خلال ما قلت أن وفاته كانت خسارة كبيرة لسياستنا"

عالمان جليلان من مدينة ولاتة ذات الرمزية العميقة في الثقافة الإسلامية لدى البيظان،لا يجدان حرجا كبيرا في تبني المشروع الاستعماري ويجاهران بمساندته، لعل لتصرفهما ما يسوغه فقد كانت قبيلة مشظوف تحت قيادة محمد المختار ولد لمحيميد مجاهرة برفض التعاون مع الفرنسيين، ولم تكن سلطتهم مرضية عند قبيلة لمحاجيب التي كانت تحتكر القضاء والإمامة في ولاتة خلال نفوذ قبيلة أولاد يونس في المنطقة ولم تتغير مكانتهم بعد معركة كساري التي كرست سيادة أولاد امبارك على المنطقة، ومعلوم أن أولاد امبارك لم يحاولوا اقصاء لمحاجيب أو تنقيص امتيازاتهم، لكن ما إن سيطر مشظوف حتى بدات مكانتهم تتراجع حتى تلاشت نهائيا حيث استقضا أهل لمحيميد غرم علماء المحاجيب محمد يحيى الولاتي ثم استقضوا الشريف النعماوي مولاي الحسن الملقب باب حسن.

عالبية زوايا الحوض من اتباع المدرسة الولاتية سواء في الفقه أو التصوف وتعني مباركتهم للفرنسيين تمهيد قبول الكثير من شيوخ المحاظر لهم، يتضاف إلى ذلك الأزمات الحادة التي عرفتها القبائل المحاربة ولعب الفرنسيون على كل تلك التناقضات، لتشكل معوقات أمام تشكل مقاومة منتظمة أو قادرة على التصدي للفرنسيين في مراحل توغلهم الأولى في هذا الجزء من أرض البيظان فيما نعتقد.

فقهاء ضد حروب الاتراك.. ورأي الفرنسيين في الإسلام.

أثناء الحرب مع المقاومة واصل بعض علماء موريتانيا الموالين لفرنسا العمل على تحقيق التهدئة وإنهاء التصدي للمستعمر، فتددوا انطلاقا من ذلك بموقف تركيا ودخولها الحرب العالمية الأولى ضد فرنسا "قام الشيوخ الموالون للفرنسيين مثل الشيخ سيديّ عن أولاد أبييري، والشيخ سعد بوه عن أهل الشيخ محمد فاضل، والشيخ سليمان عن أولاد ديمان، بالاحتجاج على دخول تركيا الحرب ومما ذكروه أن السلطان العثماني وحكومته يخونون الإسلام فليس من حقهم أن يتورطوا فيما يعرض الدين الإسلامي للخطر في صراع يدعون فيه باطلا المحافظة على مصالح المسلمين[88]"

وذهب الشيخ سعد بوه إلى أبعد من ذلك حيث أرسل ابنيه الطالب بوي وبونن، لمقابلة المفوض الفرنسي أبوسيه "لكي يؤكدان له بناء على رأي والدهما أن تركيا قد تصرفت ضد قواعد الإسلام عندما اشتركت في الحرب، كما أن ارتباطات تركيا لا تلزمهم شيئا على الإطلاق".

إذا كان كبلاني اقنع حلفاءه برفع شعار عدم تعرض فرنسا لمعتقدات الناس الدينية، وبأنها ستساعد حتى على نشر"الدين" وأنها ستسهل مهام القائمين عليه وتدعمهم ماديا ومعنويا، وإذا كانت تلك الدعاية قد شكلت سندا كبيرا للحجج التي اعتمدها الفقهاء المؤيدون للاحتلال، فإن لفرنسا موقف آخر من الإسلام مغاير لتلك الدعاية حسب دراسة للباحث محمد سعيد بن همدي بعنوان "موريتانيا في مواجهة عبر القرون مع أوربا" نقل فيها بعضا من مواقف السلطة الاستعمارية من الدين الإسلامي في بلاد البيضان وما جاورها من بلدان إفريقيا المسلمة،

---

[88] وثائق حرمة

واستشهد فيها بمقولات لإداريين وسياسيين وكتاب رأي في الإعلام الفرنسي، إضافة إلى تقارير إستخباراتية تحدثت عن تأثير الدين الإسلامي على السكان، وعن قدرته الكبيرة على إثارة المشاكل، وعرقلة المشاريع طويلة المدى، إن لم نقل قدرته على قلب الطاولة وهو ما يستدعى من السلطات- وفق نصائح هذه الطبقة المطلعة على أحوال المجتمع- وضعه "أي الإسلام" دائما في الحسبان وتوخي الحيطة والحذر اتجاهه بتقديم المساعدة والدعم لكل المؤيدين من النخبة المتدينة. ومضايقة ومتابعة كل من لا يطمئن له من حملة الفكر الإسلامي في هذه المنطقة والسعي الجاد لتدجين الإسلام وعزله عن الحياة اليومية للناس.

"إذا كانت السياسة الإسلامية لفرنسا حتى منتصف العشرينيات تظهر احترامها للإسلام، فإن ذالك راجع إلى العلاقات الطيبة و"الغامضة" في نفس الوقت بين الشيخ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل ومشايخ الطرق الصوفية الأخرى في موريتانيا وفي السنغال، وفي أماكن أخرى، كما يعود بالأساس إلى المساندة الأكيدة الدائمة والثابتة التي حصل عليها الفرنسيون من الشيخ سيديّ بابه، والدعم القوي الذي حصل عليه هذا الأخير في المقابل، لكن من هذا السياق لا يمكن أن نتغاضى عن معاداة الفرنسيين لأهل الشيخ ماء العينين".

هذا التناقض الظاهر في التعامل مع الدين يعمقه الباحث عند ما يلفت الانتباه إلى موقف فرنسا من شخصيات لا ترتاح لها الدوائر الاستعمارية، مثل الشيخين الصوفيين "أحمد بمب، وحماه الله رغم أنهما لم يقوما بعمل يهدد المصالح الاستعمارية بشكل مباشر" .

ومن ناحية أخرى قام الفرنسيون "بنفي زعماء دينيين بدون سبب مقنع، لكن فقط قصد تسديد ضربة إلى كبراء من رجال الدين لا يمكن التأثير عليهم، ومصنفين في عداد الأعداء، وقد علمنا من السياسة التعليمية الفرنسية أن الإسلام واللغة العربية، ظلا مبعث اشتباه في أعين سلطة استعمارية أحادية وشفونية في خياراتها الحضارية واللغوية، ويلاحظ أحد المراقبين الفرنسيين مذكرا بعدوانية الفرنسيين إزاء المجاهدين الإسلاميين من أمثال الشيخ ماء العينين،والحاج عمر، والساموري توري.. عندما نستكمل الغزو سيبقى الإسلام دائما ظاهرة مثيرة لا يمكن احتواؤها، إنه تفكير ولغة أجنبية، إنه دين يطبعه الجمود والزهد قابل دائما بأن يبرز من جديد في صور تحركات سياسية خطيرة، تثير الاضطرابات في النظام القائم".

وفي نفس السياق يقول بيتر أرنو وهو يتأرجح بين الإعجاب بالإسلام والتنديد به "إن البساطة الجذابة في الإســـلام التي تتجلى من خلال كون العقيدة تتلخص في جملة واحدة تقرر وحدة الخالق، تتعارض مع العقيدة اللامتناهية لمجتمعنا الحديث" ويقول كبولاني "من الســـهل أن يحصل سوء تفاهم بيننا وبين رعايانا الأفارقة، نحن لا نتفهمهم، فبالنسبة لهم الله هو أصل خلق الكون، أما نحن فنقر بالخالق أو ننفيه حسب ما تمليه حاجاتنا".

لم تكن فترة مابين1901.-1935 مواتية لتدجين إســلام البيضــان، وســيحاول الفرنســيون الوصـــول إلى هذا الهدف من خلال بعده الأكثر شـــعبية والأكثر تجذرا في نفوس الطبقات الشعبية ألا وهو البعد الطرقي الصوفي، "لأن الإسلام في نظرهم عبارة عن قنبلة موقوتة قابلة لأن تقوض التحول البعيد والمتأني للسكان المحليين.." وكذلك تحويلهم إلى رعايا مخلصين إن لم نقل قابلين للاســـتعباد".. وفي الواقع "فالإســـلام قوة عالمية يمكن لوحدته الدينية أن تتحول بسهولة بدافع من زعيم عبقري إلى وحدة اجتماعية تجعل سيطرتنا هشة إلى حد كبير"... "ويلزم أن نتعامل مع الزوايا الصديقة لكي نستغلها إذا كانت تشكل قوى يتبعها الناس ويخضعون لها، مع الحرص على إبقاء هذه الزوايا في حجم جمعيات محلية طبقا لقانون 1901 دون أن نتركها تتشعب، أو تستفيد من الدعم الخارجي، لتلافي ما من شأنه أن يمس من سيطرتنا، ويلزم بصفة خاصة أن نراقب الخلفية الأيديولوجية للإسلام وللمدارس القرآنية والمحاظر، ويجب أن نخضعها للرقابة بانتهاج ســياســة التشــجيع المادي وذلك بتقديم أجور ومرتبات على قرار ما يصــرف للموظفين من قضاة ومعلمي اللغة العربية في المدارس الفرنسية" .

هذا باختصـار هو الموقف من الإسـلام والعربية من طرف الإدارة الاسـتعمارية التي لم يغب عنها يوما أنه يمثل المخزون الجهادي والطاقة التي يراهن عليها المقاومون للمشـــروع الاستعماري، في أي لحظة سواء كان دفاعهم مسلحا أم نضالا سياسيا، كما سيتمظهر في الحركة النضالية التي تبلورت قبيل الاستقلال، وتم التعاطي معها بقوة حتى من طرف الحكومة التي وضعتها فرنسا على رأس السلطة قبل أن تنسحب من البلاد.

الشيخ ماء العينين والانتماء المزوج بين موريتانيا والمغرب.

"مرابط الســماره هو الذي أباح بالمناســبة عملية قتل كبولاني، ومن زاويته بالســمارة كان ينظم المقاومة ضـدنا.. كتب لجميع زوايا موريتانيا يناشـدهم الله أن يحملوا السـلاح لرد تقدمنا وصـدنا جنوبا. طافت رسـله أحياء تكانت والرقيبة والحوض وحتى المنطقة المحمية أو المدجنة بموريتانيا بمواعظ الجهاد المقدس، ووعد بمساعدات عسكرية ومؤن ودعم من سلطان المغرب"

الرائد جيليي

الشـيخ ماء العينين أكثر علماء البلاد المحفوظة أخبارهم إنتاجا فكريا، حيث تجاوزت مؤلفاته التي ذكر الخليل بن النحوي في كتابه "شـنفيط المنارة" المئات، وشـملت شـتى فنون معارف الحضـارة الإسـلامية، وهو كذلك أشـهر العلماء جهادا بالسـيف ضـد الاحتلال الفرنسـي، ولد ماء العينين في أقصى جنوب شرق موريتانيا غير بعيد من حدود جمهورية مالي حيث مضارب خيَم عشيرته، ترعرع في كنف والده ذائع الصـيت والزعيم الصـوفي المشـهور الشـريف الشـيخ محمد فاضل بن مامين الحسنى الحوضي.

ترجم له الكثيرون، ومن أشـهر من كتب عنه من الموريتانيين أحمد بن أمين العلوي صـاحب الوسـيط وقد أشـاد به كثيرا وبالغ في وصـف حاضـرته ومريديه حيث اعتبرهم يناهزون عشـرة آلاف وأنه القائم عليهم، أما حظه من كتابات المعاصـرين فرغم أن دوره السـياسـي يفرض على كل باحث في فترة دخول الاســتعمار أن يتحدث عنه إلا أنه في الغالب يقدم من طرفهم في صورة باهتة لا تضـاهي الصـورة التي تُقدم عن خصـميه السـابقين (سـعدبوه- وبابه) وذلك عن غير قصـد فيما نعتقد، إذ أن الرجل له وضـع خاص فهو مزدوج الانتماء بين موريتانيا والمغرب ولعل هذا الجانب حري بالعرض والتحليل، وذلك ما نحاول تقديم رؤية عنه تكون جزءا من التزامنا بأن نثير أكبر قدر ممكن من الاستشكالات والتساؤلات التي تفرضـها طبيعة هذا العمل، سواء حول كتابات وطنية معاصرة غالبا ما تكون مشحونة بطابع أيديولوجي ولو عن غير وعي أو حول كتابات أجنبية وعربية لها منطلقاتها هي الأخرى .

سـافر ماء العينين من حضـرة والده شـمالا حيث سـكن في منطقة آدرار لأسـباب ودوافع غير معروفة لدينا، إلا أن الهجرة ظاهرة منتشرة في أوساط العلماء والمتميزين من سكان هذه البلاد،

غير أن مقولة ربما وجدت مصداقية بسبب ذكر صاحب "شنقيط المنارة" لها مفادها أن الشيخ محمد فاضل بعث ابنه ماء العينين الأكثر علما إلى الشمال الأقل علما، وابنه سعد بوه الأقل علما إلى الجنوب الغربي (الكبلة) الأكثر علما، ولما سئل عن السبب أجاب "ليعلم هذا ويتعلّم هذا" هذه المقولة لم نجد لها سندا ولا مرجعا بل إن التشكيك فيها له ما يسوغه إذ أن سعد بوه لم يعرف له تعلم على أحد في منطقة "الكبلة"، وكان جهابذة علمائها يشيدون بعلمه، وكذلك ما نقل كتاب "الزوايا" من أن ماء العينين أقام في شنقيط وتعلم فيها دون ذكر لأسماء أشياخه الذين أخذ عنهم، ولعل إطلاق هاتين المقولتين من باحثين أكادميين كبيرين دون عزو لمصدر أمر محير فعلا، ويتنافى مع الصرامة المنهجية المنشودة من أمثالهم من الأكاديميين.

لا نجد كذلك عند غالبية المعاصرين إشادة لا بعلم هذا الشيخ ولا بذكائه كما يفعلون مع معاصريه المؤيدين للمشروع الاستعماري، فبابه ولد الشيخ سيديّ "كان حاد الذكاء قوي الذاكرة وكان خطيبا مبينا سريع البديهة وشاعرا فصيحا، ذا أسلوب جزل يصادف هوى في النفس.. وقد أبان الشيخ سعد بوه مثل الشيخ سيديّ عن ذكاء حاد في مراحل حياته الأولى وكان سلوكه يوحي بذلك [89]" .

وعلى هذا النسق درج آخرون أما عن ماء العينين فيقول نفس الكاتب –أي إيزيد بيه– "وقد تلقى مبادئ علومه في الحوض وانتقل إلى شنقيط ودرس بها ومنها انتقل إلى الساقية الحمراء حيث استقر بها". نعتقد أن الإشادة بحلفاء فرنسا وليد تراكمات قيام الدولة الحديثة، فأصبح مخزونا في اللاوعي الجماعي يعبر عنه بصورة تلقائية لا شعورية عند المثقف الناقد البصير وكذلك عند العامي، إذ أن الزخم الاجتماعي والكثافة الديماغوجية يحجبان عادة الصورة الحقيقية ولا يتركان سوى المسموح به –والموظف غالبا– يتسرب فيبقى ذلك الزائف وكأنه حقيقة.

ومن المفارقات كذلك أن هذا الشيخ الذي حج في اوج سيطرة المستعمر على المشرق وامضى فترة في الحواضر الإسلامية وحاضر في جوامعها ومساجدها وناظر بعض علمائها واحتك بنخبهم الثقافية والسياسية، عاد وقاد النضال المسلح ضد الاحتلال الفرنسي، وبالتالي

89 - إيزيد بيه ولد محمد محمود: مرجع سابق.

فإن ما ذهب إليه البعض من أن انفتاح فقهاء فرنســـا واطلاعهم على صـــحف وآراء حركة الإصـــلاح جعلهم أكثر تقبلا للاستعمار أمر يحتاج إعادة نظر كمقولة "فمن يراجع مكتبته (أي بابه) يجد العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده تزين رفوفها وهي تتضـــمن آراء صريحة في التعامل مع الوافد الأوروبي وقضايا معاصرة كالإسلام والنصرانية".

الموقف من ماء العينين يتنازعه موقفان أيديولوجيان يقومان على رفض كل منهما للآخر فيما نعتقد وهما: الدولة المغربية في مشـروعها الداعي للتواجد من شـواطئ المتوسـط شـمالا وحتى مصب نهر السنغال جنوبا كما نظر لها علال الفاسي، فيما هذا المشروع مرفوض من الدولة الفتية "موريتانيا"، فوظف المغرب كلما يدعم مطلبه، ولا شك أن ماء العينين شكل دليلا ماديا قويا له.

أما الموقف الثاني فهو موقف موريتانيا الذي تمثل في إعراضـــها عنه وجعله في أحســـن الأحوال صـــحراويا حتى لا يكون نشـــاطه امتدادا طبيعيا لأرض المغرب رغم ورود اسـمه في الفقرات الشـحيحة من كتيبات التعليم الأسـاسـي في موريتانيا، ومن المفارقات أن ماء العينين واحمدو بن حرمه بن بابانا الذين تقدمها نخب الدولة العميقة كمغربين، ينتميان إلى المناطق الموريتانية الأبعد جغرافيا من المغرب، فماء العينين من أقصى جنوب منطقة الحوض الشرقي على بعد كيلو مترات فقط من جمهورية مالي، بينما ينتمي ابن حرمه بن بابانا إلى أقصـــى منطقة الجنوب الغربي الموريتاني على بعد مزجر الكلبة من مصـب نهر السـنغال، والمنطقتان تبعدان بآلاف الكيلو مترات عن المغرب.

ولنقاش هذه الازدواجية حول ماء العينين نطرح ســؤالا قد يكون مثيرا بل ربما يكون من غير المُفكر فيه عادة ويتعلق هذا السؤال بـــ هل حقا بايع ماء العينين سلاطين المغرب؟ سؤال قد يبدو طرحه غير واعٍ، ومع ذلك فإن الإجابة عنه صعبة ومعقدة ومشحونة بالمضامين الأيديولوجية من وجهة نظرنا كما تقتضـــي الإجابة عنه منا تفكيك معنى البيعة في الثقافة الإسـلامية عموما والفكر الصـوفي خصـوصـا الذي يستمد ماء العينين منه شـهرته وتأثيره كي نتمكن من توضيح الإجابة عن السؤال.

البيعة السياسية والبيعة الروحية.

قبل التوظيف الأيديولوجي في الإسلام، كانت البيعة في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تطلق على ما عاهدوه عليه من الالتزام الخلقي، ونبذ ما كانوا عليه مما يتنافى مع الدين الجديد، فيشترط عليهم ويقبلون، حيث نجد بيعتي العقبة الأولى والثانية مع الأوس والخزرج، وبيعتي الشجرة، والنساء المذكورتين في القرءان الكريم {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة }...و{ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك}. هذه البيعة نُقلت بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الخليفة، لكن بالتزامات أكثر صرامة.

يقول بن خلدون في وصف البيعة "اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة (...) وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده يجعلون أيديهم في يده تأكيدا للعهد، فشابه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة –مصدر باع– وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومفهوم الشرع، وهو المراد في الحديث، في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، وعند الشجرة وحيث ما ورد هذا اللفظ... ومنه بيعة الخلفاء، ومنه أيمان البيعة، كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها، لذلك سمي هذا الاستيعاب أيمان البيع، وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب"[90].

وظل الخلفاء يعتبرون البيعة حقا شرعيا يبيح دماء المعارضة وزوروا عشرات الأحاديث في الموضوع، واعتبروها مشتقة من خلافة النبي صلى الله عليه وسلم، وظلت واجبة للإمبراطور على الرعية في الدول الإسلامية،. في الجانب الآخر وجدت بيعة روحية لدى الصوفيين، بين الشيخ ومريده وهي كذلك نوع من العهود والطاعة والانقياد لأوامر الشيخ". ومن هنا يأتي حرص الحكام على ترابط السلطة الزمنية بالسلطة الروحية،فطاعة الشيخ مقدمة عند البعض على طاعة الوالدين المنصوص عليها في القرآن لأنه "قيم على خوالج النفس وأسرارها؟" وأي تشكيك أو رفض لإرادته يترتب عنه السلب من "الإيمان" يقول أحدهم:

---

90 . ابن خلدون، المقدمة. ص: 229

والشيخ لا تترك بسرك لحظه	لو غاب عنك بسره أقسى السفر

هذه الشرعية المستمدة من البيعة وما يترتب عليها من خضوع انسجاما مع بعض الأحاديث نجد جل علماء هذا القطر ما إن يجدوا فرصة يجتمعون فيها بحاكم إلا بايعوه، من ذلك ما يُنقل عن بيعة الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي الوداني، لسلطان مراكش وقوله –خشيت أن يوافيني الموت وليس في عنقي بيعة– وقلت له سيدي أخبرني شيخي قدس الله روحه ونور ضريحه، في الحديث أنه من مات ولم يدخل تحت بيعة سلطان، مات ميتة جاهلية والآن أمدد يدك أبايعك[91]"!!

هذا التشوق إلى إمام يُبَايع لعله المكبوت الذي كان يمزق وجدان رجال دين هذه البلاد بسب الميزة الكبير التي يوليها الفقه المالكي لدور السلطان، ولتلك الخلفية ارتباط بإمام المذهب الذي كان موظفا لدى البلاط العباسي، والأن السلطان رمز الدولة وخليفة النبي في اللاهوت السياسي عند بعض التيارات الإسلامية خاصة السنة المذهبية، غير أن ما لا يذكر غالبا هو أن البيعة السياسية ليست واجبة، فقد امتنع بعض الصحابة عن بيعة الخليفة الأول أبا بكر رضي الله عنه، كما أن فسخ البيعة حق رغم تمسك سيدنا عثمان بعدم شريعيتها في رده على الثوار[92]، فقد خرج بعض أكابر الصحابة على الخليفة الرابع عليا عليه السلام بعد أن بايعوه فاسخين بيعته، وبالتالي فإن توظيف السلاطين لها بعد ذلك كحق إلزامي ليست له أي مصداقية شرعية مادام السابقون من الصحابة لم يعطوها تلك المصداقية.

بهذا التمهيد الذي نأمل أن نكون قد أثرنا فيه بعض الاستشكالات المؤطرة للموقف من سلاطين المغرب الذين يستمدون بدورهم الشرعية من خلفيتين: الأولى انتماؤهم إلى البيت النبوي حيث ينتسبون إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي عليهم السلام، ومحمد النفس الزكية هو أخ إدريس الأكبر، وقائد الثورة المعروفة في

---

[91] هذا لا يصح حديثا رغم تشهير السلاطين وعلمائهم له إذ لو كان صحيحا لكانت سيدة نساء العالمين سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام ماتت ميتة جاهلية حيث لم تبايع الخليفة أبا بكر رضي الله عنه ولكان سيدنا عبادة بن الصامت مات ميتة جاهلية وهو القائل لن أبايع قرشيا ولم يبايع عمر ولا سلفه

[92] تنظر حول هذا الموضوع: كتاب اجراس الرعب من التكفير إلى التفجير سيدي محمد بن جعفر

التاريخ الإسـلامي بثورة الحجاز، ضـد الطاغية المنصـور العباسـي سـنة 145هجرية، وبعد القضـاء عليها وقتل محمد، فر إدريس إلى المغرب وأسس السلالة الإدريسية التي ينتمي إليها ماء العينين وهي أول عائلة من آل البيت تحكم، أما سـلاطين المغرب فينتمون إلى محمد النفس الزكية وقد وصل جدهم الحسن الداخل إلى المغرب سنة 665- 669هجرية الموافق - 1265م قادما من ينبوع النخيل قرب جدة مع حجيج بلاد تافيلالت بالمغرب الأقصـى الذين اسـتقدموه تيامنا به وتبركا به كما تذكر المصـادر.[93] ومن أحفاده مولاي علي الشـريف السجلماسي وكان "وليا وصاحب كرامات" وإليه تُنسب علوية السلالة المالكة في المغرب وليس إلى علي بن أبي طالب كما يعتقد العامة، ومن لا معرفة لهم بتاريخ تلك السـلالة. ويُشـكل مولاي علي السجلماسي -كما تسميه مصادر المغرب العربي القديمة- خلفية هذه الأسرة من الناحية الصوفية.

أيديولوجية البيعة هذه وما تحاط به من شرعية ستوظف إلى أقصى الحدود. ويسعنا ونحن نحاول الإجابة عن هذا السؤال جمع أفكار متناثرة ونعيد تركيبها كي يتسنى لنا الخروج بمفهوم نؤسس عليه الإجابة ولو منهجيا محاولين إعطاءها صبغة المعقولية لعلاقات الشيخ بالعرش العلوي.

عاصـر ماء العينين العديد من سـلاطين المغرب، بدءً بمولاي عبد الرحمن، وانتهاء بمولاي عبد الحفيظ الذي حُظي في أيامه كثيرا، وكانت علاقته بهم في حدود أدبيات السـلاطين مع العلماء والزعماء الدينين، حظوة عند الأمراء المتدينين والمثقفين وجفاء أو عدم المبالاة عند من هم دون ذلك.

فنجد ظروف التوسع الفرنسي يفرض نوعا من التعاون والانسجام على الطرفين في البداية، كما أن ظروف خضـوع العرش للحماية، سـيفرض بعد ذلك واقعا آخر وتوجها مغايرا لدى الجميع، فبالعودة إلى بداية التوسـع داخل موريتانيا، وتشـاط ماء العينين وأبنائه وحتى هجرة بعض أمراء موريتانيا الذين احتلت بلادهم، كالأمير التروزي أحمد بن الديد وأخيه سـيدي إلى

---

[93] - Mehdi ould Moulaye El-hassan : Du Tafilalt au Hohhd Charghui : la sage Saharienne des Wlad Sidi Hamou Ben El-haj, Publicaion de L' Institut des Etudes Africaines, Rabat, 2002, p84

الصـحراء حيث يوجد مقر ماء العينين، ومقدم الأمير مولاي إدريس على رأس قوة إلى موريتانيا قبل ذلك لدعم المقاومة، ووســاطة ماء العينين لأمراء البيضــان عند ســلاطين المغرب لكي يساعدوهم بالسلاح، وإضفاء صبغة الشرعية الزمنية عليهم، كل ذلك كانت ظروف ومصالح الطرفين هي التي تمليه، فالسلاطين يمارسون لعبة السلطة الزمنية على بلاد الإسلام مع فرنسا لزيادة الضغط عليها لتقوية موقفهم التفاوضي، وماء العينين وأنصاره يقومون بالدور والتظاهر بالانصياع لأوامر السلطان للحصول على الدعم العسكري لمواصلة القتال من جهة، ولرفع معنويات انصارهم في وجه خصومهم من الفقهاء المؤيدين لفرنسا المتشبثين بغياب السلطان الذي يجمع كلمة المسلمين تحت راية الجهاد.

في الواقع لم يكن هناك، – وحســب المعطيات– ما يشــير إلى أن ماء العينين كان يعامل كمواطن مغربي وحتى هو لا نجد في كتاباته شعورا إلا بكونه بيظانيا يستعين بإخوته في الدين والدم لحماية وطنه من الغزاة، وأن نصره واجب ديني على كل من يستطيع، خاصة من أمير المؤمنين. فقد لبى يوسف بن تاشفين اللمتوني طلب الأندلوسيين عند ما تعرضوا لغزو الأسبان دون أن يكونوا خاضعين لسلطانه، والأمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي، ونجد ماء العينين نفسه غير مهتم بوجود سلطة مغربية على أرض البيضان قبل الحرب مع فرنسا فيقول مثلا في كتابه "هداية من حارى في أمر النصــارى" الذي تناول فيه قضــية حدثت في مدينة الداخلة على شواطئ الصحراء الغربية وهو كتاب يشرح فيه رايه من ظاهرة الاستعمار، يقول فيه بأن لا سلطان لهذه البلاد. "وسبحان الله وأي عهد بين أهل هذه البلاد مع النصارى غير القتل والسلب منذ عهد أبي بكر بن عمر رحمه الله تعالى لأنها منذ ذلك العهد ســائبة"[94]. وبالعودة إلى الاتفاقيات بين العرش وفرنسا فإنها كانت تنص على عدم السماح "بتهريب السلاح" إلى ماء العينين، ولو كان الأمر يتعلق بكونه مواطنا مغربيا لطلب الفرنســيون إنهاء مقاومته وتحميل العرش كل المسؤوليات فيما يخص أعماله، بدلا من ضبط الحدود لمنع تهريب السلاح كما فعلوا في مناطق المغرب الأخرى.

أما الرسائل والألقاب التبجيلية التي يخاطب بها السلاطين فهي عرف إسلامي، وحسب لغة عصرنا ألقاب بروتوكولية كما مر، بل إنها لا تعني شيئا ولو كانت تعني شيئا لكانت الدولة

94 . الشيخ ماء العينين هداية من حارا في أمر النصارى ص 78 ط 1999 الرباط

المرابطية جزءا من الدولة العباسية حيث بعث سلطان المرابطين من يحملون بيعته للخليفة العباسي، ومن المعروف أنه أعظم منه شأنا وأقوى شوكة حيث يقول ابن خلدون "وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك المتونه فملك العدوتين، وكان من أهل الخير والاقتداء، نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسيم دينه، فخاطب المستظهر العباسي، وأوفد عليه بيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبي بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك، فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب ".

ولا يخفى أن المغرب، منذ دخول الأدارسة إليه في القرن الثاني الهجري أيام المنصور العباسي، لم يعد يتبع للخلافة العباسية وليس هذا الإجراء بمغير شيئا في الواقع، فأقصى ما يقال عنه أنه إجراء برتوكولي محكوم بعقلية الخليفة الواحد جامع شمل الأمة ورمز وحدتها، في فكر السنة المذهبية.

ونختم هنا بفقرات من مجلة نوافذ المغربية العدد 11/10 يلخص بشكل جلي هذه الأفكار التي أثرنا، إذ جاء فيها أنه "من المؤكد أن السلطة الزمنية في الصحراء كانت دائما شأنا خاصا بالجماعات العشائرية والمجالية و"الترابية". فوضع الترحل والرعي لا يقبل بأي حال من الأحوال قواعد لاستغلال الأرض خارج تلك التي ترسم حدود التحالف السياسي والشرعية القبلية. "

وانطلاقا من تحليل المراسلات التي تمت بين الزعماء السياسيين والدينيين من جهة، والسلطة المخزنية من جهة أخرى، يمكن أن نلاحظ وبشكل بديهي غياب مفهوم السلطة المركزية، فوجود نوع من التراتبية بين أمير المؤمنين وبين الأولياء والزوايا الأخرى يحدد المسؤوليات المتبادلة في أوساط المسؤولين عن تدبير الشأن الديني. باعتباره قائدا دينيا شرعيا، فإن أمير المؤمنين هو السلطان الذي يجسد تركيبة الحقل الديني، فإذا بايعه الفقهاء وكبار الزوايا بشكل نهائي فإن ذلك يعود بالأساس إلى أنهم لا يمكنهم من الناحية الدينية أن يموتوا دون أن يقدموا هذه البيعة.

لهذا السبب أيضا نجد أن مختلف تسميات السلطان تشكل جزءا من الخطاب الديني: " وتتمحور حول ولي الأولياء، وفضلا عن ذلك فإن المسوغات السياسية لوجود قادة الحرب

تتركز على مرتكزات أخرى، فمجال السلطة الحربية يظهر بالأساس عبر تدبير السلطة الزمنية في المجال الترابي" كما أن مفهوم المجال الترابي القبلي يصـــلح لتحديد حقوق التملك العقارية حسـب تصـور الرحل. فالتملك الترابي يحدد عبر الانتماء العشـائري والسـلالي بالشـكل الذي يجعل التنظيم الاجتماعي والترابي غير منفصلين"[95].

محمد المختار بن امباله الحوضي -1946.

أحد فقهاء منطقة الشرق الموريتاني ، له حكايات مع زعماء مشظوف وله موقف متشـدد ضـد الفرنسـيين والمتعاونين معهم رغم أنه عاش حتى النصـف الأول من القرن العشـرين، يتجلى موقفه من الاستعمار من خلال اجوبته عن أسئلة تتعلق بالموقف الشرعي من بعض الظواهر التي نتجت عن الاحتلال الفرنسي للبلاد، كحكم ذكاة المجندين المحليين من المسلمين (كوميات باللغة المحلية)، هل تأكل أم لا تأكل، وعن حكم مهور المســلمات المتزوجات من النصـارى الفرنسـيين، فيقول في ذكاة المجندين "إنهم مرتدون والمرتد لا تؤكل ذكاته، وذلك كمن صـحب الكفار ورضـي بفعلهم وكثر سوادهم من غير إكراه" وفي هذا إشارة مباشرة إلى الموقف من رجال الدين المؤيدين لفرنسا.

أما عن المرأة المسـلمة التي تزوج بها نصـراني[96]، وأعطاها مهرا وماتت "فالجواب والله تعالى أعلم أن هذا هو مهر البغي، الذي ثبت النهي عنه في الحديث الصـــحيح كما في موطإ مالك عن بن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي مسعود الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم نهي عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن، يعني بمهر البغي ما تعطاه المرأة على الزنا وهو حرام إجماعا".

---

95 . مجلة الرواقد المغربية، عدد 9 – 11. يناير 2001

96 هذا من القضية معاوية التي ينبغي أن تراجع فقد نقل بن أبي شيبة في المصنف-(ج 7 / ص 384) حدثنا وكيع قال حدثنا إسماعيل عن الشعبي عن عبد الله بن معقل قال : ما رأيت قضاء بعد قضاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن من قضاء قضى به معاوية في أهل الكتاب، قال : نرثهم ولا يرثوننا كما يحل لنا النكاح فيهم ولا يحل لهم النكاح فينا.

و أما عدم تكفير المرأة بزواجها للنصـــراني فيقول فيه: وهي "وإن كانت مســلمة فهي تحت حربي-أي كافر- فمالها مباح وأحرى إن كان غير مالها كهذا المهر، فليس لها ولا يورث عنها". وفي أحياء التأويل أن حكم أموال من تحت الحربيين حكم أموال مســتغرقي الذمم، وهو إباحة أموالهم، فهم عصـاة بتكثير سـواد الحربيين، وذلك لا ينافي إيمانهم إن كانوا مؤمنين عند من تأول قوله تعالى {ومن يتولهم منكم فإنه منهم}، وحملها على الزجر والتغليظ وتأول قوله صلى الله عليه وسلم { إن الله براء من مسلم ساكن بين المشركين}، وقوله صلى الله عليه وسلم {من ساكن المشرك وسكن معه فهو مثله}، وقوله صلـــى الله عليه وسلم { المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما ومن كثر سواد قوم فهو منهم ومن رضي بفعل قوم فهو منهم}.

و"أما من أبقى الآية والأحاديث على ظاهرها فقد كفر من ســكن معهم ووالاهم، وموالاتهم الاجتماع بهم وإظهار المحبة لهم ونصرتهم واجتناب ما يوجب منافرتهم، وهذا حال الذين انتقلوا إليهم واختاروهم وســكنوا معهم ونصـــروهم وقاتلوا معهم ولا يدرون اعتقادهم فهم مرتدون عند الفقهاء، وذهبت طائفة إلى جواز السكنى معهم ومهادنتهم من غير مناصـرتهم ومحبتهم أحرى القتال معهم" إلى أن يقول «فعندهم فرق واضـــح بين من ســكن مع الكفار وانتقل إليهم اختيارا وركب معهم وقاتل في نصـرتهم وأعانهم وبين من سكن في أرضـهم متمكنا من إظهار شـعائر الإسلام".

ويأتي موقفه الأهم والأوضـح خاصـة فيما يتعلق بوجوب الهجرة من هذه الأرض التي احتلت علما بأنه من متأخري الفقهاء وفي أيامه كانت جل بلاد المســلمين إن لم تكن كلها ترزح تحت الاحتلال الغربي، وهو على علم بذلك، ومع ذلك فبالنسـبة له الهجرة واجبة عن هذه البلاد "ففي هذه الآيات والأحاديث التي تقدم ذكرها أدلة واضـــحة على وجوب المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإسـلام وكذلك كل أرض لا يتمكن فيها الرجل من إقامة دينه لكثرة الفسـاد.." ولا شـك أن هذه البلاد التي نحن فيها ثبت لها هذا الحكم، الذي هو وجوب الهجرة عنها لاستيلاء النصارى عليها وكثرة الفساد فيها، فيجب على كل مؤمن بها أن يخرج عنها ويتركها ولو كان يمشي على رجليه، بل لو أدى إلى مفارقة عياله وأمواله وجميع أهله كما تقدم التنبيه على ذلك من كلام أبي حمزة على حديث أبي حذيفة المذكور.. ولا حجة لمن قال إن جميع البلاد صائر للنصارى ملكها، لأنه من البلاد ما لا تكون دار كفر أبدا كمكة، والمدينة، واليمن، ونحوها من ســـائر

أرض الحجاز المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم {لا يبقين دينان بجزيرة العرب} وأيضا فإن كل بلدة لها إمام يقيم فرض الجهاد فهي جديرة بأن يهاجر إليها من أرض ليس بها إلا النصارى أو عبيدهم"[97] كما يفهم من الفقرات الأخيرة أن حركة المقاومة في البلاد الأخرى كانت عنده جهادية.

[97] . محمد المختار ولد مبالة: نصيحة الأقوام في الحث على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان مخطوط.

الفصل الثاني.

الجهاد شحنة المقاومة المغيبة

يعتبر البيضـان الذين يتعاطون الثقافة العالمة – بغض النظر عن أصـولهم ومشـاربهم– أنفسهم امتدادا للمرابطين، حركة انطلقت من الصحراء الكبرى ومكنت للمذهب المالكي، وأسست دولة غطت مساحات واسعة في شمال إفريقيا، ووصلت الاندلس في اوروبا،كما شكلت على مر العصـــور البعد الزمني المؤســـس للعقل الإســـلامي عند القبائل المنحدرة من صـــنهاجة الصحراء الكبرى.

ولها حضـور عند الزنوج المجاورين وفي هذا الصـدد يقول عمر كانا[98] عن تأثير المرابطين على الحركات الدينية في إفريقيا الغربية "يكمن تأثير حركة المرابطين بالسودان أساسا في تبني أيدلوجية الجهاد التي حملت الفلان...على متابعة الفتوح السـياسـية والدينية في إفريقيا الغربية [99]"بغض النظر عن الشـحنة العاطفية التي يقدم بها المرابطون فإن جوهر جهادهم في إفريقيا كان من أجل السيطرة وبسط النفوذ على مساحات واسعة يدين أهلها أصـلا بالاسـلام، وإن اختلفوا مع الحركة في المذهب الفقهي المتبع، وذلك مسـوغ كاف كي يتم غزوهم واجبارهم على اعتناق مذهب الحركة الجديدة، أو السـيطرة على الثروة الهائلة من الذهب في مملكة غانا التي عرفت قبلهم الاسـلام على يد التجار، وحسـب البكري فقد كانت المسـاجد في كبرى مدن ملكة غانا تناهز الثلاثين.

الحضور القوي لتراث هذه الحركة في النفوس إضافة إلى مكانة الجهاد في الاسلام، وحاجة المقاومة لشجذ العزائم بالحث عليه في بلاد لا يكاد يذكر حتى في مدارسها الفقهية، إضافة إلى غياب السلطان الذي تكرس المنظومة الفقهية المعتمدة ضـرورة أن يكون هو حامل لواء الدعوة

---

[98] -أستاذ بكلية الآداب في جامعة دكار بالسنغال

[99] أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين المنظمة عام 1996 بجامعة نواكشوط ص 129

إليه، لعلها من أسـباب البحث عن امتداد للمجال السـلطاني المغربي عند البعض، أو إمكانية استحضاره داخل الصحراء الكبرى (بلاد البيظان).

كل هذه الأبعاد الدفينة في سـيكولوجية أصـحاب الثقافة العالمة، وجدت مهمازا يحركها اسـتجابة للتحدي الجديد تمهيدا لتطبيق الجهاد المطمور في رفوف الكتب، والذي أصـبح مع الزمن منسيا.

إنها فريضة تساعد على إحياء الماضي في أبهى صوره،فالجهاد في سبيل الله وليس الجهاد التاريخي، جاء الأمر الرباني به متأخرا إلى ما بعد الهجرة ومع نزول قول الحق سبحانه وتعالى [أوذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصـرهم لقدير[100]] أوذن للمظلومين أن يقتالوا الظالمين وهو القتال المعروف بالجهاد قبل أن يصـبح مع التاريخ حروب من اجل الغنائم[101]، فهو فريضـة إسـلامية تحظى في وعي المسـلمين بمكانة تفوق غيرها من العبادات، نظرا لما تتميز به وما تلقى من المدح في القرآن والأحاديث، أكثر مما تتمتع به أية قربة أخرى يقدمها المسلم، فلا قُربة في الإسلام تساوي تقديم النفس والمال من أجل المعتقد، "وبيعهما لله" كما قال تعالى مادحا المجاهدين ومبشراً لهم بالقول { إن الله اشـترى من المؤمنين أنفسـهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاسـتبشـروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم}[102] وجاء في الحديث {مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الدائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع} وقوله {تكفل الله لمن جاهد في سـبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سـبيله وتصديق كلماته أن يدخله الجنة}[103]

هذه العبادة فُرضت بعد أزيد من عقد من الزمن على عمر الرسالة الإسلامية ذاق المسلمون خلاله أنواع الهوان والأذى، بمن فيهم الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام يقول القرطبي[104]

---

[100] سورة الحج الآية 69

[101] للتوسع في موضوع الجهاد يمكن مراجعة كتاب اجراس الرعب لنفس المؤلف.

102 . سورة التوبة الآية 111.

103 . الموطأ، مطبعة فضالة المحمدية المغرب الطبعة الأولي 1993، ص 391

[104] ـــ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي الأنصاري: الجامع لأحكام القرءان، المجلد الثالث، الجزء الخامس، ص 181، الطبعة الأولى، 1988، دار الكتاب بيروت.

إن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه أتوا النبي صل الله عليه وسلم بمكة فقالوا يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة؟ فقال عليه الصلاة و السلام {إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم" وبعد حين من الهجرة نزل الوحي مؤذنا بتشريع رد الظلم بالسيف في آية سماها دعاة عسكرة الإسلام آية السيف ومنطقوها الإذن برد الظلم عن المستضعفين، [أوذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز [105]] .

أجل الطرف المشرك هو المعتدي كما نصت لأية الكريمة، وهو الظالم بإخراجه الموحدين من ديارهم وحرمانهم من حرية العبادة، في هذه الحالة أذن لهم الرب بالقتال، عشرات الآيات في موضوع الجهاد لم تخرج عن هذه القاعدة[106]" فالإذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأن عليهم قتال المشركين المعتدين عليهم والمانعين للناس من الدخول في الاسلام، قال بعض المفسرين كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله صل الله عليه وسلم بألسنتهم وأيديهم فيشكون ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم {اصبروا فإني لم أومر بالقتال} حتى هاجر فأنزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة، وهي أول آية نزلت في القتال" يقول الجلالان {أوذن للذين يقاتلون} "أي المؤمنين أن يقاتلوا، وهذه أول ءاية نزلت في الجهاد". ويعلق الصاوي قائلا "قوله أول ءاية أي بعد أن نُهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيف وسبعين ءاية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ويعذبونهم فيشكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم اصبروا فاني لم أومر بقتال، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية. "

والدارس لفقه الجهاد في الإسلام غير المدفوع بفكر "الحماس وعسكرة الإسلام "، يفاجأ عندما يلاحظ أن جل غزوات النبي صلى الله عليه وسلم،كانت في الغالب دفاعية في وجه هجوم مباشر، أو استباقية لضرب حشود تحشد لهم، أو ردّا على نكث لعهد، كما يندر بعثٌ أو

---

[105] سورة الحج الآيات 39 –40

[106] سيدي محمد بن جعفر أجراس الرعب من التكفير إلى التفجير ص 152 الطبعة الأولى يوليو 2015

سرية[107] غير مسبوقة بعمل أو استفزاز أو تحرش قام به المستهدف، ويصف القرآن كل هذه الحالات التي وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتفصيل، والكتب المهتمة بهذا الشأن مليئة بالأمثلة.

يستنتج مما ألمحنا إليه قبل قليل شبه اتفاق أكثرية فقهاء المسلمين على وجوب الجهاد على كل أفراد المجتمع عند تعرض بلاد المسلمين للغزو من الكفار، كما هو حال أصحابنا وإن اختلفت وتعددت وصفات فرنسا وخاصة الشعار الذي رفع كبلاني[108] من التظاهر بعدم التعرض للدين، وكذلك أدلة الفقهاء المؤيدين له حيث يقول بن كثير عند قوله تعالى {كتب عليكم القتال} "هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام"[109] ويقول خليل بن إسحاق الصفدي صاحب المختصر عمدة الفقه الموريتاني، في نفس المعنى "وتعين بفجأ (أي الجهاد) ولو على امرأة وعلى من بقربهم إن عجزوا" .

وعلى نفس النسق –أي تعرض البلاد للهجوم من العدو الكافر– يقول شارحه الخرشي "ذكر هنا أنه قد يتعين على كل أحد وإن لم يكن من أهل الجهاد كالمرأة...، كما إذا فاجأ العدو مدينة قوم فعجزوا عن الدفع عنهم فإنه يتعين على من بقربهم أن يقاتلوا"[110] وفي السياق نفسه يقول بن جزي "أن يفجأ العدو بعض بلاد المسلمين فيتعين عليهم دفعه فإن لم يقدروا لزم من قاربهم، فإن لم يستطع الجميع وجب على سائر المسلمين حتى يندفع العدو"[111]. وبالتالي فإن العدو عندما يغزو بلاد المسلمين وجب قتاله بالمتاح من القوة {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}[112]، دون انتظار الشروط الأخرى التي قد تبدو كمالية كما نص على ذلك الكثير من الفقهاء.

بهذه الإشارة المقتضبة إلى البعد التاريخي والفقهي للجهاد، نأمل أن نكون قد وضعنا القارئ في صورة معينة عن الخلفية الدينية لفقه الجهاد كما كان يتمثلها المجاهدون لا محالة. والتي لا

---

107 . تطلق على كل غزاة لم يشارك فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

108 . كبلاني مهندس احتلال موريتانيا. ولد بكورسيكا عام 1866 وقتل سنة 1905 بتجكجة على يد المقاومة.

109 . أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير القرءان العظيم، الجزء الأول، مكتبة دار الفيحاء، ط 1994، ص: 290

110 . الشيخ خليل بن اسحاق المالكي: المختصر شرح الخرشي المجلد الثاني ص 110-111

111 . محمد بن أحمد بن جزي: الأحكام الشرعية والمسائل الفرعية والقوانين الفقهية، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

112 . سورة الأنفال لأية 60

يخفى اجتزاؤنا لها وعرضنا عن الكثير من النصوص المتصلة بها حيث ارتأينا أن هذه الشذرات تكفي لتأطير موضوعنا في هذا المستوى على الأقل.

بُعد آخر حري بالذكر يتعلق بفكرة متداولة مفادها أن الأمراء في "الجنوب" قاوموا من أجل ربع تجارة الصـــمغ (أحد أهداف التواجد الأوروبي الأول)، وأن انتشـــار ظاهرة الاغتيالات والحروب بين الأرســتقراطيات الحاكمة مرده الحصــول على الأتوات التي يدفع الغربيون مقابل حماية التجارية، بعض الباحثين يأخذون بهذه الفكرة لتفســير ظاهرة الاغتيالات دون التنبيه إلى أن هذه الظاهرة عامة في كل المجتمعات والحضــارات تقريبا، وأنها قديمة قدم السـلطة، وكانت منتشـــرة في إمارات تلاشـــت قبل أي احتكاك أو تعامل مع الوافد الأوروبي.. وهذا ما يجعل الاعتقاد بأن الأسباب الداخلية والموضوعية هي التي تحدد ذلك وإن تم استغلها من طرف الوافد لخدمة أغراضه، متحالفا مع هذا ضد هذا ومرشحا كفة هذا كل ذلك كان من أجل مصلحته.

فقد كـان الفرنســـيون يقيمون علاقات منتظمـة مع إمـارات التراررة، والبراكنـة، وتكـانـت، ويتدخلون أكثر فأكثر في الشــؤون الداخلية، لهذه الإمارات انطلاقا من "ســان-لويس-وحوض السنغال."[113] وبالتالي فإن محاولة جعل مقاومة "العرب" أو الذين قاوموا منهم بدافع الطمع تارة" والشعور بالغبن تارة أخرى، من بني عمومتهم المستفيدين، فكرة تبدو بصمة المستعمر واضـحة عليها ولوعن غير قصـد من أصـحابها، ولو نظرنا إلى المسـألة من الناحية السـيكولوجية فإن ثقافة حماية الذمار ودفع العدو شـــيمة متجذرة في العرب فيما بينهم. وكم جرت من المآســـي والحروب البينية بسـببها، أحرى إذا وضـعنا في الحسـبان أن الوافد الجديد أجنبي ومخالف في الملة وعدو عبر التاريخ، وما يسـعى إليه هو إحلال سـلطته مكان سـلطتهم وبقوة السـلاح، ألا يجعل هذا مجموعة التفسـيرات هذه إن صـدقت في بعض الحالات فإنها ليسـت القاعدة العامة مع ملاحظة حديث بعض الباحثين عن نظرة الأمراء إلى الفرنســـيين كغارمين، وذلك ما يجعل فكرة الدوافع المادية فحسب مشكوك فيها،وحتى لو أبدلت بكون إلغاء الاتوات نقضا للعهد يترتب عليه عدم الالتزام أو السـماح بالنشـاط التجاري داخل المجال السـيادي لكان ذلك التحليل أقرب إلى المعقولية من حصرها في تلك الفكرة التنقيصية فعلا.

---

113 . بير بونت: إمارة آدرار لبتة تاريخية، ترجمة بوبه ولد محمد نافع، نواكشوط، 2002م، ص90

في دراستنا لهذه الفترة ننبه إلى أننا أمام أرض حبلى بالتناقضات الداخلية، محاطة بالأطماع الأجنبية، خاصة من فرنسا المتواجدة على أطراف مجال "تراب البيظان"، بعد أن تسلل إليها، رحالة وجواسيس تسلقوا هضابها واختبروا مسالكها وعايشوا معمريها – في لبوس الدين غالبا – وتعاملوا مع بعض منتفذيها على التخوم.

في هذه اللحظة بالذات عقدوا العزم على احتلال البلاد، احتلال ما تزال أبعاده وخفاياه وهزاته التي أحدث على المستوى الاجتماعي بعيدة عن الدراسة العلمية الجادة، الساعية إلى كشف حقيقة ما حدث من مناورات ومؤامرات، وما ارتكب من جرائم في حق المواطنين على يد الاستعمار، والدور الحقيقي لأعوانه الذين يحظون بمكانة غير علمية على مستوى البحث العلمي تفوق تلك التي يحظى بها المقاومون الذين يستحقون اهتماما أكثر لأنهم ضمير الأمة الحي ووجهها الحقيقي.

تساؤلات من هذا النوع لا شك أنها مشروعة، والبحث عن معرفة ما حدث حق مشروع للأمة؟ و التساؤلات الجمة تقتضي الإجابة عنها البحث المتواصل بعيدا ما أمكن عن الرواية الفرنسية بمدارسها المختلفة ومناصريها المحليين حتى لا تظل تلك النظرة هي السائدة والمهيمنة، فما حدث في الطرف الآخر – طرف المقاومة– ما زال غامضا يصعب الوصول إليه إلا بجهود كبيرة تدونه معتمدة على جميع المصادرة خاضة الروايات الشفوية واخضاعها لتحليل والتدقيق لأن مصادرها هم الصناع المباشرون للاحداث في الطرف المقاوم.

علينا أن نبحث ونجمع ما يمكن جمعه حتى لا يضيع، وحتى لا تبقى وجهة نظر المنتصر المكتوبة هي الوحيدة المهيمنة وذات المصداقية. ونبقى في دوامة مقولة اللاتاريخ والتزوير والتشكيك في قدرة المقاومة على الصمود أمام فرنسا المتفوقة، وتكذيب معلومات حول انتصارات اعترف المحتلون أنفسهم بها، والتكتم على فضائح وجرائم ارتكبت تبرئة لذمم حلفاء فرنسا الذين جعلوها خيرا كلها، ولا يصدر عنها إلا ما هو أحسن مما كان قبلها.

فرنسا نحو التوغل في أرض البيضان.

من بين جميع مســـتعمرات اتحاد غرب إفريقيا بقيت موريتانيا لوقت طويل هي الأصـــعب اختراقا على جهودنا (التمدينية)، فالطبيعة المتوحشة، اللئيمة، وعداء هذا البلد .وروح الاستقلال الجياشـــية لدى ســـكانه، وقيمه القتالية والحالة الطبيعية للقبائل وحتى تزمتهم الديني،كل ذلك تضافر ليجعل مهمتنا أصعب.

شهد النصف الثاني من القرن 19م تنافسا بين الدول الاستعمارية الكبرى بغية الحصول على المزيد من الأرض في القارة الإفريقية، وقد اهتمت إسبانيا وفرنسا على الخصوص بمنطقة الصحراء الكبرى، وكانت المغرب جارتهما الضعيفة عرضة لاعتداءاتهما، فأثقلوها بالاتفاقيات التي تحد من سيادتها بقوة السلاح، تارة لتتنازل عن هذه المنطقة، وبالتهديد تارة لتقديم تسهيلات لإنشاء مراكز على هذه الأماكن من سواحلها،هذه الضغوط جعلت سلاطين المغرب يبحثون عن فضاءات خارج سلطتهم الزمنية واقعيا، يساومون عليها لتخفيف الضغوط ولإبعاد أرضهم قدر الإمكان عن الأطماع الاســـتعمارية، والحفاظ على وحدة ترابهم التي بدأت بوادر تمزيقها تلوح بشكل مكثف، بل تترجم إلى واقع منذ احتلال فرنسا لأرض مغربية بعد معركة وادي سيلي قرب وجدة في 14-9-1844. وقد أســـفرت تلك المعركة التي هزم فيها المغرب عن اتفاقية لاله مغنية 1845 فاقتطعت بسببها فرنسا الجزء الغربي من نهر نافيا، الذي ظل حدودا طبيعية تفصـــل بين الجزائر المســـتعمرة التركية، والمغرب العلوية، خلال الحروب التي خاضـــتاها للسيطرة على"وجدة" من طرف الأتراك، وعلى "تلمسان" من طرف العلويين.

بعد هذا النصـــر تمكنت فرنســـا من الاســـتقرار في وهران[114] (وهي أرض جزائرية احتلتها اســـبانيا عام 1509 وظلت بيدها ثلاثة قرون إلى أن أخلتها ســـنة 1791 إثر فشـــل حملتي شارل الثالث على الجزائر1775-1785 وذلك قبل الفرنسيين بأربعة عقود).

[114] مدينة جزائرية احتلتها إسبانيا سنة 1509

وقد أثار هذا الاحتلال الفرنسي غضب أقرب الدول الأوربية إلى إفريقيا (إسبانيا) التي كانت قد احتلت قبل ذلك بقليل الجزر المغربية، قبالة مصب نهر ملوية (سبتة- ومليلية -الجزيرة) قبل وصول الأسطول الفرنسي لنفس الغاية بساعات فقط.

وسنحت لإسبانيا فرصة إعلان حرب أخرى على المغرب عند ما هاجمت قبيلة "اندلا " مخفرا إسبانيا قرب سبته، فردت إسبانيا بمعركة تطوان 1859 -1860 وهزمت المغرب وفرضت عليه التخلي عن موقع في إفني بالجنوب على ساحل الأطلسي لإقامة مركز إصلاح سفن الصيد الاسبانية دون أن يحدد مكان المركز، وبعد 15عاما من هذه الاتفاقية ظهر الإنكليز فجأة، لكن هذه المرة على مسرح أرض البيضان على حدود المغرب الجنوبية، فأبرموا اتفاقية مع "بيروك بن عبد الله زعيم قبيلة تكنة في 26-3-1876، وعن الانكليز أبرم الاتفاق دولاند ما كنزي ممثل شركة شمال غرب إفريقيا، وبموجب الاتفاق أنشأ الإنكليز مستودعات ومخازن للبضائع وأبراجا للجنود والأسلحة بالطرفاية[115]"ورغم أن المركز دّمر عام 1880 إلا أن الإنكليز أعادوا بناءه بعد سنتين وحصنوه، كما أرسلوا بعثة استطلاعية إلى آدرار تعرضُ على أميره مشروع معاهدة تجارية.

بعد هذه التطورات قامت اسبانيا باحتلال ريودوروا قاطعة الطريق على فرنسا من جهة طريق التقدم نحو شواطئ موريتانيا المواجهة لجزر الكناري، وكانت فرنسا في هذه الفترة قد بدأت تمركزها على شواطئ إفريقيا الغربية مع حاكم السنغال فيدرب، كما بدأ تخطيطها لتوسيع احتلال الجزائر بإخضاع الصحراء والوصول إلى قلب السودان وسواحل الأطلسي.

بدأت سياسة فرنسا في التبلور اتجاه الصحراء الكبرى ابتداء من عام 1878 متخذة اتجاهين اتجاه شمالي يستند على مستعمرة الجزائر، واتجاه جنوبي يستند على مستعمرة السنغال، ومع ظهور مشروع المهندس دوبوشل عام1878 عن سكة حديد الجزائر- تنمكتو عبر الصحراء، أصبح التوغل في بلاد البيظان شعارا لدى الفرنسيين "وقد بدأ استطلاعات هذا المشروع العقيد فلاتزة الذي قتل في 8-2-1881"[116].

---

115 . وثائق ولد حرمه: مصدر سابق، ص: 665

116 . - وثائق ولد حرمه، مصدر سابق

وفي جنوب الجزائر بدأت البعثات تتحرك صوب موريتانيا، تمهيدا للاحتلال، فقد كانت فرنسا تسعى إلى ربط الجزائر بمستعمراتها في غرب إفريقيا، ومن هذه النقطة أصبحت موريتانيا ضمن سياسة فرنسا الصحراوية، سياسة بدأت بالتوجه إلى احتلال "فجيج" في الجنوب الجزائري باعتبارها مركز انطلاق المواصلات نحو توات، والنيجر، وموريتانيا، ولتحاشي الحركة المعادية في المنطقة والتعقيدات الدبلوماسية التي قد تحدث عن الاحتلال اتجهت فرنسا إلى توات مستفيدة من اتفاقها مع بريطانيا عام 1890 الذي أطلق يدها في الصحراء(جنوب الجزائر) إلا أنها توقفت عن تنفيذ هذا المشروع أيضا بسبب موقف سلطان المغرب الحسن الأول الذي هدد بإثارة مسألة توات على الصعيد الدولي، وكانت فرنسا تسعى إلى جعل توات مركزا أماميا للتوغل بصورة سلمية في الجنوب الغربي والمنطقة الموريتانية' وابتدءاً من سنة 1894 احتلت تمبكتو ومات السلطان الحسن الأول، وفي العام الموالي احتلت توات وبدأ مخطط فرنسا الفعلي لاحتلال أرض البيضان.

في ظروف دولية معقدة، وصراعات محتدمة حول مناطق النفوذ، وفي فترة كان الموقف الفرنسي ضعيفا على الصعيد الدولي، تقدم كبولاني بمشروع "إقامة موريتانيا" مشروع رغم وجاهته رد عليه وزير الخارجية الفرنسي ديلكاسيه بالقول " الفت نظرك إلى الموقف الدولي حول بعض المناطق التي ستضمها موريتانيا الغربية، فهناك جدل مستمر بيننا وبين الأسبان حول مخاوفهم على الحدود الشرقية لممتلكاتهم في ريوادورو"[117].

ولهذه الأسباب وغيرها تُرك المشروع مؤقتا، وبعد اجتماع كبولاني بالوزير الأول تمت الموافقة على مشروع تحديد منطقة الحماية الفرنسية في موريتانيا الغربية بخط العرض 21 شمالا وفور الإعلان عن المشروع بادر الأسبان بالتعبير عن قلقهم على ممتلكاتهم في المراكز الساحلية، للصحراء الغربية غير أن وزيري خارجية البلدين ديلكاسيو وليون كاستلوا توصلا إلى اتفاقية بتاريخ 27-6-1900، حملت اعتراف فرنسا بسيادة إسبانيا على الأرض الواقعة بين الرأس الأبيض قرب نواذيبو في الجنوب والطرفاية في الشمال،وقد اعتبر الجانب الفرنسي هذه الاتفاقية تكفل له حرية العمل في موريتانيا.

---

117 . وثائق ولد حرمه، مصدر سابق

في هذه الأثناء واصـــل كبلاني جهوده وقابل رئيس الحكومة (ولجيوك روســـو) "ونجح في إقناعه بضـرورة احتلال موريتانيـــــا، فكلف الوزير في 3-3-1901 لجنة وزارية بدراســـــة الموضوع، وفي 1-6-1901 أوضحت اللجنة ضرورة احتلال الأراضي الممتدة من فوتا جلون إلى نهر النيجر إلى ساحل الأطلسي ولتنفيذ توصياتها صدر قرار في 1902/10/10 بتعين كبلاني سكرتيرا عاما للمستعمرات"[118].

غير أن مباحثات رئيس الحكومة مع الحاكم الســـابق للســـنغال شـــوديخ، بشـــأن التوغل الاستعماري نكست مشروع كبلاني الذي عارضـه شوديخ وقال "إن تجارة السودان تلائم تماما النظام الذي اتبعه الحكام المتعاقبون للمســـتعمرة، والذي يقوم على أســـاس دفع الأتاوات لأمراء المنطقة الموريتانية، ولذلك فإن هذا التوغل سيواجه معارضـة حادة من جانب الغرف التجارية، والمجلس العام والهيئات المنتخبة في المســـتعمرة، الذين كانوا مرتاحين لنظام الأتاوات والهدايا التي ازدهرت في ظله التجارة مع القبائل الموريتانية، ويفضـلونه على اسـتخدام القوة.. إن إلغاء الأتاوات أوالهبات التي كانت تعطى لأحمد سالم،وولد أحمدو ورؤساء إيدوعيش واشراتيت الخ.. بصفة مفاجئة سيتسبب في صيحة سخط عام من كل تجار السنغال"[119]

---

118 - نفس المصدر.

119 - نفس المصدر.

أما بالي رغم أن رده لم يكن معارضـــا تماما إلا أنه لم يكن مشـــجعا فقد رأي أن أي عمل عسكري في موريتانيا لن يكون مثمرا، كما عارض وضع قوات تحت تصرف كبلاني، وقال إن كل ما يستطيع عمله هو أن ينشئ مكتبا في سان –لوي لإعداد الدراسات عن منطقة موريتانيا".

عبور النهر وبداية الصدام المسلح.

في إطار حديثنا عن انتقال الحروب الفرنسية إلى داخل أرض البيضـان، نشير قبل ذلك بشيء من الاقتضاب إلى حروب الترارزة مع الفرنسيين داخل التراب السنغالي، باعتبارها كانت تمهيدية رغم الفترة الزمنية التي تفصـــلها عن الاحتلال، ونعني بها حروب الأمير محمد الحبيب مع الفرنسيين لصدهم عن محاولة انتزاع إمارة الوالو تحت ذريعة منع زواجه من الأميرة الزنجية انجنبت امبودج، خشـــية انتقال ولاية العهد أو الوصـــاية على العرش إليه بحكم ذلك الزواج الذي رأو فيه تهديدا حقيقيا لمشروعهم الاستعماري إن هو تم، فاندلعت الحرب سنوات 1833 إلى 1835. ولأن الهـــدف كان أكبر من منع الزواج، فقد حملت خمسينيات القرن 19 إلى المنطقة القائد فيدرب الذي ركز مهمته على انتزاع منطقة الوالو من العرب في الشـــمال، فدشن مرحلة من الحروب البشعة تمثلت في حرق قرى الزنوج واختطافهم، حرب طبقت سياسة الأرض المحروقة حسب تعبير الدكتور محمد المختار بن السعد.

وقد واجهت قبائل الترارزة "الكحل" المجاورين للضـفة اليسرى للنهر، حملة قمع شـديدة على يد القوات الفرنسية، وجاء رد"محمد الحبيب بهجوم جريء على سان لوي في 21 ابريل 1855

شارك فيه –حسب التقديرات الفرنسية– ألفا مقاتل، وكاد يستولي على قلعتها الحصينة لولا المدفعية الثقيلة التي أفلحت –بعد لأي– في صـــد المهاجمين..ولدعم موقفه العســـكري بادر محمد لحبيب بنقل الحرب إلى الصعيد الاقتصادي، بمنع رعاياه من بيع العلك للفرنسيين

لحملهم على التنازل،..وأرســـل وفدا إلى غامبيا لتنشـــيط التبادل مع الانكليز في محطة بورتانديك الشاطئية"[120].

وقد لقيت حروب محمد الحبيب أصداء كبيرة جدا في مناطق واسعة من أرض البيضان حيث نجد إشـارات إليها في حوليتي ولاته والنعمة في شـرق بلاد البيضـان عند ذكرهما لأحداث عام 1271 هجرية. كما لقيت مناصـرة واسـعة لدى كبار علماء المنطقة، مثل الشـيخ سـيديّ " الذي تمنى له التمكين من نواصـي أرباب الكفر المعتدين..، وأوصـاه قائلا: ونؤكد عليك في الوصـية ثلاثة أمور: أحدها أن تحســن نيتك في جهادك للكفرة الذين أنت بصـــدد مجاهدتهم بأن تنوي بمجاهدتك لهم أداء فرض الكفاية (..)، واعلم أننا معك بهمتنا ودعائنا وعنايتنا في جميع ما أنت فيه من نصــرة دين الله، وإعلاء كلمة الله واســفال كلمة الكفر بالله والمعصــية. ونرجو لك النصر والظفر والفرج من كل أمر نازل والمخرج من كل ضيق حاصل[121].

وقد حذا حذو الشيخ سيديّ في مؤازرة الأمير والدعوة إلى نصرته العالم اجدود بن اكتوشني (ت 1288هجرية-1871م) داعيا إلى مواجهة "الخطر النصـــراني ومؤازرة محمد الحبيب قولا وعملا..وكان صـريحا حين دعا في قصـيدته الطويلة إلى اسـتخدام كل الوسـائل العسـكرية والاقتصادية المتاحة لمجابهة الأعداء فقال:

---

120 ـــ محمد المختار بن السعد: امارة التزارزة وعلاقاتها التجارية و السياسية مع الفرنسيين من 1703-1760، منشورات المركز الإفريقي للدراسات، الرباط، سنة2002، ص557

121 . ولد السعد إمارة التزارزة، مرجع سابق، ص555-556

حاصر المسلمين جندُ النصارى	بيد الله أن يزيل الحصارى
أيها المسلمون شدوا عليهم	وانزلوا الزيرة وانزلوا كنارى
سارعوا بالجهاد بعد التواني	واجعلوا خشية الإله شعارا
لا تخونوا إمامكم وانصروه	إن في خونه لذلا وعارا
قد دعاكم فلم يزدكم دعاه	لجهاد العدو إلا فرار
طلما حاول الجهاد وحيدا	أوحيد يروم فتح النصارى
فانصروه ينصركم طرا	واقتلوا المشركين والفجار
يا حبيبا أو جف عليهم بخيل	وبرجل يهزم النصارى
رابطوهم بكل ثغر مخوف	بعناجيز شزبا ومهارا
واعدو من اقوى ما استطعتم	واشترو الخيل القلاص والمهارى

ودعا إلى التمســـك بالحظر الذي فرض محمد الحبيب على بيع العلك للنصـــارى بوصفه أحد أسلحة المواجهة فقال:

لا تعينوا بالعلك حزب الأعادي	اتعينون آثما كفارا
فاقطعوا الشراي حذارا	أن يصروا على الأذى إصرارا

ومن المفارقات أن حصـار محمد الحبيب الاقتصـادي على الفرنسـيين تم خرقه من طرف قاضـــي الإمارة محنض بابه ولد اعبيد ولم يكتف بخرق الحظر فحســـب بل افتخر بتحديه لقرار الحظر كما قال ولد الســـعد "فقال محنض بابه مفتخرا بتحديه لقرار محمد الحبيب ومعرضاً بمن التزم به من قومه.

جزى الله بني يعقوب من ديمان إنهم	لقاح فلا غرم عليهم ولا حجر
هم نصروا الأنصار إذ هاب ذو العلك	خيرا يستدام له الأجر

فرد عليه زعدر بن سيدي بن حرمه (ت 1889)

إذا لم يكن شيء يعاب به النفر	سوى طاعة الرحمن أو من له الأمر
فلسنا نبالي أن يزكي نفسه	مزك يسامينا ومفخره التجر

من جهة أخرى كانت هذه المنطقة ســـباقة إلى المداهنة والمقاومة، بعد نقل الفرنسيين الحرب إلى داخل البلاد، مقاومة قادها المحاربون، ومهادنة شرعها بعض رجال الدين، وتعود المقاومة إلى أســـباب موضـــوعية جدا من أهمها المجاورة وما يترتب عليها من صـراع النفوذ وتعارض المصـالح بين المسـتعمرين وبين أصـحاب السيادة التقليدية، وما يؤدى إليه ذلك التعارض من أطماع توسعية تجر إلى التصادم المســـلح في شـــكل هجوم من طرف "الطامع، وردٍ دفاعي من طرف المهاجَم كما سبقت الإشارة إلى نماذج منه.

كان ذلك يحدث خلال فترة المعاملات ذات الأبعاد الرسمية كالاتفاقيات وما يترتب عليها من الامتيازات بالنسبة للأطراف المعنية بها، وما ينجر عن خرقها من الاستفزازات المتبادلة بين الأمراء والقبائل المحاربة، وبين المســتعمرين والمواطنين الخاضـــعين لحمايتهم في الجنوب من جهة ثانية، ولا شك أن مجال البيظان الجغرافي الذي عرف التعامل مع الغربيين منذ القرن15م كما رأينا كان آخر ما تم احتلاله من قارة إفريقيا.

يقول بيير بونت "من المفارقات كون السنغال وما سيعرف بمالي عند الاستقلال وقعا في قبضـة القوات الفرنسية بين 1850–1890م وأن تمبكتو احتلت عام 1893 في حين لم يصل الاستعمار إلى الضفة اليمني لنهر السنغال المجاورة لأقدم المراكز الفرنسية في إفريقيا إلا مع بداية القرن العشرين" فالتدخلات الفرنسية في الكبلة حصلت بعد احتلال تمبكتو بعشرين عاما ولم تســـقط قلعة آدرار الطبيعية إلا ســـنة 1908م. ولا آخر معاقل المقاومة على الحدود الموريتانية –المغربية –الجزائرية– إلا في العام 1934م.. فإن دور المقاومة المحلية في عرقلة

الاستعمار أكيدة.. مقاومة الصحراويين استدعت استخدام قوات ضخمة في احتلال آدرار مثلا"[122]

ولما كان مسعانا هو التركيز ما وجدنا إلى ذلك سبيلا، على الجانب الجهادي، فإننا سنضرب صفحا عن الكثير من التحركات التي قيم بها، وعن الأبعاد الدولية للموضوع والصراع داخل أجنحة الإدارة الاستعمارية نفسها وموقفها من الاجتياح، وردود الأفعال التي تزامنت مع هذه المرحلة التي يعز على بعض المؤرخين والباحثين تسميتها "بالتوغل السلمي". وإن كانت التسمية لا تنطبق فعلا على الواقع اللهم إن كان يقصد سلم الضفة الجنوبية للنهر، أي الحدود التي أصبحت فاصلة بين محمية فرنسا (السنغال) وبلاد البيضان، الذين فقدوا سيطرتهم على أجزاء كانت تابعة لهم من تلك الضفة، حيث إن أي خطوة لتعزيز التواجد الفرنسي شمال النهر غالبا ما كانت تصاحبها أعمال عنف قتالية وصيحات رافضة، وإن بمستوى معين لا يصل حد المواجهة الشاملة منذ أيام الأمير محمد لحبيب لأسباب متعددة من أهمها الدعاية التي تطلقها فرنسا من أن تلك الاشتباكات كانت موجهة لحماية الذين قبلوا حمايتها من قبائل الزوايا المستهدفين، حسب زعمها من طرف العرب، وبأن تلك الاشتباكات هي من أجل منع أعمال النهب والتخويف، وأنها تقوم بذلك لحماية الضعفاء من تلك الغارات وقد كرس الفقهاء المؤيدون لفرنسا هذه النظرة إلى حد كبير.

أما المرحلة الثانية والتي سيدشنها كسابقتها الداهية كبلاني بمآزرة الشيخ سعدبوه، والشيخ بابه ولد الشيخ سيديّ وهما من مشاهير حملة العلم وأبناء فضلاء المجتمع والتدين،وهذا لا يعني أنهما لوحدهما من بارك وناصر وآوى الاستعمار منذ بدايته، وحتى ترسيخ أقدامه وسيطرته ، بل هناك آخرون ، غير أن الاهتمام بهما يعود إلى كونهما الأكثر زخما وجرأة واندفاعا في المشروع الاستعماري، بالإضافة إلى أنهما الأنفذ كلمة في المجتمع ، والأشهر سمعة في البلاد، ولعل صدور وتوقيع فتوى مباركة للاحتلال من طرفهما شكلت استثناء خاصا في وضعهما العائلي، حيث الأول أخ شيخ المجاهدين ماء العينين، والثاني حفيدّ وبن

122 - بير بونت : إمارة آدرار لمحة تاريخية ص 97.

الصـــالحين الذين ســبق وأن أشـــرنا إلى مواقفهما الداعية إلى الوحدة في وجه "العدو الكافر" ومنازلته بالمتاح.

مفارقة أخرى نود التنبيه إليها وهي أن مشاهيراً من حملة العلم (وحماة الشرع) من علماء بلاد المرابطين "والشـناقطة" هم أول من تحالف مع النصـارى الغزاة ومهدوا لهم الصـعاب بفتاويهم المحرمة لمقاومتهم، واستغلوا نفوذهم لتمكينهم، وضغطوا من أجل إنجاحهم، بل وحتى إطلاعهم على عورات المجتمع، ونقاط ضـــعفه، ومن أين يؤتى أهل الشـــوكة، بينما كان أمراء القبائل والقادة المحاربون (الأقل تعلما في الغالب) هم من حملوا الســـلاح وراية الدفاع عن الدين وتحدثوا باســـمه رغم كل ما تزخر به كتابات مناوئيهم من أبناء طبقة (الزوايا) من الحيف في حقهم وتأويل تصـرفاتهم وتضـخيم زلاتهم مجاراة وتأثرا بالمدارس الفرنسـية تارة، وتسـويغ أفعال بعض أبناء طبقتهم لتحسين صورة حلفاء الاستعمار المتعلمين في الغالب والمتظاهرين بالتدين والتمسك بالسنة والذب عنها بموالاة الكافر.

احتلال الترارزة.. الطريق إلى تكانت

كانت إمارة الترارزة في هذه الفترة تعيش أزمة الشـــرعية، حيث التنافس في أوجهه بين الأمير أحمد ســالم بن اعل الملقب بياده[123] وبن عمه محمد فال بن سـيدي.. وكان القتال يدور بينهما بشـراسـة بأيديهم وبأيدي المحرضـين المسـتفيدين من تلك الحرب، وفي هذا التاريخ كان موقف أحمد سالم ضعيفا جدا وهو "الذي سبق وأن اعترف به أميرا من طرف فرنسا" وكان ذلك كافيا لينفض من حوله الكثير من أنصاره فور خضوعه لحماية الفرنسيين لينضموا إلى صفوف خصمه، وكان هذان الأميرين موزعي الولاء الروحي بين الشيخين آنفي الذكر، وكان محمد فال بن سيدي تلميذ الشيخ بابه أكثر معارضة للفرنسيين، بل إنه أعلن الجهاد المقدس، وتحالف مع قبيلة إيدوعيش، رغم إيعاز كبلاني لشيخه كي يقنعه بالخضوع. وقد قاد الشيخان حملة واسعة لتثبيط العزائم عن الجهاد والدعوة جهارا لمؤازرة "كبلاني الذي يمثل السلام الفرنسي".

وشهدت بداية 1902 هدوء نسبيا، فبعد جولات من الحوار قبل أولاد أحمد بن دمان –خاصة طائفة ولد سـيدي القوية– مبدأ الحماية الفرنســية، وتمكن كبلاني بعد ذلك من تحديد "إخروفة"

123 . أحمد سالم بن اعل الملقب بيادة: دخل الفرنسيون في أيامه قتل 1905.

مكانا لإقامته بين ســهوة الماء وبورتاندك[124]حيث ضــمن الاتصــال بينهما وأصــبح قريبا من مجريات الأمور في أرض البيضــان، وازداد الموقف تحســنا عندما قامت بعض القبائل بتقديم خضــوعها، حتى أن أمير البراكنة أحمدو[125] المعادي لشــيخ بابه طلب الحماية لبلاده. ورفض كبلاني لأسباب يسهب في شرحها في تقرير له، وإن كان أهمها الموقف من أولاد ابييري، غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا، إذ سـرعان ما بدأ أحمد سـالم يهدد "بتدمير موقع بئر اخروفة مما دعا قوات الحراسـة إلى مباغتة مخيمه في تيجنيت وهرب الأمير إلى الشـمال ودخل في خلاف صريح مع الفرنسيين"[126].

بعد هذه الأحداث تحالف أحمد ســالم مع أمراء آدرار وتكانت الذين يجاهرون بعداوة فرنســا، ويسـعون لجمع كلمة "زعماء المسـلمين" لقتال الكفار، فقاده ذلك إلى التحالف ثانية مع بن عمه الأمير محمد فال بن سـيدي ومن معه من أبناء أحمد بن دمان "الذين لم يرو في الصــداقة مع الفرنسيين إلا فقدانهم لاستقلالهم.. وبذلك ساد السلام بين الاثنين، إبني العم المتنافسين، واستقرا مع مقاتليهم على بعد 60 كيلو شـــمال غرب اخروفه.. وانتشـــرت في المنطقة حركة عداء للفرنســـيين، وكثرت الاشـــتباكات بين البيضـــان والمواقع الأمامية التي أقامها كبلاني لحماية الترارزة والسنغال الأدنى"

رغم أن الأمر في الترارزة لم يحسم بداية عام 1903 فقد شـرع كبلاني يخطط لمرحلة جديدة تتمثل في اجتياح البراكنة (الإمارة الممزقة هي الأخرى بسبب الصراع على السلطة).وكان يعلم أن اجتياحها سـيجعله في مواجهة مباشـرة مع القبائل القوية المعادية، بسـبب موقعها الجغرافي الذي تطل عليه مضارب تلك القبائل، فهو موقع تُشرف عليه هضاب تكانت والعصابة، و ممر حيوي لآدرار بيت القصـــيد في الكثير من تحركات كبلاني المتســـابق مع حركة الشـــيخ ماء العينين ذي النفوذ الروحي القوي في آدرار والشمال عموما والمعارض الكبير للاحتلال الفرنسي.

ولكي ينجح كبلاني في احتلال البراكنة وظف الروح التعاونية التي سـبق وأن عرضـها عليه أمير البراكنة، خاصـــة عند اتخاذه موقفا مســـالما من قبيلة أولاد أبييري، رغم إلغاء كبولاني

---

124 . يعني ميناء هدي بن أحمد بن دمان.

125 . أمير بركني عارض الفرنسيين عزل بعد الاحتلال.

126 . محمد المختار ولد السعد: مصدر سابق، ص: 170.

للأمتيازات والهدايا التي كانت تمنح للأمراء هناك، وقيامه بتعميق الانقســـامات بين أفرع القبيلة..فانضـــم الأمير إلى المجاهدين، وعلى وجه الخصـــوص حلف إيدوعيش القوي المناوئ للفرنسيين، والذي أصبح يضم إلى جانبه كذلك أولاد أحمد واشراتيت وكنتة، كما "أعلن عثمان بن بكار الحرب المقدسة وانضم إليه أحمد سالم أمير الترارزة، فأرسل كبلاني في هذه الأثناء رسلا إلى أمير البراكنه لصده عن الدخول في ذلك الحلف، غير أنه لم يستجب للطلب واحتجز الرسل وقام مع أربعمائة مقاتل بهجوم مباغت على معسكر ألاك في 8-9 ديسمبر 1903.. ورغم استماتة المجاهدين إلا أن قوات الاحتلال تمكنت من صد الهجوم والقيام بآخر معاكس استباحت فيه مخيم الأمير عند آشكار" فلجأ إلى "مال"[127] الذي يوجد به الأمير بكار بن اسويد احمد "وتعرضا معا لهجوم آخر مباغت تقهقرا فيه عن المواقع التي كانا يسيطران عليها، وإثر هذه الانتصارات الاستعمارية أعلنت بعض القبائل خضوعها للفرنسيين مثل أولاد نغماش وأولاد أحمد من البراكنة الذين كانوا يشـــكلون جزءا من التحالف بقيادة بكار. وفي هذه الأثناء كثف الشيخ بابه خطاباته وشن حملة حقيقية لنصرة حملة "المسالم" وقد تنازل له عن أرضه في بتلميت"[128].

لكن موجة الخضوع هذه أوقفها هجوم معاكس شنه إيدوعيش بقيادة الأمير بكار على مركز ميت، استشهد فيه من المشاهير الشيخ بن إبراهيم بن عمر بن سدوم مع خمسة وثلاثين من رجال المقاومة،ومن الجانب الفرنسي قتل المترجم صنب يور مع مجموعة كبيرة من المجندين، وقد أعادت هذه المعركة التوازن بعد الانتصـارات التي حققها الفرنسيون. " وقام الفرنسيون بعملية رد عليه تمثلت في مهاجمة جونابه[129] حيث يوجد تجمع كبير للمجاهدين يوم 19 مارس 1904. وكانت العملية التي قاموا بها أشبه باستعراض للقوة أكثر منها هجوما يسعى إلى مكاسب عسكرية على الأرض، وقد تمثل ذلك في كونهم لم يقوموا بعمليات مطاردة كانت ستمكنهم من تحقيق مكاسب ميدانية كبيرة.

---

127 . مركز إداري يقع شرق ألاك

128 . نفس المصدر. ص: 277

129 . مدينة تقع في منطقة آفطوط بموريتانيا

ثم جاء يوم آجام الذي استشهد فيه من المشاهير سيدي عبد الله بن سيدي الأمين بن محمد شـين، ومحمد المختار بن عثمان بن الرسـول بن اعل بابي، وعثمان ومحمد أبني يحفظو بن أحمد ديه.

بعد هذه الاشـتباكات سـعى كبلاني إلى تفكيك التحالف القائم ضـده بين البراكنه من جهة وإيدوعيش وحلفائهم من جهة أخرى، وقد نجح في اسـتمالة أحد أبناء عائلة إمارة البراكنة (سـيد اعل) وكذلك بعض فروع القبيلة التي أشـرنا إليهم قبل قليل، ونظرا لمعرفته بأن هذا النصـر لن يدوم طويلا فقد فضل "إقامة موقع في بتلميت لحمايتها باعتبارها موطن الشيخ بابه ولأنها مركز أمامي ممتاز لمراقبة الترارزة.. وحصـن ثلاثة مواقع: منطقة البراكنة، ويحميها موقع ألاك، منطقة مال ويحميها مركز مال ميت، ومنطقة كوركول ويحميها امبود"[130].

بعد هذه الإجراءات والأعمال تأكد كبلاني بأن السيطرة لا يمكن أن تتم إلا باحتلال مرتفعات آدرار وتكانت، إذ بالسـيطرة عليهما سـيتم التحكم في مفاصـل تحرك القبائل المحايدة والمعادية للاحتلال على السـواء، وكان للتركيز على تكانت –باعتبارها طريقا إلى آدرار– ما يسـوغه اسـتراتيجيا، فالأرض بين آدرار والترارزة مكشـوفة، وولاء قبائل الترارزة المحاربة مشـكوك فيه، حيث لم ينجح نفوذ الشيخ بابه والشيخ سعد بوه في القضاء على عداء الترارزة للفرنسيين، كما أن بتلميت أصـبح مسـتهدفا من طرف المقاومة باعتباره مركزا للتخطيط وتموين عمليات الفرنسيين، ووجوده على أطراف إمارة البراكنه والعداء الشديد بين اجيجبة وأولاد ابييري كل ذلك يحتم تأمين مجاله، إضـافة إلى كون البراكنة هي الحلقة الأضـعف نتيجة انقسـاماتها الداخلية وظروفها الحرجة، وذلك ما يفسر اضطراب مواقف قبائلها المحاربة التي شاهدنا أنواعا منه.

ثم إن مجالها –أي البراكنة– يمتد حتى النهر ونقاط المراقبة والإمدادات، والتوجه المباشر إلى آدرار سيمكن قبيلة إيدوعيش القوية، من الانقضاض على مؤخرة قوات الاحتلال ووضعها بين فكي كماشة، حيث سبق وأن رأينا دخول إمارة الترارزة في الحلف الجهادي.

وكان لهذا الغازي –كبلاني– مشاغله ومناوراته مع رؤسائه المنقسمين بدورهم حول خططه لاحتلال المنطقة، انقسـامات شـكلت معوقات حقيقية كنا أشـرنا إليها بشـيء من الاقتضـاب،

---

130 . مصدر سابق ص 191

إضـــافة إلى الوضـــع الدولي وتعقيداته بالنســـبة لفرنســـا فيما يتعلق بخطوة الاحتلال المزمعة للمنطقة، وما يواجهها من مواقف رافضـة من طرف إسبانيا وألمانيا، إضـافة إلى الموقف الدولي من القضية المغربية.

نشـير فقط إلى أن فرنسـا بعد عودة كبلاني إلى سـان- الوي في أكتوبر 1904 أصـبح من الضروري لها احتلال موريتانيا لربط المستعمرات الإفريقية في الجنوب بمستعمراتها في الشمال، وهذا ما بدأت مؤشراته بتعين كبلاني (صـاحب الفكرة أصـلا) مكلفا بالمهمة خاصـة مع تحسن الموقف الدولي بعد توقيع اتفاق مع الأسبان يعترف لهم بالسيادة على منطقة الصـحراء الغربية المحاذية لشواطئهم الشرقية.

بينما كان الوضـــع الداخلي "للبيضـــان- سـكان موريتانيا" يتطور بشـكل كبير على مســـتوى الاســـتعدادات للمواجهة، فقد ظهرت في الأفق بوادر تحالفات جدية تهدد مشـــروع الاحتلال متمثلة في التحالف الذي قام بين البراكنة والترارزة، وتزايدت الضـغوط التي أصـبحت تتعرض لها القبائل الخاضعة لفرنسا، ورافق ذلك شعور تلك القبائل بالانزعاج من دفع الضرائب لفرنسـا العاجزة عن حماية نفسـها أمام غارات المجاهدين، فكيف لها أن تتمكن من حمايتهم بعد أن أصبحوا مستهدفين أكثر من طرف المجاهدين الذين يورون فيهم أعداء على قدم المساواة مع المستعمر.

جانب آخر جدير بأن يُنبه إليه ظهر خلال هذه التطورات و يتعلق بالحملة الإعلامية التي غطت بها المقاومة تحركاتها واســـتراتجياتها، مســـتخدمة إياها باعتبارها ســـلاحا فعالا لرفع معنويات الأنصار وإرباك الفرنسيين، ونشر الفرقة والذعر في صفوفهم، وقد وُظف هذا السلاح على نطاق واســـع وبخبرة ملفتة من طرف المقاومة، وهو ســـلاح لا يتم الحديث عنه كثيرا كعنصـر تم اسـتخدامه عمدا باعتباره من وسـائل الحرب التي اسـتعملت، وكان لها دورها في كسب بعض الأوراق المهمة في ساحة المعركة وساحة التحالفات المتذبذة والمتقلبة.

ومع ذلك لا يُتحدث عنها عادة علما بأنها لعبت دورا كبيرا في تطورات الأحداث وتفاعلاتها عند ما كانت المعارك في أشـــدها، ولأنها تنبع من وعي كبير لدى المقاومة بأهمية إرجاف الخصـم وتثبيط عزائمه، من أمثلة اسـتخدام هذا السـلاح تلك الحملة ذات المضـامين المقصـود

منها رفع معنويات الأنصـــار بالدرجة الأولى في تلك الظروف الصـــعبة على ما يبدو، وذلك بإعلان المجاهدين عن التوصل إلى تحالف بين "أميري الترارزة أحمد سالم ومنافسه وابن عمه محمد فال ولد سيدي" يساندهما أمير آدرار وبعض القبائل المحاربة، وأن التحالف سيقوم بغزو الترارزة (المحتلة) وأنهم يحشدون لذلك حشودا كبيرة ستطرد الفرنسيين وتجبر القبائل المعادية الموجودة في مناطق الحماية الفرنسية على الانتقال شمالا.

وفعلا لم تكن هذه مجرد دعاية، بل كان لها نصـــيب من الصـــحة، غير أن ما أجهض هذا المشروع هو تعرض الأمير محمد فال ولد سيدي لضغوط كبيرة من طرف شيخه الشيخ بابه ولد الشيخ سيديّ، لحمله على التخلي عن خيار المقاومة والانضمام إلى صفوف الموالاة، وقد انفصـــل مؤقتا عن بن عمه أحمد ســـالم، إلا أن الأمور ســـرعان ما عادت إلى التوتر مع المســتعمر "فتصـــالح الأميران من جديد وبدأ أنصـــار أحمد ســـالم في شـــن غارات على موقع نواكشوط."

جاءت هذه التطورات متزامنة مع مجاهرة إيدوعيش بأنهم من ســـلالة الأمير أبي بكر بن عمرو اللمتوني مؤسـس الدولة المرابطية الجهادية، وأنهم يسـعون إلى إحياء دور أسـلافهم في نشـر الإسـلام وحماية المسـلمين من غزو "النصـارى" للبلاد، وقد أثارت هذه الدعوة الحماس الديني في النفوس، وأعطت دفعا جديدا لكسـب مناصـرين جدد، وأخرجت المقاومة إلى فضـاء أشمل، ولتفعيل هذا التوجه الذي هُوجم بشـراسـة من طرف حلفاء فرنسـا أرسـل المتحالفون إلى الشيخ ماء العينين، وإلى سلطان المغرب مولاي عبد العزيز يطلبون منهما المشاركة في العمل، كما أشـاعوا "أن فرنسـا مهزومة في حروب أوروبية وأنها لا تسـتطيع القيام بعمل عسـكري"[131] وجمعوا أنصارهم في تجكجة وركزوا طلائع قواتهم في منطقة آفطوط.

وهكذا يظهر لنا الدور الذي كان يلعبه الإســـلام في تنســـيقات وتحالفات المقاومة على المستوى المحلي، وكذلك على مستوى طلب المساعدة من الخارج الذي يمثله سلاطين المغرب وبوســاطة ماء العينين، ســفير المقاومة وقاعدتها الخلفية التي تمدها بالمال والرجال والســلاح والفتوى.

---

131 . مصدر سابق ص 191

توضـــح لنا هذه التحركات من جهة أخرى كيف كانت تنســيقات المجاهدين الفعلية، وكيف أثمرت.. وكذلك برنامجهم المتمثل في تحرير الأرض، وبذلك تصـــبح فكرة كونهم جماعات منفصلة كل تحارب لوحدها ومن أجل مصالحها الخاصة غير سليمة إن لم تكن خاطئة، وإنما الأصـــح أن ظروفا موضـــوعية هي التي كانت تحد من مســـتوى التنســـيق والتعاون بين فئات المقاومة وتمنعهم من الاندماج،رأينا محاولات تدل على ذلك في العديد من التحالفات وهي محاولات لو كتب لها التبلور ووجدت الوقت لشكلت بداية عمل مشـترك سـيطيل لا محالة أمد الحرب أو يرغم فرنسـا على اسـتعمال وسـائل حربية أكثر تطورا كالطيران مثلا والذي سـتعملته لاحقا لحسم معاركها.

ولئن كان أهل آدرار لم يســتطيعوا الانضـــمام إلى التارزة فإن المقاومة اســـتطاعت التجمع والانضـــــمام إلى حركة إيدوعيش التي كانت تمثل أكبر قوة عســـكرية تقف في وجه التوغل الفرنسي، إضافة إلى عامل المحفز والمؤطر للمقاومة الذي مثله الدور الروحي والتأجيجي الذي كان يقوم به الشـيخ حسـن بن الشـيخ ماء العينين [132] في آدرار، كما أن الوسـاطة التي قام بها والده بين قبيلتين كبيرتين محاربتين (أولاد غيلان واركيبات) وسـعيه لكف بعضـهم عن بعض، ودعوتهم للوقوف في وجه فرنسـا بدل الاقتتال البيني، كلها كانت مسـاع تنم عن وعي بجسـامة المسـؤولية وما تتطلبه اللحظة من ضـــرورة إصـــلاح ذات البين من أجل توحيد الجهود للهدف الأســمى المتمثل في الجهاد.،وقد أثمرت هذه المســاعي كثيرا، فنجد الشـيخ حسـنه يجتمع مع إيدوعيش في تكانت وينبئهم بقرب وصـــول قوات من الصـــحراء إلى غير ذلك من محاولات لم الشـــمل واســـتغلال كل الإمكانيات للوقوف في وجه الخطر الحقيقي المتمثل في الاحتلال وأعوانه.

كان الفرنســيون، وخاصـــة كبلاني على علم بصـــعوبة الموقف، ويعلم أنه مقدم على مرحلة صـعبة وحاسـمة وكان يعلم كذلك أن المداخل المقبل على احتلالها محروسـة من طرف القبائل القوية، ولا يمكن اختراقها إلا "بقوة كبيرة" وذلك ما كان عليه الاستعداد له، فحشد قواته المتجهة إلى تكانت.

---

132 . الشيخ حسنا بن الشيخ ماء العينين كان منسق عمليات المقاومة، توفي عام 1916

"وقد بلغت قوة الحملة بعد اسـكمالها، فصـيلا من الرماة، وجماعة مدفعية، وخمس وحدات من المجندين السود ووحدة من المجندين الموريتانيين، ووحدة من المجندين الجزائريين، كل ذلك تحت إشـراف عدد من الضـباط وضـباط الصـف الأوروبيين، وبلغ إجمالي البعثة ثلاثين من الأوروبيين وما يقارب ثمانمائة من الأفارقة و مائتي حصـــان يحملون المؤن وثلاثمائة جمل وثمانين من الأبقار والثيران"[133].

يقول الرائد افرير جان عن حماس بعض القبائل المنضـوية تحت الراية الفرنسـية "كان أولاد بسـباع الذين يتبعون لي يلازمونني ولا يدعونني أبتعد عنهم فهم يعتبرون أنفسـهم ينتمون إلي وأني منتم إليهم، أما وحدات السـودان التي تشـكلت على الأخص من التكرور المجندين على شواطئ النهر فقد كانت مشكلة من شبان غير مدربين، وعلى درجة قليلة من التعليم، ويفتقرون إلى الانضـــباط الكافي ولم يكونوا متلائمين مع طبيعة موريتانيا، وهم يعانون من الجفاف أكثر من الأوروبيين وهم سريعوا التعب وتنقصهم قوة التحمل"[134]

كانت هذه هي نواة الحملة العسكرية على تكانت في هذه المرحلة، والتحق بها المدد بعد ذلك وقبل التحرك الفعلي نحو تكانت دشـن كبلاني تحركات دبلوماسـية من أجل الحصـول على المزيد من التأييد، ومن أجل الظهور بمظهر القوي موجها بذلك رسـالة إلى كل من ينوى التربص به بأنه جاهز للمواجهة والقضـاء على الخصـم، فدعا "أعيان البراكنة الخاضـعين له بتاريخ 29 ديسمبر 1904 للاجتماع به لترشيح شخصية تحل محل الأمير أحمد المنشق، وقد وقع الاختيار على سيد اعل.

وفي 21 يناير 1905 ذهب كبلاني إلى بتلميت مقر سـيديا في وسـط الترارزة التي كان يسودها شعور بالغليان، وهناك حاول أن يجذب إليه من جديد قلوب رؤساء أفرع القبائل الذين حضـروا تلبية لدعوته لهم قبل رحيله إلى تكانت، وفي هذا الوقت تمكن افرير جان بفضـل قوة من رجال قبيلة أولاد بسباع الذين جندهم ودربهم، من أن يشق طريقه من موقع نواكشوط إلى

---

133 . مصدر سابق ص 191

134 . وثائق بن حرمه، مصدر سابق

بتلميت رغم الصعوبات وأخطار القبائل المعادية، وذلك لينضم إلى القوة العسكرية المتجهة إلى تكانت"[135].

وكانت نقطة الانطلاق من بتلميت، ولم تقف الاستعدادات عند هذا الحد، بل إن الشيخ بابه أمد البعثة بالجمال ووحدة من المقاتلين من قبيلة أولاد أبييري بقيادة المختار شـــيخنا ولد داداه[136]. "وطلب من كبلاني أن يسلمهم بنادق سريعة الطلقات"[137] ولم تكن الحرب الإعلامية ســـلاحا في يد المجاهدين لوحدهم، بل أعلن كبلاني خلال هذه الحملة (بغية الفت في عضـــد المجاهدين وقبائل آدرار على الخصوص وأنصار الشيخ ماء العينين) أن من المتفق عليه "أن يتقابل هو وبابه في آدرار، يكون بابه قادما من بتلميت من اتجاه الجنوب الغربي، وهو من تكانت قادما من الجنوب الشرقي"[138] .

وتحركت الحملة من بتلميت، ووضـــعت اللمســـات الأخيرة لتحركاتها وتنظيمها في ألاك من 22 يناير إلى 1 فبراير 1905 استـــعدادا للتقـــدم، ووصلت بكامل عدتها إلى مال بتاريخ 3 فبراير، "وفيه بدأت الكثير من المناورات والاتصالات مع بعض فروع ايدوعيش وخاصة عثمان ولد بكار، الذي بدا موقفه غامضـــا ، حين بعث مندوبا ســـريا حاملا بعض المقترحات التي تتضمن استعداده للتنازل عن مال وكيم وآجوير وحتى استعداده كذلك لدفع فدية من الخيول الأصيلة اذا ما اعترف به كبلاني في تكانت "[139] .

هذا الاقتراح لم نتمكن من الحصـــول على تفسير مقنع له، وكيفية صـــدوره من شـــخص يفترض أن يتقلد الزعامة مباشرة بعد والده اللهم إن كان موقفا تكتيكيا المراد منه كسب الوقت، ولعل كبلاني أدرك ذلك اذ سنجده يفضل الاتصال بأخيه الحسين بن بكار، وفي يوم 12 فبراير تحركت الحملة نحو هدفها وفي 16 منه التقت جميع القوات الغازية عند كيمى. وتمركزت قوات المجاهدين عند مضـــايق مداخل تكانت انتظاراً للحملة، واختارت المضـــيق الأكثر مناســبة للمعركة وهو مضـــيق "قم البطحاء"، غير أن خطة الفرنســيين تغيرت، فحولوا

---

135 . نفس المصدر

136 . عم الرئيس السابق وليس جده كما ذكرت فيلمان على هامش فرير جان

137 . وثائق ولد حرمة: ص294

138 . وثائق ولد حرمة: ص294

[139] نفس المصدر والصفحة

وجهة الحملة واتبعوا اسلوب التسلل عبر ممر "دركل" الوعر يقودهم الرائد فريرجان ، ولم يمنع ذلك من وقوع مواجهات عنيفة مع المقاومين يوم 28 فبراير 1905م .

و"اســـتمرت ثلاثة ايام بلياليها على ثلاث مراحل عند دركل، وواد المشـــرع ، وعلب ايدار" وجرح "في معركة دركل الضابط لستير دريه جرحا عميقا في الفخذ كاد ينتحر بسببه" غير أن الحملة نجحت في دخول تكانت محققة حلما كبيرا طالما راود الفرنسيين، واندلعت يومي 7-8 مارس 1905 مواجهات عنيفية كذلك عند "تنشـيبية" جرح فيها الرائد فريرجان "وراى الموت بأم عينه مع جنوده حسب شهادته " وبوصولهم إلى تامورت النعاج أصبحت قوات الاحتلال تهدد مؤخرة قبيلة إيدوعيش رأس الحربة في قوات المجاهدين، فتحرك المجاهدون جنوبا لاستدراجهم، وأصبحوا في وضع جديد يهددون به تموينات الحملة ويقطعون عنها المدد.

وقعت في هذه الأثناء بعض الاشـــتباكات العنيفة بين الطرفين، غير أن هجوما شـــاملا لم يحدث، مع أن كل المعطيات كانت تنذر بقربه وأن معارك فاصـــلة على الأبواب، فالوضـــع مختلف الآن لأن الفرنسيين استطاعوا نقل المعركة إلى عمق تواجد المقاومة وتحصيناتها، بل إلى مقر قيادتها، وبدأ التسـابق مع الزمن وقد عانى الفرنسـيون –حسـب فرير جان، في هذه الأثناء من بعض المشـاكل المتعلقة بشـح المياه وندرة مراعى للحيوانات التي تسـتغل في حمل المؤن والجنود أثناء المطاردة التي بدؤها لإبعاد قبائل إيدوعيش عن هضبة تكانت والاشتباكات التي حدثت في تلك الأثناء.

استشهاد الأمير بكار.. صفعة المقاومة الكبرى

انطلقت قوات الاحتلال الفرنســـي في حملة تكانت والبراكنة، هدفها المعلن رأس الأمير بكار بن ســـويد أحمد،وأعادت تجميع قواتها في ألاك.. ومنه تحركت إلى أهدافها الكبرى المتمثلة في احتلال هضـــاب تكانت تمهيدا لاحتلال آدرار والتخلص من نفوذ ماء العينين والأمير بن عيده وكل من يرفض الاستعمار.

وقبل الدخول في التفاصيل نقدم نبذة مختصرة عن قبيلة إيدوعيش الطرف الفاعل في هذه الأحداث خاصـــة فرع أبكاك الذي يقوده الأمير بكار.. إيدوعيش قبيلة من صـــنهاجة تعود

إلى أصول مرابطية وهي قبيلة صنهاجية "تمغفرت" أي أنها مارست السيادة بأسلوب بني مغفر من قبائل بني حسان العربية التي سيطرت على البلاد وأسست سلطنات وإمارات. واستطاعت أن تجد لنفســـها موطأ قدم ومكانة محترمة بين تلك القبائل المحاربة وذلك بعد خروجها من حصار احنيكات بغداد[140]، الذي حاول فيه بنوا حسان اجتثاثها واستئصال شأفتها، فأصبحت بعده قوة مركزية إلى جانب تلك القبائل القوية واســـتطاعت مزاحمتهم ومقاومتهم بندية وبحد السيف، كما استطاعت الصمود أمام ضرباتهم المتكررة ومكنها ذلك من أن تظل في قلب أحداث تاريخ البيظان يساعدها موقع جغرافي يتوسط ارض خصومها.

كما تحلى أمرائها ونبلائها بأخلاق وعادات أمراء المغافرة الذين أغدقوا العطايا –كما هي عادتهم– على الشـــعراء فمُدحوا فجاراهم أمراء هذه القبيلة فمدحوا بدورهم كذلك وخلدوا، وأنعم بعضـــهم على حملة العلم فازدهرت "المحاظر" بجوارهم، وظهر في مجالهم الترابي أعلام مشـهورون من فقهاء البلاد، وكغيرهم من الإمارات القوية دب فيهم الخلاف فانقسموا تجمعين كبيرين أحدهما يدعى "اشراتيت أي الضباع" والآخر يدعى "أبكاك نوع من الصمغ" .

خلافاتهم وأيامهم البينية تزخر بها الروايات الشعبية وأسبابها الأساسية هي التنافس على السيادة، وقد وصل نزاع أسرتهم الأميرية حداً أصبح مضرب المثل في الخلاف بين بن الأخ وأعمامه، حيث يقول المثل عند المبالغة في الخلاف "بينهم الذي بين اســـويد احمد وأعمامه". واسويد احمد هو والد الأمير الشهيد بكار.

ساد الأمير بكار، وذاع صيته في الكثير من الآفاق، وأصبح مضرب الأمثال خلال حكمه الطويل، ولم تمنعه الشيخوخة من حمل السلاح والدفاع عن وطنه في وجه الاستعمار عندما بدأت بوادر الغزو، فكان في المقدمة وحشد خيله ورجله مُعداً ما استطاع من قوة، وتداعى جل قبيلته بشيبها المجربين وشبابها المتحمسين، ودعوا للجهاد وحملوا راية المقاومة رافعين شعارا مفاده أنهم أحفاد أبي بكر بن عمرو اللمتوني زعيم المرابطين، وظل بكار يقاوم حتى النهاية فلم يستسلم.

---

140 . احنيكات بغداد معركة وقعت بين المغافرة وإيدوعيش سنة 1848

تقدمت الجيوش الفرنسية داخل تكانت فوصلت قصر البركة (مدينة قبيلة كنتة) أعداء الأمير التقليديين كان الفرنسيون على دراية كبيرة بجل الحساسيات والضغائن بين القبائل والمتنفذين فوظفوها واتصلوا بالقبائل المعادية للأمير.

بعد احتلال قصر البركة انساحت قوات الاحتلال إلى مدينة المجرية[141] ثم الحسينية، وبذلك تحكمت في المداخل لإستراتجية للهضبة وفور تحقيق هذا التوغل الناجح وفي خطوة استباقية لتكوين تحالفات جديدة مع القبائل المعادية وتلك المحايدة ، أرسل كبلاني "يستدعي محمد المختار زعيم قبيلة كنته لمحاولة ضم قبيلة إليه، خاصة وأن عداءها متأصل لقبيلة إيدوعيش منذ أن قامت بمساندة قبيلة تجكانت في طردهم من تكانت وتدمير مدينتهم في عام 1885"[142].

وكان كبلاني متفائلا بهذا النصر بل تصرف من خلاله وكأن الأمر قد حسم، فبدأ بوضع خطة المرحلة الموالية وهي احتلال آدرار "فقدر أنه في ظرف شهرين سيكون قد أتم مهمته في آدرار التي اكتشفت بها سبخة الجلد.. وقد أرسل إلى الملازم أبيير القائم على حراسة بتلميت كي تكون قواته مستعدة لحراسة قوافل التأمين التي ستأخذ طريق الترارزة عبر بودور وبتيلميت"[143].

لكن هذا التفاؤل لم يدم طويلا، بل يمكن القول إنه لم يكن في محله حيث إن المجاهدين كانوا يراقبون كل ما يحدث، ولن يتركوا هذا الاستفزاز المتمثل في احتلال تكانت يمر دون رد خاصة من طرف قبيلة إيدوعيش المتضررة من احتلال أرضها والتي أدركت "أن كبلاني كان يراسلها في الوقت الذي يراسل أعداءها كنته.. وعلى جبهة الترارزة أخذ أحمد سالم في تهديد موقع نواكشوط.. ومن جهة أخرى انهارت قوات حراسة قوافل التأمين القادمة من كيهيدي وميّت في الوقت الذي أصبحت فيه قبيلة ايدوعيش تهدد طريق إمداد الحملة"[144].

تزامنت هذه الأحداث وتفاعلت لتشكل منعطفا جديدا في تاريخ الجهاد "أما القوة التي أرسل كبلاني لمراقبة قبيلة إيدوعيش فقد دمرت وأصيب قائدها دبري إصابة خطيرة.. وجاء رسول

---

141 . المجرية مقاطعة بتكانت بوسط موريتانيا

142 . مصدر سابق

143 . نفس المصدر

144 . نفس المصدر والصفحة.

حرب من الأمير بكار إلى مقر كبلاني وخاطبه باستعلاء وأنذره بإخلاء تكانت". فأرسل كبلاني الرائد افرير جان لنجدة دبريير في 12 مارس 1905.

ولم تقف المتاعب عند هذا الحد بل ازدادت بوصـــول "نبأ يفيد بأن الأفراد المائتين من قبيلة أولاد أبييري الموالين للشـيخ سـيديّ بابه قد اقتتلوا مع قبيلة أولاد بسـباع الموالين هم أيضـا والموجودين في قوات الحملة الفرنسية، ولكنهم تكبدوا هزيمة ساحقة، إذ تمكن أولاد بسباع من قتل ما يقرب من اثنين وثلاثين منهم وغنموا إحدى وسـتين ومائتي بندقية سـريعة. وكانت هذه الخسـائر كارثة للشـيخ سيديّ بابه الذي دفعه القلق إلى أن يطلب قوات لحمايته، وإلا اضـطر للذهاب إلى السـنغال. فكتب له كبلاني يطمئنه ووعده أن ينتقم له حين ما تعود البعثة إلى الترارزة، وقد زاد من حسـاسـية هذه الحادثة أن القبيلتين المتنازعتين من القبائل الموالية للفرنسيين، وكانت مجموعة افرير جان مشكلة من قبيلة أولاد بسباع"[145].

بعملاء مهرة في مسالك أرض تكانت والعصابة وضغائن شخصية للأمير استعان افرير جان بعميلين لمباغتة حي الأمير، وذلك ما تم له يوم1 فبراير 1905 يقول فريرجان "للبحث عن إيدوعيش أعطاني كبلاني دليلا يكن العداء لشخص الأمير بكار، اسمه محمد ولد جهر محارب من أهل سـيدي محمود وآخر يدعى بشـير من زوايا مسـومة.. وبين هذين سـيدي ولد الزين المبعوث برسالة إلى الأمير من طرف كبلاني"[146].

وكانت القوة التي أعدها الفرنسيون لهذه الحملة تتكون من "مائة وتسعة وستين مدفعا رشاشا وثلاثة ضـباط صـف.. و120 مسـاعدا زنجيا و46 بيضـانيا على الجمال.. ولدينا مدفع ثقيل ولكل من المساعدين الزنوج 100 رصاصة ولكل من المجندين السود 50 رصاصة وخمسين شريطا من الذخيرة للمدفع الثقيل ولدي قافلة من12 ثورا تحمل 250 كلغ من الأرز كافية لغذاء الأوربيين لمدة 15 يوما"[147].

---

145 . نفس المصدر 296

146 . فرير جان:

Commandent Frerjean : Mauritanie 1903-1911, Memoirres de randonnees et de guerre au pays des beïdanes. Edition karthala 22-2bouleverd aragi.75013, Paris, 1995.P 251

147 . فريرجان: المصدر السابق، ص 252

ودارت معركة شرسة جدا سقط خلالها الأمير وتحققت له أمنية الشهادة التي كان يتمنى حسب ما نقل بابه بن الشيخ سيديّ في كتابه "إمارتا ايدوعبش مشظوف" من أنه كان يقول إنه حصل حظا كبيرا من الدنيا وأنه يتمنى الشهادة التي نالها يرحمه الله وشكر مسعاه وتقبل منه عمله الصالح.

يقول فريرجان أنه وجده ملقى بين خيمتين وقد "أجهز عليه عمار ولد بوبكر السباعي.." ويقول" إن طوله كان مترين"[148] "وكانت معركة بو كادوم 1 إبريل هزيمة كاملة لقبيلة إيدوعيش وعلى وجه التحديد لفرع أبكاك منها، فقد وقع الكثير منهم في الكمائن التي نصبها لهم أعداؤهم من قبائل كنته وأولاد الناصر وأهل سيد محمود"[149]. وبعد هذه النكبة "أصبح الموقف في الترارزة يسوده الهدوء، كما قتل(الأمير) أحمد سالم ولد أعل"[150].

وتوجد رواية محلية عن استشهاد الامير تقول إنه لم يسقط في ساحة المعركة وإنما جرح ونقل لمكان آخر قضى فيه نحبه، وجاء في وثيقة تحمل رقم 9-15 G في الأرشيف الفرنسي في دكار، يخبر فيها كبلاني سلطات سين الوي الفرنسية بأنه وجد ضمن مقتنيات الامير بكار بن اسويد أحمد، بعد استشهاده عدة رسائل من الشيخ ماء العينين، تثبت وجود تنسيق واتصالات بينهما، وقد أشار افرير جان ، والرئد جليه إلى أن الشيخ حسنا بن الشيخ ماء العينين كان مع الامير قبل استشهاده بايام ، وبأنه وصل إلى ايدوعيش شحنة أسلحة مرسلة من قبل والده الشيخ ماء العينين.

ومما قال بعض القادة العسكريين الفرنسيين بعد استشهاد الأمير وفرحهم فإنهم مع ذلك لا يخفون اعجابهم بهذا "العدو اللدود" قال فرير جان قائد العملية " لقد طرحنا ارضا اقوى امراء البيظان بدون منازع، وطردنا من تكانت القبيلة التي تكتلت ضدنا، وقاومتنا بأقصى ما يمكن من القوة وكادت تهزمنا في موقعة ألاك 1903م وفي دركل 1905 م ".

---

148 . فرير جان، مصدر سابق نفس الصفحة

149 . وثائق ولد حرمة

150 . وثائق ولد حرمة.

أما النقيب غاستون فقال "جعل الزعيم المسن بكار بن اسويد احمد من نفسه روح المقاومة، وأخذ يبث رسله في كل مكان داعيا الى الحرب المقدسة، فجر الى صفه أمير البراكنة أحمد ولد سيدي اعل، وزعيم اشراتيت المخطار بن أحمد، ورفع بعض الزوايا كقبيلة اجيجبة السلاح في وجهنا". ويقول الرائد جيليه: "وكان من بين القتلى عدونا اللدود الحاذق المحارب، بكار بن اسويد أحمد، الذي تعاطى مع كافة الحكومات الفرنسية من عهد "الويس فليب" وحتى انه غلب فيدرب" ويقول ربينسون دافيد "يشكل بكار بالنسبة للمقاومة مركز ثقل فعلي وذلك الى غاية تصفيته في ابريل 1905 "[151]

بعد سقوط تكانت تنفس الفرنسيون الصعداء فالقبيلة الشرسة فقدت قائدها وخيرة محاربيها، وجيرانها ناصبوها العداء بل لم يرحموها حتى وقت محنتها كما رأينا وأصبحت البلاد مفتوحة على مصارعها لقوات الاحتلال، فاستقبل كبلاني مباشرة المختار بن أحمد عيدة وابنه سيد احمد الطامعين في عرش آدرار، ومعهم أنصارهم بعض قبائل إيديشلي للتنسيق مع الفرنسيين من أجل انتزاع إمارة آدرار مجددا من الأمير الشرعي سيد احمد بن أحمد عيدة، وكان هذا الاتصال بداية تعاون كبير ستشهده المرحلة اللاحقة المتمثلة في خطة اجتياح هضبة آدرار.

مقتل كبلاني.. قراءة في الحدث

{إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون }

سورة النساء الآية 103

بعد الضربة القاسية التي خلفها سقوط الأمير بكار وما حاق بقبيلة إيدوعيش القوية التي ظلت حصنا منيعا وصخرة حطمت الكثير من محاولات الاحتلال، وأخرت كثيرا مشاريعه وأربكته إلى درجة أصبح معها مشلول الحركة، وفرضت على جيوشه الغازية مرات عديدة التوقف أو تغيير مساراتها، بل وتغيير خططها ،إضافة إلى كونها كانت تشكل ملجأ يأوي إليه المجاهدون من جهات عديدة، ويتحالف معها الوطنيون من المناطق الأخرى، مع تلك الضربة وما أعقبها من ضربات معنوية شديدة للمقاومة، دخلت البلاد مرحلة يمكن أن يطلق عليها

[151] ابراهيم بن علي بن بكار بن اسويد أحمد: مخلطفات من محاضرة في ذكرى تخليد معركة تجكجة بتواكشوط 2018م

الهدوء الذي يسبق العاصفة.. فقد أصبحت الأمور خطيرة جدا ومعقدة أكثر، و باشر الفرنسيون تشييد تحصينات حول مدينة تجكجة، ومراقبة طرقها تمهيدا لجعلها قاعدة انطلاق للزحف على آدرار، المنطقة التي تشكل النقطة المحورية لديهم في احتلال البلاد، والمنطقة الأكثر إثارة للقلق لوجود كبريات القبائل المحاربة والمعادية للاســـتعمار بها، كما أنها تمثل الخطوط الأمامية لدفاعات الشيخ ماء العينين الشخصية الدينية الأولى في المقاومة.

في مايو 1905 بدأ تنفيذ خطة قتل كبلاني (الداهية الحذر) من طرف المقاومة، فبدأت قصة نهاية الرجل الأسطوري في التاريخ الموريتاني الحديث، وكما جاء في الكتابات الفرنسية فقد تم ذلك عندما استطاع فتية أن يتسلقوا هضاب آدرار، ويسلكوا الأودية الوعرة، حتى تمكنوا من الوصول إلى تحصينات كبلاني المضروبة على مقر إقامته وسط معسكره بمدينة تجكجة.

وقد لخصت المؤرخة الفرنسية ديزري فيلمان الحادثة بالقول: "لعل أول ما يلفت نظر المرء حينما يقرأ تفصيلات الحادث هو بساطة الخدعة التي راح ضحيتها كبلاني، ومجمل ما حدث في مساء 12 مايو 1905 تمكنت جماعة صغيرة من حوالي عشرين شابا بإيحاء وإرشاد سيدي ولد مولاي الزين أن تندس داخل نطاق معســكر البعثة في تجكجة مســتغلة لحظة ســهو من الحارس، عند دخول سيدي ولد مولاي الزين وهو من أعيان مجلس الجماعة بصحبة أحد أتباعه المخلصـــين عبدي ولد امبارك، حاملين معهما قارورة مملوءة باللبن لكبلاني، كان من المعتاد وصولها كل يوم[152].

وفجأة دوت في المعسكر الذي كان يسوده الهدوء والنوم صرخة المهاجمين "الله أكبر"، والتي كان لها صدى أحدث جلبة وضوضاء، وعلى الفور بدأت الطلقات النارية، واتجه كبلاني نحو الجلبة صـــائحا على خادمه جالو أن يعطيه المســدس، ولكنه كان قد تعرض لنيران المهاجمين فاخترقت طلقة صدره، ومزقت طلقة أخرى الجزء الأمامي من ذراعه اليمنى، وزحف كبلاني إلى مكتبه حيث وجده مترجمه غارقا في دمائه، وأســرع الطبيب ولكنه لم يتمكن إلا من تخفيف ألم لحظات النزاع الأخير.

---

[152] قصة اللين هذه قلدها أحد المشاركين في العملية وهو المجاهد محمد ولد الصغير في مقابلة سجلها منه السفير محجوب بن بيه سنة 1977.

وسـارع الضـباط نحو جنودهم وجمعوهم، لكن ضـوء القمر لم يكن كافيا فتعذر التمييز بين الموريتانيين المتعاونين، وبين المهاجمين الذين حاولوا الفرار من المعســكر بعد أن أفرغوا رصـاص بنادقهم، بعد فترة قصـيرة من القتال المتلاحم، وحينما هدأت طلقات الرصـاص سرى خبر مقتل كبلاني، وأسرع افرير جان باعتباره أقدم الضـباط باتخاذ إجراءات سريعة للدفاع عن المعسـكر، وتمكن بمعاونة المترجم أبو المقداد[153] ومحمد المختار رئيس قبيلة كنته من التعرف على جثث المهاجمين، التي سقطت في الموقع، وكانوا كلهم تقريبا من الشبان، وتعرف المترجم ومحمد المختار بسهولة على جثة رئيسهم بسبب السيف الذي كان الملازم إيتفان قد انتزعه منه أثناء القتال وطعنه به في بطنه وكان هو سيدي الصغير أحد شيوخ الطريقة الغظفية"[154].

وقد حملت التقارير التي أعدها كل من : النقيب فرير جان الذي تولى مســؤولية البعثة بعد مقتل كبولاني، ، والنقيب جيرارد، والملازم اتيفان ، والإداري كولومبالي مفوض الشؤون الوطنية، والدكتور طبيب القوات الإســتيطانية كومبوري موفلي، والإداري بير آرنو نائب مدير الإدارة المختلطة،تفاصيل أكثر دقة وتماسكا من روية فيلمان، حيث اتفقوا على وقت الهجوم وقلة عدد المهاجمين وشجاعتهم النادرة، وعدد قتلى الطرفين وبقى الاختلاف في التفاصيل الواردة في كل تقرير حسب تخصص معده ومكان وجوده أثناء العملية وهذه فقرت مما ورد في تلك التقارير.

تقرير الملازم اتيفان

" في يوم الثاني عشر من مايو1905 عند الساعة التاسعة والنصف مساء، كنت في الجزء السفلي من المخيم حيث مقر الإقامة على تلة، حينها انطلقت رصـاصـة، وتلتها مباشـرة عدة رصاصات أخرى في نفس الوقت مصحوبة بعدة صرخات. ..وقعت المعركة بالقرب من البوابة الرئيسـية. اتجهت إلى هناك، و فجأة ظهر عنصـر من البيظان أمامي على بعد مترين، وبيده سيف و ضربني به على الرأس.(سيدي بن مولاي الزين) لم تكن الضربة موجهة بشكل جيد..

---

153 ـــــ دود سك المعروف بأبي المقداد ولد في سلوى عام 1862-1943 أنظر : محمدو بن محمدن وثائق من التاريخ الموريتاني منشورات المعهد الإفريقي، الرباط 2002م، ص: 112-113.

154 .فيمان : ص 174
Mme genvieve desire vuillmih : Contribution a l'Histoire de la Mauritanie Edition c/Afrique, Dakar, 1961.

بطلقة واحدة من مسدسي طرحت المهاجم أرضا، وواصلنا التقدم نحو البوابة الرئيسية.وقبل أن نصلها أطلق أحد عناصر البيظان رصاصة في اتجاهنا لكني قضيت عليه بطلقتين من مسدسي (أحمد بن هنون)[155].

وجاء تقرير الطبيب كامبورى موفلى مفصلا عن الاصابات التي قتلت كبلاني ، وكذلك اصابات بقية القتلى والجرحى إضافة إلى اسمائهم وذلك على النحو التالي:

'أخبروني بأن السيد الأمين العام كبولاني مصاب بجروح، فتنقلت إليه مباشرة لأجده في زاوية غرفة الأكل بالإقامة، وكان ملقىً على الأرض منطويا على نفسه دون حركة ويتنفس بصعوبة بالغة ولا يتكلم ، وكانت ملابسه ملطخة بالدماء ومتسخة بالتراب، خصوصا على مستوى الظهر والذراع الأيسر، ومن أجل وضعه بشكل أفضل ومن ثم خلع ملابسه قمت مباشرة ببسط حصير ممزق على الأرض كنت نزعته من النافذة ، ومن ثم وضعته عليه، وتوخيا للسرعة وتجنبا للحركات غير المقصودة تمت إزالة آثاره باستخدام مقص.

بعد وضعه على السرير لاحظنا أن السيد كبولاني يعاني من إصابتين إثر طلق ناري : الأولى في الطرف السفلي للذراع الأيسر،دخلت القذيفة مع الحافة الداخلية للزند لتسحقه تماما، وأما خروجها فيمثله التقرح الكبير للأنسجة في الجانب الأمامي للساعد من حوالي 10 إلى 12 سم في الإتجاه العمودي.

الثانية في الجزء السفلي من القفص الصدري، الذي اخترقته قذيفة بحوالي 8 سم فوق حلمة الثدي من الناحية اليسرى، وقليلا إلى داخل الرأس السفلي للحلمة لتخرج بحوالي 12 سم فوق رأس عظم الكتف من الناحية اليمنى، خارجة قليلا عن الخط السفلي عموديا من هذه المنطقة.،وعلى الفور قمنا بالتضميد الضروري،.خلال هذه العمليات لم يتفوه السيد كبولاني إلا بكلمات قليلة : فقد عبر عن خطورة وضعه وقد سمعته يقول مرتين:"آه إني أموت" وكان يحترق ألما ويعبر عن ذلك بقوله:"أزيلوا عني هذا الحمل".بعدها ازداد الضيق والضعف بشكل ملحوظ وأصبح التنفس

---

[155] تقرير الملازم الثيفان ترجمة محمد سالم بن عليه.

بالغ الصعوبة،ولم يكن حينها قد تبقى من حياة السيد الأمين العام إلا لحظات قليلة لتأت النهاية بعد حوالي نصف ساعة من الواقعة.

اما قتلى الاحتلال فهم:

اكزافيي كبولاني	قائد بعثة الاحتلال
أنكي كوليبالي	قناص
مكاناً جارا	قناص
ابرا جافور	جمالة (المشاة)
موسى بوبكار	جمالة (المشاة)

جرحى القناصة:

ممادو دانمبلى	عريف قناص
ممادو عمار	قناص
يابا جالو	قناص
أمادو تراورى	قناص
كونى تراورى	قناص

جرحى الجمالة:

الملازم اتيفان	قائد الجمالة (المشاة)
ديمبا بيدي	جمال (المشاة)
عثمان لي	جمال (المشاة)
فيلي كيتا	جمال (المشاة)
أخر لم يذكر التقرير اسمه	جمال (المشاة)

تقرير النقيب جيرارد:

كان كابولاني ملقىً على الأرض. قمنا بوضعه على سريره لتقديم الإسعافات الاولية له، كان ذراعه الأيسر وصدره مخترقان بشكل كلي، ورغم إصابته فقد حافظ على هدوئه، وكان يتكلم محددا منطقة الكبد التي كانت تؤلمه بشكل خاص، قائلا عدة مرات للدكتور كامبوري موفلى:"أنزع مابي"ثم يقول" يا دكتور, أرجوك أريد أن أنام " قام الطبيب بسقيه جرعة من الآسبيرين، وفي حدود الساعة العاشرة أغمض عينيه وتوقف عن الكلام، وعند العاشرة والنصف لم يعد يتحرك نهائيا وبدأ جسمه يبرد جزئيا.

تقرير الإداري بير آرنو

"وسط الرصاص, الذي كان يُصب من كل ناحية، كنا نبحث عن رئيس البعثة، ولما مررت أمام كوخه ناديته فظهر فجأة في عتمة الغرفة مسندا يديه على الباب، قائلا بصوت ضعيف لكن بشكل هادئ " السيد آرنو إني ميت, قتلني البؤساء" ثم سقط غارقا في الدماء، فأسندته وأنا أنادي من أجل الإسعاف، إلا أنه سقط بين ذراعي الملازم شيري، وصل الطبيب مسرعا ومده على الأرض ثم قمنا بخلع ملابسه، كان مصابا برصاصة اخترقت الجذع والمعصم الأيسر الذي مُزق بل سحقته الرصاصة تقريبا ، فلم يكن من الممكن أن يقاوم الجروح.

تقرير الإداري كولومباني

"دامت المعركة خمس دقائق ،كأقصى تقدير وبانتهاء تلك المدة تمكنت من الوصول الى السيد كبولاني ، كان ملقىً على الارض في الكوخ (2) على يسار بوابة الدخول ، وقد اسند الملازم شيري راسه ، أثناء ذلك وصل جميع الأوروبيون ليلاحظوا خطورة اصابة كبولاني الاخيرة، ربما كان ومنذ اللطلقات الأولى مستندا على حائط السور عند النقطة (p).

أما تقرير النقيب افرير جان الذي تولى المسؤولية بعد مقتل كبولاني فقد وردت فيه تفاصيل كثيرة جدا، وإن كان لافتا فيها حديثه عن شجاعة البيظان ، وتطرفهم الديني الذي يرى أنه الدافع لهم. " وإذا أخذنا في الاعتبار وحشية الهجوم والشجاعة الأسطورية للبيظان قليلي العدد الذين لبوا دعوة سيدي ولد مولاي الزين فإنه يبدو أننا في مواجهة تطرف إسلامي واضح [156]"

---

[156] تقرير فرير جان عن عملية تجكجة ترجمة محمد سالم بن عليه.

تقرير النقيب افرير جانّ

في تلك اللحظة لم يكن أحد يعرف مكان وجود السيد كبولاني، ولم يكن ذلك ممكنا إلا بعد وقف إطلاق النار، ليتم التعرف على ما أصاب السيد الأمين العام.فبعد أن انتهى السيد **شيري** من المهاجمين تمكن من العثور على السيد كبولاني،داخل الكوخ رقم (2) جريحا وملقى على الأرض ورأسه متجه إلى الخارج ، وكان **صمبا با** هو الآخر قد بحث عنه خلال المعركة ليصل هو الأخر إليه بعد الملازم شيري بقليل، رغم أن جراحه كانت قاتلة وكان يعرف ذلك,فقد تعرف السيد كبولاني على مخاطبيه وتساءل عما إذا كان أحد الأوربيين قد أصيب،ورغم الاعتناء به من طرف الدكتور كامبوري موفلي,السيد آرنو,السيد كولومباني والنقيب جيرار ,فلم يكن باستطاعتهم فعل الكثير ومن ثم جاء كل الأوربيون لكنهم فقدوا الأمل بعدما أدركوا حجم إصابته.

تقرير الجنرال فيرو.

جاء تقرير الجنرال فيرو القائد الأعلى لمجموعة افريقيا الغربية بعد تقييمه لتقارير قادة البعثة محملا اياهم المسؤولية في كل ما حدث، كما أوصى بأن لا تتم الموافقة على ترقيات الضباط الذين شاركوا في العملية، والتي طالب بها النقيب فرير جان، وكذلك منح أفراد من البعثة أوسمة.

" توصلت من طرفكم بتقرير النقيب **فريرجان** حول مفاجأة تجكجة، وتريدون انطباعي حول هذا الحادث المؤلم.لقد درست الوثيقة بعناية وكذلك الوثائق المرفقة بها ولي الشرف أن أحيطكم علما , من خلال مايلي, بالملاحظات ذات الطابع العسكري والتي استقيتها من سرد الأحداث :

أ- تقييم الإجراءات العسكرية المتخذة يوم 12 مايو:

تمت مباغتة معسكر البعثة بشكل كامل يوم12 مايو من طرف حفنة من البيظان المتطرفين، وتم استغلال هذه المباغتة وأعطت النتائج المتوخاة من طرفهم، ليس فقط لأنه لم تكن هناك إجراءات عسكرية حقيقية يمكن بواسطتها تجنب مثل هذا الاحتمال، وإنما لأن كل قادة العناصر المكونة للبعثة ,كل فيما يعنيه, أهمل اتخاذ أبسط الإجراءات المطلوبة للحماية المباشرة ، بالاحتياطات الأمنية التي كان يجب اتخاذها[157]".

---

[157] تقرير اللواء فيرو ترجمة محمد سالم بن عليه.

وعن الترقيات والمكافآت قال: " انطلاقا من ذلك, لا يمكنني أن أقبل بأن يكون القادة ,المسؤولون أخلاقيا عن المفاجأة ، وما نتج عنها من نتائج كارثية,الملازمان (شيري وأتييفان), محل مكافاة أو تقدير كما يريد النقيب فريرجان في تقريره".

أما الرواية الوطنية للعملية فيرويها الاستاذ الباحث في تاريخ المقاومة محمد سالم بن عليه[158] بالقول: إن العملية بدأت فصولها برؤيا للشريف سيدي بن مولاي الزين، (وهو متصوف حتى الثمالة، لم يألف حمل السلاح ولم يفترش السروج والسبح على صحوات الجياد، ولم يتعود الكر ولا المراوغة الماهرة لعدو متفوق عدة وعتاداً).

بهذه الخلفية والوضعية وفجأة وبغريزة حب الشهادة وجد هذا البطل نفسه في قلب الاحداث ملبيا النداء الوطني والديني، افصح لشيخه الشيخ محمد محمود بن الشيخ الغزواني البوساتي [159] أنه رأى في المنام أنه قتل ثعبانا له رأس أسود، لم يأت تفسير الشيخ عرفانيا محملا بتأمل داخلي يرمز إلى أن المريد قد ترقى في الطريقة، وانتقل من مرتبة كانت النفس فيها مولعة بزخارف ومتع الحياة الدنيا إلى مرتبة تسمو بها عن الأدران، وانه تغلب على بعض النزوات النفسية،أهداه الشيخ سيفا بكل مايرمز له في الثقافة الجهادية، فهم المريد مراد شيخه، وكما هو معلوم فإن للرؤيا مفعول خاص في وجدان المسلمين عندما يتعلق الأمر بالغيبيات وتشحيذ العزائم للجهاد.

أطلع الشريف خواص خواصه وثقاته من قبيلة إيديشلي [160] بأنه يريد منهم المساعدة على قتل الغازي كبولاني، فاستجابوا دون تردد وانطلق الركب المكون من الشريف وابنه عبد الرحمن، وبن أخيه العربي بن زيدان، وخمسة عشر مجاهدا من فخذ أهل التناكي من قبيلة إيديشلي ذات المكانة المشهورة في حمل السلاح، والشجاعة والشهامة، إضافة إلى رجلين من قبيلة أولاد ادليم فخذ الشباهين، ورجل من أولاد غيلان" أي أنهم من حملة السلاح" .

عبر المسالك الوعرة بين آدرار وتكانت، وبمحض الصدفة التقت المجموعة برجلين هما: محمد بن الصفرة، وأحمد مولود بن الميلح، وانضما إليها، وعلى مشارف تجكجة التقاهم سيدي بن

---

[158] الاستاذ محمد سالم بن عليه نائب رئيس رابطة تثمين تراث المقاومة في برنامج تلفزيوني بثته قناة دافا في يونيو 2015 في ذكرى عملية تجكجة

[159] توفي الشيخ محمد محمود ولد الشيخ الغزواني بمكان يسمى (المرفك) قرب أوجفت بولاية آدرار .

[160] من كبريات قبائل منطقة آدرار بالشمال الموريتاني .

بوبيط من فخذ أهل التناكي أيضاً، كان معتقلا في زنزانة كبلاني، رسم لهم الثكنة وبرنامج كبلاني المسائي مما أفادهم كثيرا.

ومما قال إن هناك مخزنا للاسلحة قرب غرفة نوم كبلاني، وجاء في تقرير القائد الميداني الملازم جيرار ما يؤكد ذلك حيث قال " من وجهة نظري فإن المهاجمين كانوا على دراية تامة بعادات السيد كبولاني، أو ربما دلهم من يعرفها، والحقيقة أنه كان كل مساء يتك على حائط السور البالغ طوله متر و30 سنتمتر ، والذي يتجاوزه بشكل ملحوظ. ليتبادل أطراف الحديث بشكل مطول مع السيد **آرنو** أو معي أنا. غير أنه ليلة الجريمة لم يكد يقترب من الحائط حتى انطلقت أولى الرصاصات لأني لم أكن قد قطعت غير عشرة أمتار بعد أن غادرته.

كان على المهاجمين الذين بالطبع جاءوا لاغتياله وليس لمهاجمة المعسكر. أن يتحينوا اللحظة المناسبة لتحقيق هدفهم ، أي اللحظة التي اقتربوا فيها من السور وهذا بالفعل ما فعلوا. كان من أول من أصيبوا، إن لم يكن الأول،بالقرب من الحائط لأن ذراعه كان لا يزال على صدره في الوضعية التي اعتاد عليها. هذا ما يظهر من مكان الجرحين في الذراع الأيسر و في الصدر و الذين قد يكونان ناجمين عن نفس الرصاصة[161]".

لم يكن الشريف سيدي محاربا ماهراً على ما يبدو،فقد كاد افشال العملية بإصراره على الهجوم رافعا صوته بالتكبير ، اقنعوه بخطة بديلة، وهي أن يكون التكبير متزامنا مع اقتحام البوابة وهو ماتم، وقد أثر تكبيره على سير المعركة نظرا لحده من عنصر المباغة .

وقد تحدث تقرير مفوض الشؤون الوطنية الفرنسي كولومباني عن عنصر المباغتة بالقول: " في يوم الجمعة 12 مايو عند الساعة التاسعة مساء، كنت نائما في الكوخ A كان كل شيء هادئاً كالعادة، ولم تصل أي تقارير استخباراتية ذلك اليوم تفيد بوصول مجموعة مسلحة معادية لضواحي تجكجة، وكانت الاحتياطات الأمنية قد اتخذت بشكل عادي،في حدود التاسعة وخمس وعشرين دقيقة انطلقت الرصاصة، ...سمعت اطلاقا كثيفا للنار.. فقد تمكن عناصر البيظان من دخول المعسكر.. سمعت بوضوح صيحات التكبير "الله أكبر" و "أخبط فديار"أي اطلقوا النار في المنازل[162]"سقط ثلاثة من القادة بسرعة على يد النقيب اتيفان وهم الشريف سيدي بن مولاي الزين، وأحمد بن هنون، والكوري بن الشويخ.

---

[161] تقرير الملازم جيرارد ترجمة الباحث محمد سالم بن أحمد طالب بن عليه.

[162] تقرير مفوض الشؤون الوطنية الفرنسي كولومباني ترجمة الباحث محمد سالم بن أحمد طالب بن عليه.

اقتحم الشاب الاعزل من السلاح سيدي أحمد بن اعميرة، المخزن، وكان كبلاني قد سبقه له فانقض عليه،غير بعيد منه احمُود بن اعليه، صـــرخ به بن اعميرة قتلني كبلاني، فقال له لم اميزك، وعلى وميض الرصـــاص ميز كبولاني، اطلق عليه النار من مكان قريب على جنبه الأيسر[163] وسأل الشاب هل مات الكافر؟ فأجابه نعم لم تعد رجلاه قادرتين على حمله. وسجل أحمد بن جيه أحد المشاركين في المعركة مقتل كبولاني على يد احمُود بن اعلية في قصيدة من الشعر اللهجي بالقول:

شايع زاد أُشيع لكبيل	تعطيه الرحمه يالجليل
أُمارت عنو زاد إرجيل	أرانك يعين شفتِ
شّغلّ تو إمجين في الليل	والله أل منوُ غِرتِ
أل نداه عليه إيشيل	ل الدار إيجِ متنوتِ
إكتل كبولاني وكبيل	فِتِ يالحراس إفرغتِ
هذا زاد اعل ذي الحيل	والله ياعينِ مازدتِ

لائحة بأسماء منفذي عملية تجكجة 12 مايو سنة 1905 [164]

الشهداء:

سيدي بن مولاي الزين	الشرفاء آل مولاي الزين
أحمد ولد هنون	ايديشلي فخذ اهل التناكي
الكوري بن اشويخ	أولاد دليم فخذ اشباهين
احمد مولود بن اميلح	ايديشلي فخذ أولاد هنون
احمد بن اعميرة	ايديشلي فخذ اهل التناكي

---

[163] وأكد قتل حمود بن عليه لكبلاني محمد ولد الصغره في مقابلة أجراها معه السفير المحجوب بن بيه سنة 1977 واستمعت إلى المقابلة في منزل سعادة السفير سنة2015 وقد كرر ولد الصغره قتل ولد عليه لكبلاني ثلاث مرات في الشريط في سياقات مختلفة.

[164] معلومات عن بعض الابطال المشاركين في معركة تجكجة :

الجرحى من المقاومة:

للّة بن سيدي بن مولاي الزين	الشرفاء (أهل مولاي الزين)
السالك بن الدد	إيديشلي (فخذ أهل التناكي)
احمود بن اعليه	ايديشلي (فخذأهل التناكي)
سيدي أحمد بن اعميرة	ايديشلي (فخذ أهل التناكي)
محمد السالك بن السالك الملقب اجاس	ايديشلي (فخذ أهل التناكي)

بقية المشاركين الذين لم يصابوا

عبد الرحمن بن العبد	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
محمد بن اجيه	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
سيدي احمد بن جيه	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
محمد المحتار بن سيدي بن بوبيط اندومان	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
موسى بن سيدي بن بوبيط	(ايديشلي اهل التناكي)
خطاري بن احمد بن بوبيط	ايديشلي فخذ(اهل التناكي)
سيد احمد بن بوبيط	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
احمد سالم بن عركاب	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
سويدات بن بياه	ايدوعلي فخذ (اهل عبدي)
محمد بن الصغره	ايديشلي فخذ(امحيصر)
محمد بن ميلود بن لفرك	أولاد غيلان فخذ (أهل لفرك)
محمد المختار بن امحيمد	أولاد دليم فخذ (اشباهين)
محمد بن الشيخ بن بوبيط	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
محمد بن بهناس	ايديشلي فخذ (اهل التناكي)
العربي بن مولاي الزين	الشرفاء (آل مولاي الزين)

لقد مات الغازي كبولاني، وكانت الخطة تقضي بأن من يقتل كبلاني يصرخ معلناً موته حتى ينسحب المجاهدون، وقد تم العثور على الجريح أحمد ولد أعميرة حيث جاء في تقرير افرير جان:" يوم 15 تم إرسال دوريتين قويتين راجلتين؛ إحداهما من جمالة فريرجان والأخرى من الجمالة الجزائريين، لاستكشاف النخيل شمال وجنوب المعسكر، جابت الدوريتان شعاع دائرة من حوالي 6 كلم ولم تعثرا على أي شيء يمكن الاشتباه فيه، وفي المساء وصل من بلدة الرشيد, الواقعة على بعد 30 كلم تقريبا إلى الشمال الغربي، عبد مملوك لمحمد المختار زعيم كنتة الحوض, والذي هو أحد حلفائنا ويعيش في معسكرنا.أخبرنا العبد أن أحد العناصر الذين نفذوا عملية الثاني عشر يختبئ في كوخ غير مأهول في الرشيد وهو مصاب إصابة بالغة، وفي السادس عشر انطلقت دورية تضم حوالي عشرين من حلفائنا البيظان في اتجاه الرشيد للقبض

على الجريح ولتجوب تلك النواحي لمعرفة إن كانت العصابة لازالت موجودة هناك, إلا أن هذه الدورية لم تجد أثرا للعصابة لكنها عادت بالجريح يوم 17 صباحا وقد ألقي عليه القبض وسلاحه بيده وأتت ببندقيته[165]»

أسئلت المحكمة للمتهم:

س-كم مهاجما خرج معك؟

ج-لا أعرف, العدد لكن العشرين عنصرا كلهم وصلوا إلى البوابة.

س-وكم دخل منهم؟

ج-الشريف وابنه وبعض الشباب

س-ماهي آخر تعليمات الشريف؟

ج- طلب منا ألا نقول شيئا وأخبرنا أنه سيسير في المقدمة صحبة ابنه، وأنه يجب علينا الدخول بمجرد سماعنا للتكبير. وزيادة على ذلك وعدنا بأن لا يرانا أحد قبل أن نصل إلى البوابة.

س- ماهو المسار الذي اتبعتموه من النخيل إلى البوابة؟

ج- يمكن أن أريكموه.

وهنا قررت المحكمة الذهاب بالمتهم للتعرف على المسار الذي اتبعته العصابة.

ولما لم يبق للمتهم أي شيء يقوله للدفاع عن نفسه, تم إنهاء استجوابه ووقع أعضاء المحكمة مع كاتب الضبط والمترجم.

نص الحكم:

بعثة تكانت-آدرار

حكمت المحكمة العسكرية المجتمعة بموجب أوامر القائد المؤقت للبعثة بتاريخ 17 مايو 1905.

في يوم السابع عشر مايو عند الساعة الرابعة ظهرا وتنفيذا لأمر قائد البعثة وفي التاريخ الآنف الذكر فإن المحكمة العسكرية المكونة من:

السادة:

- فريرجان, نقيب في المدفعية الاستيطانية خارج الإطار ..... رئيسا

---

[165] تقرير الرير جان

- جيرار, من الهندسة, خارج الإطار .....عضوا

-آرنو, الإداري المساعد بالإدارة المختلطة, خارج الإطار ..... عضوا

-دوبافينيون, ملازم من الخيالة, خارج الإطار .....عضوا

- شيري, ملازم من الكتيبة الأولى للقناصة السينغاليين .....عضوا

وكنواب:

السادة:

-جيكستل, مساعد في الكتيبة الأولى للقناصة السينغاليين .... كاتب ضبط

-بولمقداد ..... مترجم رئيس

عقدت جلسة في تجكجة وتحديدا في معسكر بعثة تكانت-آدرار تحت الرئاسة المؤقتة للنقيب فريرجان من أجل محاكمة المدعو أحمد ولد أباه ولد أعميره,من أهل التناكي المتهم بالقتل والتآمر للاغتيال والهجوم المسلح على وحدة فرنسية.

وبعد استماعها للمتهم في دفاعه عن نفسه فقد حكمت المحكمة على المدعو أحمد ولد أباه ولد أعمير من أهل التناكي, والذي تمت إدانته بالإجماع بالقتل ، بما تنص عليه الشريعة الإسلامية !! في حق المجرمين وسيتم شنقه.

وقد انقذ هذا البطل سكان مدينة تجكجكة من مذبحة حيث اتهمهم الفرنسيون بالمشاركة في العملية، لكن أحمد بن أعميرة أخبرهم بأن لا علاقة لأهل المدينة بالعملية ولا علم لهم بها، وقد اعدموه شنقاً بعد الاستجواب ، وبوحشية قام الفرنسيون بإحراق جثث الشهداء "رفض النقيب فرير جان أن يدفن الشهداء، ولم يكتف بهذا فقط بل أقدم على عمل اجرامي وهمجي...ذلك أنه جعل الشهداء جميعا في حفرة وأضرم عليهم النار[166]".

هذه تفاصيل ما حدث حسب الروايتين المحلية والفرنسية، حيث اختلفتا فقط في تفاصيل ما حدث في كل جانب، وبغض النظر عن ما تزخر به المصادر الفرنسية من التحامل على الطائفة الغظفية والتشهير بها، وتحميل الشيخ ماء العينين مسؤولية تحريض هذه الجماعة ودفعها إلى قتل كبلاني وهذا امر لا يُبرأ الشيخ ماء العينين فيما نعتقد نفسه منه.

---

[166] الشيخ المختار اخيار بن الشيخ ماميدا :الشيخ ماء العينين علماء وامراء في مواجهة الاستعمار الاوربي ط2 مطبعة المعارف الجديدة الرباط 2011 ص 158

"كانت أحاديث الشيخ ماء العينين التي نقلها عنه نجله الشيخ حسنا معلم الأمير سيدي احمد بن عيدة تظهر كبلاني على أنه عدو يجب تحطيمه، لأنه أدخل غير المؤمنين إلى بلاد الإسلام وأن موته سيوقف تقدم الفرنسين"[167] .

رغم الحملة الشعواء هذه وما قام به الكتاب الفرنسون لتفسير ما حدث فإن قتل كبلاني فيما نعتقد كان هدفا لكل المجاهدين، لأنه رأس الحربة في التوغل الفرنسي ومهندسه، وقد أصبح قتله أكثر إلحاحا بعد استشهاد الأمير بكار من أجل رفع معنويات المجاهدين التي لا شك أنها تأثرت، كما أن مقتل كبلاني شكل خلطا لأوراق الفرنسين وأصبح مصير حملتهم معلقا، وتنامت الأصوات الداعية إلى الانسحاب من "أرض البيضان" خاصة في صفوف طبقة التجار المتضررة من تأثيرها على حركة التبادل التجاري مع البيضان، وهي طبقة معارضة أصلا لسياسات كبلاني في احتلال هذه الأراض "الجرداء" التي يدفعون لقادتها أتوات غير مجحفة مقابل ضمان تدفق السلع وبشكل أقل خطرا من هذه المغامرة غير المحسوبة.

وحتى نكمل الصورة، سنقوم بتقديم سيناريو نحاول من خلاله رسم لوحة عن الطرف الآخر الغائب الحاضر –أي المقاومة– التي لا يوجد ما يكفي من الوثائق حول ما يمكن أن تكون قد قامت به من أمور تساعد على معرفة تراكمات مجهودها من أجل إنجاح عملية قتل كبلاني، لأن ما يشاع وما يكتب عنها ليس كافيا كي تتم الصورة.

فلا "تزمت الغظف"، كما درج عليه الفرنسيون في كتاباتهم، ولا مواعظ أهل الشيخ ماء العينين التحريضية كافيين لقتل كبلاني حسب ما نعتقد، إذ لا بد أن تكون عناصر معقدة جدا تضافرت لذلك، عناصر تحتاج دراسة وتأملا لتفكيك بعض الرموز الغامضة، والإيحاءات الخفية، في بعض جوانب الحادثة، إن من أول ما ينبغي التفكير فيه هو التساؤل عن دواعي انتداب سيدي بالذات للمهمة فالأمر ليس سهلا وليس مرتجلا كما يُظن وليس رؤيا فقط تضحى قبيلة إيديشلي من أجلها وتتعرض لخطر الابادة.

ثم إن اختراق تحصينات تجكجه، ومخالسة عيون الفرنسين الساهرة، والإفلات من رقابة أذرع العملاء المنتشرين في كامل المنطقة، كل هذا يجعل عملية بهذا الحجم وهذا النجاح، ليس أمرا

167 . فليمان، المصدر السابق، نفس الصفحة.

صعبا وشاقا فحسب، بل إنه يشبه المستحيل، فكل هذه التعقيدات تستدعى التعامل مع الحدث بشيء من المرونة وهذا ما يجعلنا نعتقد أن اختيار سيدي ممثلا لحركة الغظف من أجل القيام بهذه المهمة لم يكن اعتباطيا أو مرتجلا، بل كان مدروسا من مخططين متمرسين، لهم خبرة واسعة في رسم استراتيجيات زمانهم، فاختيار الرجل المناسب للتحرك في الظرف المناسب، عمل ذكي وملفت نابع من دراية كبيرة ومعرفة دقيقة بالأوضاع.

فعلى مستوى المرجعية الفكرية تتميز الطريقة الصوفية الغظفية بالغلو في الزهد حتى أن مخالطتهم للمجتمع محدودة، ومحاطة بعدم الاكتراث بالأمور العامة في مستوياتها الدنيا حسب ما يظهر من سلوكهم، فأحرى مخالطة الكفار، لذلك فإن هذه النزعة الانزوائية عن الناس والرهبانية المفرطة تجعلهم الأقدر على الوصول إلى الهدف المنشود، فالعيون لن تراقبهم بجدية، كما أن عدم تعلقهم بالمنافع المادية وزخارف الدنيا المتجلي في تعاطيهم مع تكاليف الحياة (كما تترجمها مواعظهم) كل ذلك يجعلهم الأبعد من الاستدراج من طرف الفرنسيين، هذه الخصال لا تخفى على قادة الجهاد وهم بحاجة إلى من يجسدها، وبذلك فهم خير من يتولى تنفيذ العملية في هذا الظرف بالذات الذي تعرف فيه المقاومة ضغوطا عسكرية مكثفة من طرف الفرنسين لإتمام مهمتهم في الاحتلال.

وكان رفقاء سيدي، هذه المرة وفي هذه الرحلة متميزين عن المألوف في تلاميذ الصوفية في مثل هذه الرحلات من حيث الكم والكيف، كم تجاوز العشرين وكيفُ في انتمائهم القبلي، فهم من قبائل مشهورة بحمل السلاح ، وهذا يمكن أن يشكل دليلا آخر على أن العملية خطط لها من طرف الجماعة التي تشرف على المقاومة.

كما يمكن ملاحظة أن أصحاب هذه الخطة كانوا يعون القصد من انتماء أفراد الفرقة، فقبيلة إديشلي التي ينتمي لها جل منفذي العملية في تلك الفترة كانت علاقات بعض فروعها مع أمير آدرار الشاب المجاهد سيدي أحمد بن أحمد عيده غير ودية[168] بل كان البعض منهم أنصارا لعمه الأمير المختار بن عيده المتحالف مع فرنسا، ومن هنا فإن هذا الاختيار جعل المقاومة تدفع الشبهة عن منفذي العملية، إذا ما وقع فشل وألقي عليهم القبض، فسيكون التنصل من

[168] للمزيد من الإطلاع انظر كتاب إمارة آدرار للمؤلف بيير بولت

التهمة واردا للحفاظ على ولاء قبيلتهم على الأقل للأمير "غير الشرعي" الذي تدعمه فرنسا في وجه بن أخيه.

كثر هم الذين شـــاركوا في الحادثة كما نظن، وكثر هم الذين ذهبوا بأســـرار كثيرة عنها ولم يتركوا لنا ما نعتمده سوى إعادة قراءة الأحداث، أو الجزم بأن سيدي لم يكن لوحده ولا معبرا عن موقف شخصي أملته عليه أيديولوجيته الصوفية المشحونة بالعاطفة الدينية الجياشة الكامنة في اللاوعي والتواقة إلى الشـــهادة، وليســـت مكانته الكبيرة عند أهل التناكي كافية كي يقوموا بهذه المجازفة الخطيرة، نظن جازمين أن مجموعات كبيرة كانت معهم تقدم لهم الدعم المتاح في حدود المستطاع من أجل إنجاحهم، لأنهم يمثلون الإرادة الحقيقية للمجتمع.

وبدعم هذا الاســـتنتاج التحقيق الذي فتح افرير جان حول الحادث، وكان أول شـــيء لاحظه "أن الأوراق التي استولى عليها في خيمة الأمير بكار يوم معركة بوكادوم مع قبيلة إيدوعيش قد اختفت على إثر مقتل كبلاني، مما يوحى بوجود يد معادية في المعسكر نفسه.

لقد "اتضـــح أن الموقف المعادي الذي اتخذته قبائل آدرار يرجع إلى أن مجلس الجماعة تأثر تماما بنفوذ الشيخ حسنا ولد الشيخ ماء العينين ، الذي كان موجودا بين رجال قبائل إدوعيش في يوم معركة بوكادوم.. وظهر من التحقيق كذلك أن الشيخ ماء العينين هو الذي أشعل نار الحقد ضد كبلاني، وأن شيخ طريقة الغظف قد استجاب لتحريضه".[169] هذه الحادثة أعطت المقاومة دفعة جديدة، فشـــرع أمير آدرار في تهديد افرير جان بقطع رأســـه إن لم يُخل تجكجة التي بدأ تحصينها، ورد بعنف على رسائل الأمير.

هؤلاء شاركوا في قتل كبلاني.

الشريف العربي ولد زيدان[170]، اصابته يد غدر عند موضع "تامورت النعاج بولاية تكانت.

أحمود ولد عليه: شارك بعد معركة تجكجة في معارك أماطيل، شُمط، انجكان (مفلك كوميات) أكنى الصنادرة، اكليتت ايت مواليين، لتفتار، النعامية، أم لسنكل.

---

169 . قليمان :المصدر السابق، ص 174

[170] مجلة أخبار الجيش العدد 29 الصادرة في نوفمبر ديسمبر 2011م

توفى بعد سيطرة فرنسا وقبره في مكان يسمى "تاكنز" بلدية العين الصفرة قريب من طريق أطار تجكجة.

السالك ولد الدد: بعد عملية تجكجة شارك في معارك ، انيملان، الميناں، انجكان، لتفتار، اماطيل، شُمط، أم انحل.

سيد أحمد ولد اعميره بعد معركة تجكجة، شارك في معارك، شُمط، انجكان، لتفتار، النعامية، كصر البركة، تجالت حران، رك لفراك.

سيد احمد ولد جيه: بعد معركة تجكجة شارك في معارك، النيملان، شُمط، اماطيل، انجكان ، لتفتار.

محمد ولد الصفرة: بعد معركة تجكجة شارك في معارك ،أكتينت التيكويت، عكيلة النعجة، عاش الى ثمانينات القرن الماضي.

أحمد سالم ولد عركاب، شارك في عملية تجكجة وبعدها في معرك، النيملان ، لتفتار. أماطيل، شُمط.

محمد المختار ولد امحيمد، بعد معركة تجكجة شارك في معارك، انيملان، لتفتار، النعامية، أماطيل، شُمط، الميناں، أم لسنكل.

سوبدات ولد بياه: بعد معركة تجكجة، شارك في معارك، النيملان، لتفتار، النعامية، اماطيل، شُمط، الميناں، أم السنكل.

معركة انيملان.. تلاحم القبائل وحصار تجكجة ومعارك عديدة

حشدت المقاومة قواتها في العين الصفراء وأرسلت طلائعها في 3 يونيو 1905 استعدادا للهجوم، وأطبقت الحصار على تجكجة واندلعت المعارك من 3 يونيو إلى 24 منه، ورغم ضراوتها إلا أن المجاهدين لم ينجحوا في تدمير موقع تجكجة، وكان ذلك نصرا كافيا لفرير جان الذي حافظ على موقعه حتى وصله المدد مع قرار الانسحاب الذي مكنه من إنهاء المغامرة غير المحسوبة، والموقف الاندفاعي في مواصلة الاحتلال.

جاءت الرسائل تحمل قرار الانسحاب إلى تحصينات النهر وإنهاء ما أسموه "مغامرات كبلاني،" وكان المستوطنون في السنغال هم من يعارض التوغل ويضغطون من أجل أن لا يتم لأنه "مكلف ومحدود المردودية في مواجهة مقاتلين أشداء مندفعين ومتحمسين، بل ذهب

المستوطنون إلى أبعد من ذلك حيث نادوا بالعودة إلى سياسة دفع الأتوات والهدايا للأمراء كما كان في السابق من أجل الحفاظ على التبادل التجاري، وأن يظل الهدوء والسلم ساريين، وكانت الإدارة في كل من باريس ودكار، فيما مضى، متأرجحة بين الصراع المحتدم بين دعاة الاحتلال وبين دعاة الإبقاء على سياسة دفع الأتوات، وقد شكل مقتل كبلاني فرصة لأصحاب الرأي الأخير ووقف "المغامرات الحربية"، وذلك ما بعث به المفوض الجديد إلى افرير جان.

في المرات السابقة كان كبلاني كلما تعرض مشروعه للانتقاد أو العرقلة يعود إلى فرنسا ويستغل علاقاته الشخصية لإقناع السلطة المركزية، ويضغط المستوطنون والتجار من جانبهم لأنهم في الغالب دافعو تكاليف هذه المغامرات ولأنهم المتضررون من تبعات الأعمال العسكرية نتيجة تأثيرها على نشاطاتهم التجارية. وقد شنوا حملة انتقادات واسعة على سياسات العسكريين التي وصفوها "بالتوسعية الفاشلة" وذلك بعد حادث مقتل كبلاني وشعر العسكريون (كما ورد في رسائلهم) بالإحباط من تلك الانتقادات رغم كل ما فعلوا من أجل فرنسا حسب تقاريرهم.

أعيد افرير جان لأخذ "قسط من الراحة"، وتعالت الأصوات الداعية فعلا إلى وقف الاحتلال، وكانت هي الأعلى، وكادت تنجح لولا دخول عناصر جديدة على الوضع.. ومع ذلك لم ينتهز المجاهدون هذه الفرصة ولم يستغلوها جيدا فلم يواصلوا هجماتهم ولم يقوموا بشن غارات ولو رمزية، ولو حدث ذلك من التزارزة مثلا لشكل ضغوطا على الإدارة الفرنسية يجعلها تفتح معهم على الأقل حوارا ولأخذت الأمور منحى آخر لصالح المقاومة بسحب البساط من تحت أقدام الموالين، ولأحدث نقلة نوعية في مسار العمليات قد تدفع فرنسا (التي فقدت الحماس في هذه الفترة على الأقل) إلى تقديم تنازلات تقبل بموجبها بعضا من صيغ الاحتلال تكون بمواصفات تتلائم ووضع المنطقة وظروف أهلها وخصوصياتهم، غير أن الهدوء ساد قرابة سنة لتتجدد المعارك بعد ذلك بوصول أحد أقرباء ملك المغرب وهو مولاي إدريس، وهُوجمت تجكجة التي أصبحت قلعة منيعة للمرة الثانية، وكانت إزالة تلك القلعة على ما يبدو هدفا استراتجيا عند المقاومة نظرا لموقعها المتميز.

وقد شهد هذا الهجوم كذلك تحالفات جديدة دخلتها حتى القبائل التي كانت إلى جانب فرنسا ضد إيدوعيش، فتجمعت تحت قيادة هذا الأمير مجموعة من "خمسمائة مقاتل مسلحين جيدا،لم

يكن هذا الامير على قدر المهمة التي كلف بها فقد كان مغرورا وكانت منه هنات لزعامات وازنة، كان لها تأثير كبير على مجريات الامور، يقول الشيخ الطالب خيار بن الشيخ مامين " أخبرهم الأمير مولاي ادريس بأنه ينوي الهجوم على تجكجة، ولم يستشر أحدا من قادة الغزوة في ذلك، فقال له (الامير) عثمان بن بكار الرأي أن نبعث بعض الكتائب لتحتل كل المسالك المؤدية لتجكجة، ثم نضرب الحصار على الحامية، ونحول بينهم وبين الامدادات التي ستنجدهم، فإما أن يستسلموا، وإما أن يموتوا جوعا وعطشا،... نحن أصحاب الارض ولنا خبرة بالطرق والمسالك في هذه النواحي، وعندنا من التموين والماء ما يكفي لمدة طويلة، فرد عليه مولاي ادريس بكلام لا يخلوا من غلظة[171]" .

ولم يقف تجبر هذا الامير عند تحدي الأمير عثمان بل تطاول على الفقيه محمد الخضر بن مابي الجكني عند ما استعرض نصوصا ترشح رأي الحصار فقال له ادريس المغربي " أراك رجلا ثرثاراً تحشر نفسك في كل الأمور، وتتبجح بما تعرف من العلم، مع أن معرفتك مقتصرة على قشور الفقه، والأولى بك عدم الفضول[172]".

لا تتحدث المصادر عن جيش مغربي وإنما عن أمير مغربي ربما حضوره كان استجابة لطلب الشيخ ماء العينين المحتاج إلى سند سلطاني في وجه مؤيدي فرنسا الذين يرفعون راية أن لا جهاد إلا تحت إمرة سلطان شرعي، وهو كذلك رسالة لفرنسا من طرف سلطان المعرب أن له تأثيراً على الوضع في موريتانيا كي يقوي موقفه ضد الحضور الفرنسي في بلاده، وإلا فكيف لم يستطع هذا القائد أن يفيد المقاومة بأي شيء على المستوى العسكري بل كان وضعها قبله أحسن بكثير بل ربما لولم يأت لحققوا نتائج أفضل.

في أوائل شهر أكتوبر 1906 استطاع هذا الجيش إثارة موجة من الهيجان في نواحي تجكجة بعد أن حاصر الموقع الفرنسي.. ولكي يتخلص الكابتين من الحصار قام في 24 أكتوبر 1906 بإرسال قوة بقيادة الملازم أيندريه، ودي فرانسوا ومعهما 60 من الرماة السنغاليين و

---

[171] الطالب خيار بن الشيخ مامينا :الشيخ ماء العينين علماء وامراء في مواجهة الاستعمار الاوربي ج2 ص 183 ط2 مطبعة المعارف الجديدة الرباط 2011

[172] الطالب اخيار نفس المصدر ص 184

ثمانية من المجندين الموريتانيين، ومجموعة الموالين من قبيلة كنته بغرض تحطيم الحصار من جهة الجنوب للاتصال بالسنغال.

وبمجرد تحرك القوة الفرنســـية من موقع تجكجة أوقعت بهم قبيلة إيدوعيش وتكفل الدليل بتضـــليل الملازم فوقع في كمين يقوده الأمير عثمان بن بكار بن اســـويد أحمد عند إنييملان ولقي حتفه مع بعض من قواته أما دي فرانسو الذي تولى قيادة الباقين إلى الموقع الفرنسي فقد قتله أتباعه من قبيلة كنته، وانضـــموا إلى القوات القائمة بالحصـــار"[173]. واســـتشـــهد في هذه المعركة محمد المختار بن أحمد لبات، وعثمان بن عمر بن بكار بن اسـويد احمد، وعثمان بن الرســـول بن اعل بابي ومحمد بن بكار بن الهيبه بن اللب بن خنوف الانباطي، وعثمان بن الرســـول بن عمر بن بكـار بن محمـد خونـه، واحمـد بن محمـد قـال،و حميـاد بن محمـد عمار ،وحمادي بن بجار ،وغالي بن القاضي، وسيدي محمد بن البيضاوي، ومحمد الاغظف بن الشيخ بن الجودة، وأحمد بن الحسن بن مادي.

وفي الخامس عشر من أكتوبر وقع اشـتباك عند لتفتار بقيادة الشـيخ سـيدي محمد بن عبد العزيز اسـتشـهد فيه الذهبي بن عبد المالك، ومولاي الزين بن الذهبي مع سـبعة آخرين، وقتل من الفرنسيين ملازم وأربعة جنود.

وفي 23 أكتوبر 1905 وقع اشتباك عند للاكه قتل فيه ثلاثة ضباط فرنسيين، واستشهد فيه سيدي احمد بن البشير بن الحنشي، ومحمد عبد الرحمن بن محمد الفتح، وعبد الله بن سيدي احمد بن محمد الحنشي،وفي نوفمبر من نفس السنة حوصرت تجكجة واستشهد في الحصار سبعون وجرح مثلهم.

يوم لتفتار الثاني 26 نوفمبر استشهد فيه مجموعة على رأسها القائد الشيخ سيدي محمد بن عبد العزيز ، ومحمد عبد الله بن حبت، واحمد بن سيدي،ومحمد بن البخاري، ومحمد الشيخ بن أبنو، والشيخ محمد عبد الله بن محم عاشور.

---

[173] . وثائق ولد حرمه

ارتبطت هذه الحملة باســم الجنرال غورو، وهو جنرال متمرس قاد جيوش بلاده في أكثر من مستعمرة، شديد البطش يمكن أن يوصف بأنه "صليبي متعصب" فهو الذي وقف ذات مرة على قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق وقال كلمته الاستفزازية المتحدية لمشاعر المسلمين "ها قد عدنا يا صـــلاح الدين والصـــليب هزم الهلال ". وهو الذي اعتقل المجاهد الإفريقي الكبير ساموري توري في ساحل العاج وقاد جيوش فرنسا في تشاد المسلمة.. لم يتم اختياره لاحتلال موريتانيا اعتباطيا بل اختير كرجل المرحلة المناسب،فهو انتقامي حيث لم ينس مع مرور الزمن مرارة هزائم الصليبين على يد صلاح الدين منذ قرون على ما يبدو، فكيف ينسى مقتل مواطنه –كبلاني– قبل سنتين من حملته على يد جماعة من "المتصوفة" في قلب الصحراء وبوسائل أحسن ما يقال عنها أنها بدائية.

هذا الرجل صاحب الماضي السيئ ضد المسلمين في الكثير من الأماكن، اختير كي يكون رجل هذه المرحلة من تاريخنا الحديث،حيث ارتكب المجازر والمآسي في حق المواطنين العزل، بتأييد ومباركة بعض المشايخ، بل وبإلحاح بعضهم بضرورة تعجيل مهمة الاحتلال، إنه موطد أركان الاحتلال الفرنسي بقوة السلاح في أرض البيضان.

اختير غورو كي يكون مفوضـــا عاما لموريتانيا خلفا للكونتل مونتانيو كابيديو ابيوســك على إثر الرسالة المؤرخة بـــ 11 يوليو 1907 من "روم" الحاكم العام لإفريقيا الغربية والتي ألح فيها على التعجيل بتعيين الحاكم الجديد واختار أن يكون غورو وتمت الموافقة على طلبه وفور وصوله إلى دكار يوم 2 نوفمبر 1907 تسلم رسالة من الحاكم الجديد تحمل توجيهات حدد له فيها ما ينبغي فعله وركز بالمقابل على انتهاج ســياســة كبلاني كما ذكر الحاكم الســابق في التوصيات المؤرخة بـ 29 مايو 1905.

غير أن الحاكم ألح على أهمية احتلال آدرار وبعد مقابلته لغورو أوضــح له "أنه شــخصــيا يتفق مع رأي سلفه "روم" في ضرورة القيام بحملة عسكرية في آدرار، لكن الحكومة الفرنسية لا ترى ذلك في الوقت الحاضـــر" رحل غورو في 6 نوفمبر 1907 إلى ســان–لوي– حيث مقر الحاكم العام لموريتانيا، وتعرف على الضـــباط والموظفين وعلى التقارير وكل شـــيء عن

موريتانيا، فأدرك أن عليه أن يقوم بجولة استطلاعية للتعرف على الأرض والمواقع التي ستصبح ميدانا للمعارك في المستقبل وكذلك التعرف على الشخصيات المؤيدة لفرنسا،كما شرع في شراء الجمال وأمر في العشرين من سبتمبر السرية التي تحتل موقع نواكشوط بالتوجه إلى آبار انشيري واحتلالها.

سافر غورو عن طريق النهر حتى بودور ومن ثم توجه إلى بتيلميت قاعدة انطلاق العمليات الفرنسية في الحملة السابقة ضد إيدوعيش ومركز الدعم اللوجستي الممتاز، فأمضى خمسة أيام من 15 إلى 20 فبراير وقد سجل في مذكراته "أن الشيخ سيديّ(بابه) حثه على سرعة العمل، فقد كان من رأيه أن الوقت مناسب للفرنسين لوضع أيديهم على آدرار، لأن القبائل قد اضطرها الجفاف إلى ترك المناطق سعيا وراء المرعى لقطعانها، أما هؤلاء الذين بقوا في آدرار فقد أصابهم اليأس بعد عودة الوفادة التي سبق وأن توجهت إلى المغرب مع الشيخ ماء العينين دون أن تحقق شيئا ملموسا.." ولكي يُؤكد غورو تقدير الحكومة العامة لصداقة بابه ولبث الطمأنينة في قلبه أمر بإقامة موقع جديد في بتيلميت أكثر استعدادا من سابقه".[174]

كانت فرنسا تستعد استعداد من يعلم أنه مقبل على حملة عسكرية معقدة، وأنها ستواجه مقاومة ضارية وشرسة، بل ستكون معاركها مصيرية بالنسبة للمقاومة التي ستعتبرها معارك موت أو حياة، ستخوضها هذا ما يُفهم من القوة التي حشدت والتخطيط والتعاون مع قادة الجيوش في المناطق المجاورة، وكذلك حضور قائد الجيوش الفرنسية في إفريقيا الغربية إلى المنطقة للتنسيق خلال زيارته لموريتانيا، والذي تقابل مع غورو في ألاك حيث زارا معا كيمي والمجرية وتجكجة وتباحثا طويلا في خطط المرحلة التي سيقدمون عليها، قبل أن يعود القائد عن طريق كيفه إلى السودان الفرنسي (مالي) مما يعني أن جميع الجيوش عليها التعاون من أجل الحملة والمشاركة في التخطيط لها بعناية كبيرة جدا.

---

[174] . الجنرال غوروا:
General Gouraud : la pacification de la Mauritania, journal demarche et operations de la colonie de l adrar. souvenir d'un Africain, (1907-1910) Plon. Paris 1936,2é Edition, 1949.

قام غورو بجولة بعد ذلك قادته إلى الكثير من المواقع المحتلة التي كانت مسـرحا للعمليات السابقة خاصة منها تلك المواقع التي هزمت فيها قوات فرنسا كإنييملان -مثلا- كما التقى مجددا بالمختار ولد عيدة أمير آدرار المخلوع على خلفية مساعدته لبعثة بلانشي[175] عام 1900 تلك البعثة المشهورة التي حوصرت 78 يوما في آطار وبذل حليف فرنساالشيخ سعد بوه مجهودات كبيرة من أجل الإفراج عنها وقد اصطحب غورو معه سيد أحمد بن هذا الأمير خلال تجواله وعاد معه إلى- سان- لوي- واتخذه بعد ذلك منافسا لأمير آدرار الشرعي سيد أحمد بن أحمد عيده.

والمتتبع لتحركات غورو يدرك منذ الوهلة الأولى مدى استعداده للحرب أكثر منه قائد وحدات يراد لها أن تنسحب دون المزيد من الخسائر، وقد أكدت تحركاته أن المحاولات التي قيم بها من أجل إنهاء ما كان يسمى "مغامرات كبلانى في موريتانيا" لم تعد تحظى بأي اعتبار، فقد أصبح منطق الحرب هو السائد. و كان اهتمام غورو منصبا في الأساس على معرفة الأماكن الإستراتيجية، دراسة وفحصا، وكذلك التعرف على طرق الإمدادات ومواقع الآبار، بل إنه في هذه الرحلة توغل في أقصى شمال تكانت حتى أصبح يعاين عن بعد جبال آدرار المستهدف من هذه الحملة.

لم تكن المقاومة بعيدة عن هذه التحركات، بل لم تكن لتترك الفرنسيين يكملون تحشداتهم واستعداداتهم ويرسمون خططهم وينفذونها مطمئنين فخلال تجوال غورو في تكانت، وفي فاتح ابريل، قبل وصوله إلى المجرية عائداً أخبر بمقتل الكابتين ريبو قائد موقع آكجوجت الأمامي على جبهة آدرار في 16 مارس 1908 بعد معركة شرمة يقال إن الأمير ولد عيدة قادها بنفسه، وشارك فيها قرابة 250 مجاهدا كما أن قوة من المجاهدين تابعة للشيخ حسن دمرت في 8 إبريل قافلة دمان القادمة من بتيلميت، وقتلت اثنين من ضباط الصف وخمسة عشر جنديا، واستشهد فيها بن باريك قائد فرقة المجاهدين، وعند تلقيه لهذه الأخبار -غير السارة بطبيعة الحال- أدرك أن فترة الهدوء قد انتهت وأن المقاومة ماضية في مشروعها

---

[175] . للمزيد من المعلومات عن هذه البعثة يمكن الرجوع إلى وثائق من التاريخ الموريتاني د. محمدو بن محمدن

الجهادي المتمثل في حماية آدرار، بل وحتى تحرير الأرض المحتلة في تكانت والجنوبكما يُفهم من رسالة بن عيده لفرير جان التي سبقت الإشارة إليها.

ولا شـــك أنه تأكد من أنهم لن يتركوه حتى يختار مكان وزمان معاركه، فقفل راجعا إلى بتيلميت حيث تلقى رسالة تدعوه للقدوم إلى دكار يوم 18 مايو لمقابلة وزير المستعمرات، وفي بتيلميت "أكد غورو للشيخ سيديّ (بابه) عن قرب الزحف على آدرار ورتب معه موضوع الزيارة التي كان من المفروض أن يقوم بها سـيديّ لدكار، وهي الزيارة التي سـبق وأن طلب مونتيني ترتيبها ليستقبل سيديّ استقبالا رسميا للتكريم ردا على الاستقبال الذي قُوبل به ماء العينين في المغرب، وقد رأى غورو أن تتم زيارة سيديّ لدكار في وقت وجود وزير المستعمرات بها لتدعيم الرأي القائل بوجوب احتلال آدرار خلال المناقشة مع الوزير"[176].

كما قابل الكولونيل اكلوزير المتجه لتسلم قيادة جيوش السودان (مالي)، وطلب منه ضرورة التعاون بين السودان وموريتانيا عند بداية حملة آدرار واقنع حاكم السودان بأن "السطو" الذي تقوم به القبائل ليس بعيدا من السودان، وبوصوله إلى دكار كان موقفه السياسي قويا، فابابه يسانده في وجه الشيخ ماء العينين وسيد أحمد بن المختار يعمل معه في مواجهة أمير آدرار سيد أحمد بن عيده.

وفي الجانب الآخر كان المقاومون يواصـــلون عملياتهم وقد عاد وفدهم ثانية من المغرب محملا بالأســـلحة، وذلك بعد فوز مولاي عبد الحفيظ[177] بالعرش، كما اســـتطاع ماء العينين الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الأســـبان مكنته من اســـتغلال الثغرات الموجودة في مقررات الجزيرة[178]. وكان الموردون للأسلحة شركة فيرمان الألمانية وشركة توري الإسبانية. وقد أرسل ماء العينين ابنه حســـن ثانية إلى منطقة آدرار، كما أشـــيع أن الملك الجديد على رأس قوة من ثلاثين ألفا متجهين إلى آدرار.

---

176 . نفس المصدر ص 324.

177 . مولاي عبد الحفيظ بن الحسن الاول ولد عام 1869 عزله الفرنسيون عام 1912 توفي عام-1937.

178 . مقررات الجزيرة : اتفاقيات وقعت بين المغرب وفرنسا. 1910

عند اندلاع المعارك من جديد ركزت المقاومة في إستراتيجيتها على نقطتين أساسيتين: أولاهما موقع آكجوجت الأمامي، والثاني: وحدات الهجانة. وكان موقع اكجوجت قد أنشئ "في يناير 1907" كي يكون نقطة مراقبة لطريق آدرار التزارزة لحمايتها من هجمات المقاومة، ونقطة الهجوم المضاد وقطع طريق العودة على كل توغل في الجنوب تقوم به المقاومة.. وقد تولى إمرة الموقع الدفاعي النقيب ربو قائد الجمالة والملازم شميث"[179].

ونظرا لقرب هذا الموقع من آدرار فقد أثار إنشاؤه حفيظة المقاومة وأصبحت إزالته وتدميره من الأولويات الأساسية، وتجددت بذلك المعارك والاشتباكات عند كرارت الفرس بقيادة ربيو، ففي 12-3-1907 ذهب الملازم شميث والرقيب غافجالي مع 28 قناصا و12 مجندا من البيضان ودليل، هدفهم معاقبة "عُيون" الأمير المصعدين على القبائل المعادية والساعية إلى حمايتنا وفي المطاردة قتل النقيب روبو وجرح الملازم شميث في قتال مع جماعة استكشافية مرسلة من طرف الأمير ولد عيدة"[180]. وخلال المطاردات هُوجمت قوات الاحتلال عند يغرف وقتل في المعركة مساعد روبو اشميث، وتوالت الضغوط من أجل إزالة موقع اكجوجت.

وبالجبهة الوسطى و في السادس عشر من أغسطس "قاد سامب قائد وحدة موريتانيا وحاكم دائرة تكانت هجوما على الرشيد.. وبعد خمس ساعات من القتال انسحب المتمردون وسقط قتيل وحيد وجرح ضابط صف فرنسي جروحا بالغة، "وفي 26 نوفمبر وقرب لتفتار تعرض فريق يعمل في إنشاء موقع اتصال لهجوم قتل فيه سبعة وجرح اثنان جراحا خطيرة. وبعد ذلك بيوم تعرض جمالة كيفه بقيادة الملازم ماكت لهجوم فقد فيه العدو قتيلين "وفي 15 من أكتوبر تعرضت قافلة من خمسمائة ثور متجهة إلى المجرية لهجوم وكانت بحراسة الرقيب آلارد ومفرزة من خمسين مقاتلا عند لتفتار، وبعد ساعة من القتال قتل الرقيب وأربعة مقاتلين كما قتل أربعة متمردين واستولوا على القافلة"[181].

وتواصلت هجمات المقاومة في تكانت المحتلة ولم تكن الجبهة الجنوبية في التزارزة أحسن حالا، فقد عرفت بدورها اضطرابات وأعمال عنف رغم خضوعها للاحتلال منذ خمس سنوات

---

179 . جلبي: مصدر سابق ص 171

180 . جلبي: نفس المصدر، ص: 161

181 . جلبي: نفس المصدر السابق، ص 172

تقريبا، فقد تجددت المعارك في هذه الفترة بقيادة الأمير أحمد بن الديد التروزي (ت 1944). ففي يوليو "هاجم بن الديد كتيبة كانت تحرس قافلة وقتل الحراس واستولى على القافلة"، وقعت المعركة عند العزلات بولاية البراكنة وفي "16 أكتوبر انطلق الملازم ديبلور من بتليميت لاعتراض مقاومين أبلغ عنهم في سهوة الماء بمفرزة مكونة من ضابط صف فرنسي وآخر جزائري وسبعة وعشرين سنغاليا واثني عشر مجندا محليا غير أن العطش قضى عليهم"[182].

وعلى نفس الجبهة الجنوبية في الترارزة قاد الأمير أحمد بن الديد معركة لكويشيش الشهيرة التي "قتل فيها الملازم ربوت واثنا عشر من جنوده وتم الاستيلاء على ستة عشر حصانا مسرجا وثمانية عشر خنجرا وأربعة عشر مدفعا"[183]. غير أن المختار بن حامد ذكر أن قتلى الفرنسيين كانوا خمسة وعشرين قتيلا.. كما عثر في تلك الأثناء على ضابط الصف الذي تعرضت مفرزته للعطش وهو في الرمق الأخير حيث مات هو وأربعة من جنوده.

شهداء ومشاركون في معركة لكويشيش.

محمد ولد أحمد شار	فخذ أولاد السيد أولاد احمد بن دمان.
سيدي ولد سيد أحمد	فخذ الدخن اولاد احمد بن دمان
أحمد ولد أحمد بوها	فخذ أهل المختار لله تندغة
حميدة ولد عبد الله	اسكارنه

المشاركون

الامير أحمد(الديدة) ولد محمدفال	أولاد احمد بن دمان
أحمد سالم ولد المختار أمّ	أولاد دمان
أحمد ولد صمب ولد إعل	أولاد احمد بن دمان
محمد ولد العزبة	الرحاحلة

182 . جيلي: مصدر سابق، ص 382

145- جيلي: مصدر سابق، ص 383.

محمد ولد حويرية	فخذ اولاد محمد لعلب
محمد ولد اعل ولد أحمد	فخذ أولاد اللب اولاد دليم
محمد ولد احميدة	أولاد احمد بن دمان
محمد ولد أحمد شار	فخذ أولا السيد أولاد أحمد بن دمان

سيدي ولد محمد الامين	اولاد احمد بن دمان
سيدي ولد سيدي مولود	اولاد دمان
محمدن ولد همت	الخالفه الكحلة
محمد ولد احماد	الخالفه الكحلة
محمد سالم ولد اعمر امبوي	اولاد احمد بن دمان
محمد مولود ولد بوبكر سيره	فخذ أهل التونسي اولاد أحمد ن دمان
محمد ولد احمد ولد سيدي	فخذ الدخن اولاد احمد بن دمان
المختار ولد محمد الكوري	فخذ اولاد السيد اولاد احمد بن دمان

امبارك فال ولد البواه	الخالفه الكحلة
احمد ولد سيدي ميله	فخذ اهل التونسي اولاد احمد بن دمان
اسلمو ولد ابراهيم خليل	فخذ اهل التونسي اولاد احمد بن دمان
اعل سالم ولد المساوي	اولاد احمد بن دمان
اعل ولد ابراهيم فال	فخذ اولاد السيد أولاد احمد بن دمان
الشيخ ولد هميمد	الخالفه الكحلة
ابراهيم ولد بوبوط	اهل عبله
باب ولد محمد شين	فخذ اهل الشرقي اولاد احمد بن دمان

اعمر ولد محمد بونه	فخذ اهل اعل شنظورة اولاد احمد بن دمان
عمر ولد بيرهم	اولاد دمان
احمدُ ولد براهيم ولد كايد	اولاد دمان
احمد ولد بوبوط	اهل عبله
احمد ولد امحيمد	الخالفه الكحلة
احمد دية ولد ابراهيم	فخذ اولاد السيد اولاد احمد بن دمان
احمد ولد عثمان	فخذ اولاد محمد لعلب
احمد سالم ولد ملادة	اهل اكمتار

يوم انبيكت اتيكزيت

استشهد فيه اجدود بن اكتوشن (ليس العالم المشهور وإنما سميه) ومولاي أحمد بن مولاي عبد المالك، ومحمد بن امباله، ودحان وعبد القادر محمد بن احمد شـــار من أولاد احمد بن دمان ، ومن جانب العدو قتل ثلاثة سنغاليين وجرح عشرة بينهم ثلاثة فرنسين.

يوم عكلت الخشبة

استشهد 12 (مقاوما) وجرح سيدي بن محمد فال بن سيدي أخ الأمير التروزي أحمد بن الديد ثلاثة جروح ومن جانب الاحتلال قتل نقيب وجرح ملازم.

يوم اعكيلت الوزغة

اســر قائد الفرقة الفرنســية وقتل بعض من معه ومنهم الشــريف بن بوبكر خوي، واعل بن عثمان بن بوبكر الصـــديق العلبيان نســبة إلى قبيلة لعلب المنحدرة من أبناء تروز بن هداج المغفري.

يوم اعكيلت الدبشه

استشهد فيه سيدي محمد بن بونا، ومحمد بن اعل الكوري بن احمد لليكاط ثلاثتهم من أبناء احمد بن دمان والبانون بن احمد أباه الرحالي.

يوم كدم الفرنان

استشهد فيه سلمه بن المختار، واحمد بن الصديق بن آل بوحبيني.

يوم الصرك في البراكنه سنة 1907

استشهد فيه سيد إعل ولد أحمدُ الملقب "ولد عساس" أمير من البراكنة وغالي بن الشيخ عبد الرحمن في ثلاثين.

متاعب قوات الاحتلال هذه يقول عنها الرائد جيليي "بين نهاية مارس ونوفمبر 1907 كنا عرضة لـــــــ135. هجوما قتل فيه ثلاثة ضباط، وخمسة ضباط صف ومائة وأربع وثلاثين مقاتلا،؟ بينهم سبعة فرنسيين، والكثير من قوافل التموين نهبت، وخطوط تلغراف قطعت أكثر من عشرين مرة وعدد غير محصور من الحيوانات أخذت".

ومن جانب آخر اتبعت المقاومة أسلوب الحرب الشاملة، وتمثل ذلك في الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من جمال الهجانة وكان هناك مجلس حرب يخطط لهذه العمليات مكون من "دمان ولد بيروك رئيس قبيلة تكنة، واحميدة رئيس قبيلة أولاد عمني، ورؤساء قبائل أولاد غيلان وأولاد أكشار ولغلال[184]، هذه الحرب "الاستنزافية" لعلها هي التي دانها الشيخ سعد بوه في رسالته (الخاصة) كما أشرنا سابقا.

ونجحت المقاومة في هذه الأثناء في تدمير قافلة متجهة من نواكيل إلى آكجوجت وقتل فيها اثنان من ضباط الصف الفرنسيين في الثامن من ابريل يقول جيليي "عشرون يوما بعد هذه الحادثة كان الملازم اوبرت على طريق اكجوجت –انواكيل– ومعه ثمانية وأربعون سنغاليا ومجندا من البيضان (موريتانيون) وعلى بعد 15 كيلو من آكجوجت تعرض لهجوم من تسعين شخصاً بينهم خمسة وعشرون من تلاميذ ماء العينين، وكان الهجوم كثيفا وقد استغرق نصف ساعة استعمل فيه السلاح الأبيض، فقدنا خلاله ثلاثة قتلي سنغاليين ورقيب أوروبي وجروح ثلاثة سنغاليين، وستة مجندين، وثلاثة جمالة، وعشرون من الجمال جرحي.. وخلف

46[1]– تقرير القائد النقاع عن التوازرة 21 مايو 1908 إلى غورو.

المهاجمون خمسة عشر جثة وعشرة بنادق وعشرة جمال، وواصلت القافلة رحلتها إلي نواكيل التي وصلتها يوم27 مايو.. وفي هذه الفترة شدد المنشقون علينا الخناق".

وفي 12 مايو استولوا على جمال الهجانة بالقرب من آكجوجت، كما أنهم في 21 مايو تمكنوا من ضرب قافلة عائدة إلى بتلميت في معركة حادة قتل فيها ثلاثة فرنسين وجرح عشرة، ومع ذلك تمكنت القافلة من الإفلات لكن موقع آكجوجت تم عزله تماما، كما أن المركز الشرقي والأمامي على جبهة تكانت أي مركز جمالة تكانت الذي أنشأ في شهر إبريل.. تحت إمرة النقيب مانجان ويتألف من مائة وأربعة عشر مقاتلا سنغاليا وثلاثين مجندا بيضانيا ولديهم رشاشتين "[185] قد تعرض لضربة قاضية بعد أن اقترح القائد القيام برحلة شمال تجكجة،لاختبار تلك المنطقة ومعرفة نقاط المياه بينها وبين آدرار، وكانت المنطقة "جد مراقبة" من طرف المقاومة المتابعة لكل التحركات، خاصة تحركات هذه الفرقة "المختارة" من القوات الفرنسية التي يقودها "بوضرس" حسب التسمية التي يطلق عليه المقاومون والسكان المحليون.

وقع الاشتباك مع المقاومة عند تيلمست وكانت النتائج –حسب جيليي– على النحو التالي: "خلال ساعة واحدة سقط كل مقاتلونا.. وبعد إصابتين في الرأس سقط النقيب مانجي، وأصابت رصاصة رأس الرقيب فقتلته، البيضان من جانبهم واصلوا الاقتراب وسيطروا على الساحة.. بقي جندي جريح حمله البيضان الرسالة التالية "انقل للمسيحين ما حدث لبوضرس.. وكان المتمردون قد قتلوا قبل هذه المعركة بيوم واحد ثمانية جنود كانوا يبحثون عن الماء". وجاءت معركة تالمست[186] التي يقودها الملازم جوسي فأصيب هو الآخر بضربة قاضية بعد تكليف مانجا له باستكشاف منطقة عيون البقر[187]. بينما توجه هو إلى منطقة الميدان[188] فانقضت عليهم المقاومة وتمكنت من قتل مانجا كما مر وأبادت قوته بالكامل". وفي اليوم الثاني قامت بمهاجمة المؤخرة في تالمست وقضت عليها مستفيدة من الأسلحة الرشاشة والذخائر التي استولت عليها في اليوم السابق". وكان ذلك يومي 13 و 14 يناير"[189].

---

185 . جيليي، نفس المصدر

186 . تلمست توجد بظهر آدرار

187 . قريبا من تليمست

188 . الميدان يقع شرق اكجوجت

189 . جيليي مصدر سابق ص 383

واجتاح موقع آكجوجت خلال هذه الأحداث مرض انتشر في صفوف الجنود، حتى أن قائد المركز النقيب بابلون والطبيب كوفي لم يسلما منه، وكانت القافلة القادمة للنجدة تهاجم باستمرار، كما أقدمت المقاومة على ردم الآبار وضر العطش القافلة، حيث مات إحدى عشر رجلا وفقد نفس العدد. ونفق ثمانية وثلاثون من الجمال.. وإثر تعسر الإمدادات التموينية إلى آكجوجت كلف غورو "الكابتين جاردان قائد قطاع الترارزة بإرسال قوة يساندها أقصى عدد ممكن من الموريتانيين الموالين بمعاونة الشيخ سيديّ 'بابه' لتدعيم قوة بورجيه ومساعدته على سرعة الوصول إلى آكجوجت"[190].

وبعد أن تمت كل هذه الترتيبات كان غورو في طريقه إلى دكار حيث عرض الموقف أمام الحاكم العام بونتي، وقائد جيوش إفريقيا الغربية أود يود، فزود بسرية سنغالية، ومبلغ مائة ألف افرنك، كما استدعي الكوماندان افرير جان لقيادة هذه السرية، وقد تحركت يوم السابع عشر من أغسطس من سان لوي نحو نواكشوط التي غادرتها هي الأخرى يوم 29 من نفس الشهر متجهة إلى آكجوجت مرورا ببرجيمات لإخلاء الموقع بكل رجاله ومعداته.

وزادت المقاومة من ضغوطها العسكرية والنفسية، هذه المرة حيث أرسل حسنًا ولد الشيخ ماء العينين إلى قائد موقع آكجوجت بابلون ينذره بضرورة الانسحاب وإلا تعرض للهلاك، ورغم أن المصادر الفرنسية تقول إن أسباب الإخلاء كان ضمن خطة وضعها غورو لتركيز قواته في حملة واحدة قوية يمكنها غزو آدرار، إلا أن هذا ادعاء فقط، فعند ما اتخذ القرار لم تكن الحكومة الفرنسية قد وافقت على الحملة على آدرار وهذا يفسر أن إخلاء الموقع جاء قسرا تحت ضغط المقاومين الموريتانيين، وليس طوعا بموجب خطة الفرنسين ويدعم هذا الرأي حجم القوة التي استخدمها افرير جان لتأمين إخلاء الموقع.

قوة مكونة من 190	سنغاليا وموريتانيا
قوة بورجى 131	سنغاليا و20 موريتانيا
قوة أوبير 300 سنغاليا	و120 موريتانيا

190 . نفس المصدر ص 161

وتمت عملية الانسحاب من مركز آكجوجت إلى نواكشوط وأخلي الموقع يوم 16 سبتمبر 1908.

بعد هذه النجاحات الكبيرة التي أحرزتها المقاومة، حاول غورو أن لا يتخلى عن موقع متقدم في انشيري لأن ذلك يجعل المقاومة تتقدم 200 كيلو جنوبا، فعاد ثانية إلى دكار لإقناع المسؤولين بإنشاء موقع عند بورجيمات، وذلك في وقت ساد فيه الخوف والقلق في صفوف الإدارة الفرنسية، كما ارتفع حماس المقاومة وتسربت شائعة مفادها أن الخطوة القادمة هي إخلاء كامل البلاد المحتلة "فزادت هجماتهم جرأة بشكل لم تعهده المنطقة من قبل"[191].

خلال هذه التطورات ازدادت المقاومة ضراوة وغطت أجزاء كبيرة من الوطن ووجهت ضربات أصابت الاحتلال في الصميم، وقد انتشرت وتعددت هذه الظاهرة وشملت مجالا واسعا من البلاد. ففي الشرق –تكانت بالذات– كان المختار زعيم كنته قد انضم إلى المقاومة منذ حصار تجكجة، ونجح في تحصين مدينة الرشيد وأصبح عنصرا فعالا ووجه ضربات موجعة لقوات الاحتلال وخاصة قوافل الإمداد القادمة من الجنوب متجهة نحو المجرية وتجكجة، ولم يكن الوضع في الجنوب الغربي (أي الترارزة) بأحسن حالا حيث واصلت المقاومة (التي كانت تحاصر آكجوجت كما مر معنا) أعمالها المسلحة لتشمل منطقة بتلميت، وضغطت كذلك في الشمال فهاجمت نواذيبو في 20 يوليو 1908 وفي الجنوب تكثفت الهجمات على منطقة كيفه التي كان الملازم بوسي يسعى إلى إعادة تنظيم الهجانة بها بعد معركتي لمينان وتيلمسيت آنفتي الذكر.

نتج عن هذه الأعمال تعطيل امدادات المواقع نظرا لتعرض قوافل التموين لهجمات المقاومة، وكذلك تجريد قوات الاحتلال من استغلال الجمال، ونظرا لأن المقاومة أدرى بخدمات الجمال فقد ركزت عليها بصفة أساسية حتى تشل حركة الهجانة عند الاحتلال، وقد أثرت هذه

191 . مذكرات اوزير جان: الصفحة 175 من ديزير فيلمان

الإستراتيجية بشكل كبير على الفرنسيين. "وخلال الفترة من بدء إعلان الحرب المقدسة في مارس 1908 إلى أكتوبر من نفس العام كان رجال حسناً قد شنوا 125 هجوما كبدت الفرنسين خسائر جسيمة بلغت -حسب تقديرهم- من القتلى ثلاثة ضباط وخمسة ضباط صف و134 ضارب "مدفعية". ومن الجرحى سبعة فرنسين وأربعين من الزنوج، أما خسائرهم من الحيوانات فكانت هائلة لا تحصر وعلى الأخص الجمال"[192].

ربما تكون خسائر هذه الفترة أكثر مما أورده العسكريون الفرنسيون، إذا وضعنا في الحسبان أن مصدر هذه المعلومات هو الجنرال غورو الذي كان يريد موافقة حكومته على الحملة، وهي الحساسة جدا من الضحايا خاصة في صفوف الأوربيين، كما هو معروف، ومع غياب مصادر من المقاومة لذلك فإن المصدر الوحيد الذي اعتمدنا عليه في هذه المعلومات هو مصدر مشكوك فيه عندما يتعلق الأمر بالخسائر لكونه يراعي الظروف السياسية لفرنسا التي كان يسودها تردد كبير حول هذه الحملة.

نقطة أخرى ملفتة للانتباه وهي أنه بعد موافقة الحكومة الفرنسية على الحملة "وعندما أوفد غورو الكابتين كامين في مهمة سرية لشراء الجمال من كافة الأماكن المتيسرة، عاد بعد جولة لمدة شهر ليذكر أن معظم الجمال الجيدة قد اختفت من الأسواق، ولم يبق سوى الجمال الهزيلة أو صغيرة السن، التي لا تصلح للحمل، وحين ما بدأت في أكتوبر 1908 الخطوات العملية للتجهيز لهذا الغزو كان إعداد 900 جملا اللازمة هو النقطة الحيوية في ترتيبات إعداد الحملة" كيف نفسر اختفاء الجمال؟ هل المواطنون كانوا على علم بما ستستغل له فشاركوا بدورهم في المعركة بتطبيق سياسة الحرب الشاملة في الأسواق؟ وهل الفقهاء الرافضين كانوا يفتون شفويا بحرمة بيع الجمال للفرنسين؟ احتمال وارد.

---

192 . وثائق ولد حرمه

لقد كانت مأموريتي في آدرار من أصعب مهماتي.

الجنرال غورو

رغم تلكؤ موقف الحكومة الفرنسية من احتلال آدرار لأسباب داخلية تارة، والتزامات دولية تارة أخرى، فإن الفكرة تبلورت منذ عام 1907 يبدو ذلك جليا في التقارير والرسائل والاستطلاعات التي تصب كلها في اتجاه واحد وهو أن حماية مستعمرة السنغال لن تتم إلا بهذه الحملة، وأن المتاعب في المغرب وثيقة الصلة كذلك بهذه المنطقة التي تتواجد فيها جل القبائل المؤثرة على الأحداث هناك والمعادية للفرنسيين،كما أن جولة غورو المشار إليها آنفا واضح منها أن الاجتياح مسألة وقت لا غير.

رغم كل المناورات والتعديلات في الخطط والتلكؤ في المواقف التي توجت بمقابلة غورو لوزير المستعمرات ميليه لاكروا خلال زيارته لدكار في 1908/5/18 لتعد الحملة إعدادا سياسيا، وكان رأي كل من الحاكم العام بوينتي وقائد جيوش إفريقيا الغربية أود يود متفقا حول ضرورة تنفيذ حملة عسكرية لإعادة هيبة فرنسا بعد فشلها العامين الماضيين.. كما أعطت زيارة بابه وتأييده لفكرة غزو آدرار دفعا جديدا لإقناع الوزير، "فقد صرح "بابه" في 29 مايو 1908 خلال هذه الزيارة بقوله إن على المسلمين واجب مقدس وهو أن يساندوا الفرنسين على معاقبة جماعات النهب والسلب الأعداء الحقيقين للبلاد "وردت هذه العبارة في خطاب شخصي من غورو إلى الحاكم العام "[193].

وبعد الكثير من الحوارات في الأوساط الفرنسية تمت الموافقة على الغزو في رسالة من وزير المستعمرات مؤرخة بـــ 12 أغسطس 1908 موجهة إلى الحاكم العام تخطره رسميا بموافقة الحكومة الفرنسية على التدخل العسكري في آدرار، وبدأت النشاطات التحضيرية للحملة في

193 . فيلمان، مصدر سابق

سرية تامة خشية تسرب شيء عنها، ففي منتصف سبتمبر وصل الكوماندان كلود يول مساعد لغورو وهو منصب سبق وأن شغله معه في أماكن عدة من المستعمرات، وقد قسم غورو حملته إلى مجموعتين، الأولى هي الرئيسية تحت قيادته المباشرة، والأخرى تحت قيادة افرير جان مهمتها اختراق إنشيري والالتقاء به عند مداخل آدرار، وقد قرر أن تكون المجرية "في تكانت" مكان تجمع قواته".

وحسب فيلمان فقد تمكن غورو بمعاونة بابه بن الشيخ سيديّ، وسيد أحمد بن المختار، والمترجم أبو المقداد من أن يقوم بعمل حصر دقيق لمواقف قبائل آدرار وعدد مقاتليها وقد صنفهم من وجهة نظره كالآتي:

قبائل معادية	عدد المقاتلين
أولاد غيلان	700 مقاتلا
فرعا أهل التناكي وحمدات إيديشلي	60 مقاتلا
عائلة الأمير واتباعه	100 مقاتلا
المنشوق من قبائل إيدوعيش	60 مقاتلا
المنشقون من قبائل تكنة	20 مقاتلا
الشرفاء	15-20 مقاتلا
أهل اعمر ايكدبيجة	15-20
تلاميذ الشيخ ماء العينين	970- 980

قبائل غير معروفة الميول:

ايديشلي فيما عدى الفرعين السابقين	700
أولاد عمني	200
أولاد آكشار	320

قبائل موالية أو محايدة:

اسماسيد	300 مقاتلا
تيزكة	100

هذا عن العدد التقريبي لقوات المقاومة، وقد سـافر قائد القوات الفرنسـية في 14 نوفمبر متوجها إلى المجرية صـحبة الكابتين بابلون وبعض الضـباط المتجهين إلى الجبهة، ووصـلوا المجرية يوم 28 نوفمبر وابتداء من فاتح ديسـمبر كانت الحملة بكامل عتادها على النحو التالي:

4- سرايا من المشاة السنغاليين	تضم 560 مقاتلا
2- وحدة هجانة تضم	270 جملا
1-فصيلة فرنسان سنغالية	تضم 30 فارسا
وحدة من الموريتانيين	تضم 60 فردا
قافلة للخدمات الطبية تضم	طبيبين وممرضيين وأدوات اسعاف
قافلة للخدمات الطبية تضم	900 جملا

وصلت القوة الإجمالية للحملة:

أربعة ضباط	كلهم فرنسيين
56 ضابطا كبيرا	منهم 34 فرنسيا
68 ضابط صف	مدفعية ورشاشات
100جنديا منهم	200 من راكبي الجمال

يجدر بالإشـارة أن جل جنود الحملة من السـنغاليين باسـتثناء وحدة من سـتين فردا بقيادة الكابتين وهذا على عكس ما كان عليه الأمر في السـابق، ربما يرجع هذا إلى انصـراف الكثير من القبائل عن موالاة فرنسـا خاصـة بعد الانتصـارات الكبيرة التي حققها المقاومون كما مر معنا سابقا.

في الجانب الآخر تحولت قوات افريرجان وفق التعليمات التي وصـــلت إليها بتاريخ 20 نوفمبر من شـمال بتلميت "اكلال فاي" لاختراق الرمال صـوب إنشـيري، ومتابعة المقاومة بغية التمويه على التحرك الكبير من المجرية للتمكن من عنصر المباغتة.

وفي 4 ديســمبر أصــدرت أوامر القتال إلى كل الوحدات، وفي اليوم الموالي كان كل القادة يعرفون واجباتهم، كما عاد من المرعى 1200 جملا وبدأ تحميل 800 جملا بالمؤن والذخائر.

بدأ الزحف إلى آدرار يوم 6 ديسـمبر من المجرية عبر خطوط روعي فيها الخصـب والآبار حتى لا تجهد دواب الحمل وفي الطريق وعند العين الخضراء وصل ممثلون عن قبيلة إيدوعلي شـــنقيط معلنين ولاءهم ورافقوا الحملة واســـتطاعت الحملة مفاجأة الأمير بوصـــولها يوم 17 ديسمبر إلى الحاس المالح، ويعود ذلك إلى أن القبائل كانت متمركزة أساسا عند اكرارت الفرس وقد أكدت جماعة من المخبرين لغورو أن المقاومة ستقود معركة شرف.

واصـــلت الحملة زحفها حيث دخلت أوجفت يوم 22 ديســـمبر، وكانت المدينة خالية من سكانها، وأرسـل غورو جماعة استطلاع للحصـول على أخبار المقاومة، غير أنها اصـطدمت بكمين عند "الشـومات مما خلف ثلاثة عشـر قتيلا وعشـرين جريحا وتواصـل الزحف حيث بدأ أول اشـتباك فعلي عند تيفجار يوم 26 ديسمبر وعند أماطيل[194]، ووصـل محمد بن يحيى أحد زوايا المنطقة من مناصـري الأمير المخلوع وذكر أن مجموعة افرير جان اشـتبكت مع المقاومة عند مرتفعات آبي وأن الأمير مدعوم ب 500 مقاتل من قبائل اركيبات وأقســـام أولاد غيلان سـيهاجمون افرير جان فيما سـتقوم مجموعة مجهزة من 600 مقاتل بمراقبة الحملة عند يغرف، وممر حمدون، واســتطاع افرير جان بعد معركتين قويتين أن يحتل موقعا حصــينا في اتويزك وفي يوم 27 ديسمبر اشتبك مع المقاومة وخسر أربعة قتلى وعشرة جرحى.

194 . تيفجار وماتيل أماكن قرب آطار

في يوم 30 ديســـمبر هاجمت المقاومة القوات المتمركزة في آماطيل، وأجبرتها على التقهقر إلى مقرها الرئيس، وحرر رجال المقاومة المواقع الأمامية للفرنسيين، واستشهد محمد يحظيه بن سيدي أحمد بن سيدي باب السمسدي وخلف الهجوم سبعة قتلى في صفوف الفرنسين بينهم ثلاثة ضـــباط وأربعة عشـــر جريحا، ووصـــلوا إلى الموقع الرئيس غير أن القصـــف المركز بالمدفعية أوقف الهجوم وعند محاولة الملازم جوســـي إنقاذ جمالهم التي ترعى على بعد كيلومترين اشتبك (في معركة ضارية استخدم فيها السلاح الأبيض) مع المجاهدين ثم انسحبوا بسبب ضغط المدفعية.

وقعت هذه المعارك وغورو في طريقه إلى اكرارت الفرس، ولو أن هذا الهجوم قدر له النجاح لأصيبت الحملة بكارثة، لكن ذلك لم يحدث، فتقدمت الحملة من واد سكليل ووصلت ممر حمدون يوم 8 يناير 1909 حيث خاضت معركة عنيفة ضد رجال حسنا ولد الشيخ ماء العينين المتمركزين عند مدخل حمدون غير أنهم فشلوا في وقف الزحف عن آطار. وقد شارك في معركة الدفاع عن مدينة أطار جماعات من أنحاء عديدة من أرض البيضان، " أهل الساحل أولاد بسباع وأولاد ادليم وأولاد اللب وأهل الحوض مشظوف وأهل ولاته، وإيدعيش والترارزة وتجكانت تيندوف"[195].

وفي يوم 9 يناير ســـقطت مدينة آطار بيد الاحتلال وبدأ غورو يوطد دعائم الاحتلال من القلعة التي ظلت رأس الحربة والجبهة الأقوى، مع أن سقوطها لم يكن نهاية المعارك فقد وصل الفرنسيون إلي آدرار لكنهم لم يحتلوه بعد، وسيقضـي غورو ستة أشـهر صـعبة لم يسـتطيع الجيش خلالها القيام الا بعمليات محدودة "بل إن القبائل الرافضـــة في الترارزة والبراكنة وكثير من قبائل اركيبات الشمال التي استقرت في الجنوب مع إيدوعيش استأنفوا المناوشات وتهديد قوافل التموين الفرنسية المتجهة إلى آدرار.

---

195 . محمد سعيد بن همذي مجلة التعليم العدد 27-1996 ص 165

كما اســـتأنف أمير الترارزة احمد بن الديد القتال في هذه الظروف مما يعني أن الأمور لم تحســـم بل ازدادت تعقيدا لأن منطقة النفوذ الفرنســـية المتاخمة للنهر –وهي أول ما احتل من بلاد البيضان على الأقل– عاد لها الغليان وعرفت انتفاضة كبيرة.

ورغم كل هذه الاضطرابات فقد شعر غورو بأن الحسم أصبح قريبا فأرسل قوة ضخمة بقيادة بابلون وضم إليه دبري لاستكشاف كثبان الجنوب الغربي، بهدف تحديد مسار قافلة قادمة من نواكشـوط تضـم 400 جملا، واسـتقرت تلك القوة عند رأس الرسـم، لكن عودة المقاومين إلى الواجهة من جديد غير الأمور، فقد هاجموا يومي 27–28 إبريل معســـكر بابلون وقتلوه في المعركة " تلقت القوات الاستعمارية هزيمة قوية في أغسرمت حيث مات مساعد غورو النقيب بابلون(bablon)"[196].

مع أن المقاومة تمكنت من قتل القائد الفرنســي فإن المعارك كانت قاســية عليها حيث فقدت الكثير من الرجال، وفســـح المجال أمام قوافل التموين، وكانت قوات الاحتلال تعلم أن القوافل لن تتمكن من الوصـــول إلى آطار إلا بحماية كبيرة، فأمر غورو، أفرير جان في 19 مايو بالتوجه على رأس قوة لحماية تلك القافلة، وقد أصيبت قوته بخسارة جسيمة لم يتحدث في مذكراته التي تهتم عادة بأدق التفاصـــيل عن أســـبابها. غير أن بيير بونتي يقول إن فرقة فرير جان "فقدت..ما يقارب الأربعين من الجنود الأفارقة بســـبب الحر والعطش، عند اكلال فاي. واتسـعت المواجهة جنوبا إلى تكانت على شـكل عمليات خاطفة ضـد القوافل والمواشـي التابعة للجيش الفرنســـي، ومع توارد هذه الأخبار على فرنســـا، طالبت الصـــحافة وبعض البرلمانيين بالجلاء من آدرار. "وقد هاجم المسيو ميسيمي من قبة البرلمان الفرنسي السياسة الصحراوية، المتبعة وبخصـــوص موريتانيا فقد صـــرح قائلا "لقد توجهنا إلى تكانت، إن ذلك مقبول، لكن ما كان ينبغي تجنب الدخول فيه هو آدرار.. لماذا ذهبنا إلى آدرار.. لم إلى آدرار ألأن الصـــحراء فتنتنا؟ إنما ذهبنا من أجل أن تبقي إفريقيا السوداء لنا، وإن لم نكن محتلين بالفعل سنبقي على الأقل بوصفنا رجالا يقومون بدوريات بوليسية"[197].

---

196 محمد سعيد ابن هندي: المرجع السابق، ص 166

197 . بير بونت: إمارة آدرار، مرجع سابق

وظلت المعارك مستعرة رغم احتلال آدرار، ورغم البطش والتنكيل الذي واكب الاحتلال وحتى بعد النكسة الكبيرة التي أصابت المقاومة بعد وفاة الشيخ ماء العينين الذي مثل ظهيرا قويا طالما وفر المال، والرجال والسلاح، و الدعم المعنوي، وشكل توازنا روحيا، وغطاء علميا في وجه الفقهاء المؤيدين لفرنسا، وقد جاءت وفاته المفاجئة بعد تعرضه لصدمتين الأولى مثلتها اتفاقية 4 مارس 1910 بين فرنسا وسلطان المغرب، والتي نص بندها العاشر على أن "تتعهد الحكومة الشريفية، بأن تعمل على أن لا يتلقى المحرضون أي تشجيع من الإعانات المالية، أو الأسلحة أو الذخائر، كما تتعهد بإرسال خطابات إلى سلطات سوس.. تأمرهم فيها بمنع تهريب الأسلحة من مناطقهم إلى الشيخ ماء العينين".. والصدمة الثانية مثلها توجيح سلطان المغرب ملتمسا إلى النقيب الإسباني فريان في 19 يناير 1908 والى الحكومة الألمانية في 21 يناير 1908 يطلب فيه دعم قراره القاضي بمنع تزويد الشيخ ماء العينين بالأسلحة والعتاد"[198]. وأمام هذا العمل الذي قلل مصادر الأسلحة التي يعتمد عليها الشيخ ماء العينين في جهاده، لم يعد أمام المرابط الكبير هامشا يحصل منه على السلاح.

مع هذه التطورات غير السارة التي تعرضت لها المقاومة فإنها واصلت مشروعها وصعدت من عملياتها، حيث قامت في 10 يناير 1913م بأعنف هجوم في تاريخها منذ سقوط آدرار حسب المصادر الفرنسية،"فاجأت وحدة الهجانة بين آطار ونواذيبو وكانت المفاجئة تامة.. لقد تمكنت قوة محمد الاغظف بن الشيخ ماء العينين من قتل قائد الوحدة وجميع الضباط وضباط الصف الفرنسين، كما أبادوا تقريبا جميع أفراد الهجانة واستولوا على أسلحتهم وذخائرهم بالكامل واخذوا كل الجمال الموجودة التي بلغت 488 جملا، وعادوا سالمين"[199].

وتكررت العمليات مع بداية 1913م ضد القوات الفرنسية، وبلغت هذه العمليات ذروتها في معركة لبيرات "سالفة الذكر"، حيث أبيدت فرقة فرنسية متنقلة مكونة من سبعة وستين رجلا بينهم أربعة ضباط فرنسيين وغنمت رحالهم وأسلحتهم وذخائرهم، مما عزز القوة النارية لدى المقاومين" وقد قاد هذه العملية أحمد بن حمادي وبد بن عليوة الرقيبيين، ونجا من قوات الاحتلال عشرون فردا بينهم أحمد سالم بن حبيب الله الغلاوي، وأصيب في عينه واستشهد 16

198 . وثائق ابن حزمه

199 . أمارة آدرار مصدر سابق

بينهم الخليل بن عبد الودود بن اعل بن الدخيل الرقيبي البهالي، ومحمد بن السـيد بن محمد بن عبدالله بن اعل بكار الدليمي الواعري "

وللرد على هذه الضـربات قام الكونتل مونتي يوم 28 فبراير 1913م بهجوم أحتل فيه السـماره مدينة الشـيخ ماء العينين رمز المقاومة الروحي، وقد وجد المدينة خالية من السـكان "محرزا نصرا سياسيا وليس عسكريا، لأن قواته تعرضت لمقاومة شديدة، وانسحبت دون تسجيل نتائج تذكر" وقد تعرضـت القوات الفرنسـية في طريق عودتها من السـماره عند واد تكاليات لهجوم من المقاومـة قتـل فيـه 23 فرنسـيـا بينهم النقيـب جرار والملازم ميرلو في 9 من مارس1913م.

حدثت هذه التطورات بعد أن تمكنت القوات الفرنسية من أسـر أمير آدرار في منطقة تيشيت بالشـرق بعد احتلال تلك المنطقة، وقد أسـر الأمير في 21 يناير 1912 بعد إصـابته بجروح وتم وضـعه تحت الإقامة الجبرية قبل أن يعود إلى المقاومة ثانية وقد مثل أسـره صـدمة كبيرة للمقاومة في آدرار قد لا تقل تأثير عن استشهاد الأمير بكار، ووفاة الشيخ ماء العينين.

ومن الأسباب المؤثرة كذلك على المقاومة، غير الضـغط والتفوق العسكري الفرنسي، وصـول رجل الدين المتحالف مع فرنسا و الذي أصـبح بانتصـارها الأقوى (بابه ولد الشيخ سيديّ) إلى آطار يوم 23 يونيو 1909 قادما من بتلميت، يقول غوروا عنه "لم تقتصر جهوده على أحاديثه في المسـاجد، والتي كان لها تأثير كبير من أجل إلقاء السـلاح، بل إنه كتب عدة خطابات إلى القبائل المعادية نصـحهم فيها بالسلام مع فرنسا"[200].

المقاومة في الحوض: أولاد داود يرفضون التعاون .

لا يُنظر عادة إلى المصـــادمات والتحرشـــات التي وقعت في منطقة الحوض إبان التوغل الفرنسي على أنها مقاومة، بقدر ما هي عمليات موجهة أصلا ضد السكان المحليين المحتمين بالسلطات الفرنسية، كما تزخر بذلك تقارير الإدارة الفرنسية، لكن العكس هو الصحيح فقد كانت تلك الأعمال محاولة جادة لمنع سـيطرة الفرنسـيين على المنطقة، صـحيح أن شـح المصـادر

200 . جنرال غورو: المصدر السابق

التي تناولت تلك الحروب قد ســـاعد على اختفاء الكثير من المعلومات مقارنة مع مثيلاتها في أماكن أخرى، كان بها أمراء متنفذون وقادرون على جمع المقاتلين، وتزويدهم بالســـلاح، والإعداد للحرب بشـــكل أكثر تنظيما، ومع ذلك فإن ما حدث في هذا الجزء يشـــكل جزءا من رفض الاحتلال الذي لم يكتب له النجاح طويلا لعوامل عديدة، ومع ذلك فإن تجاوزه وعدم قراءته من جديد ووضعه في إطاره الوطني الصحيح والمشرف، من الأزمات التي لم ننجح حتى الآن في تجاوزها.

من هذه الخلفية سنقوم بعرض بعض المعطيات التي نعتقد أن البحث والتنقيب عنها سيساعد على اكتشـــاف حقائق كبيرة عن المقاومة في هذه المنطقة لم تكن معروفة خاصـــة وأن الذاكرة الشعبية لا تزال تحتفظ بقصص كثيرة عن بطولات "اهل الكدية المقاومة" كما تتحدث عن مآسي بعض الجماعات على يد قوات الاحتلال واضح أن دافعها هو الانتقام وعليه فإذا كان الإجراء المنهجي قد حتم علينا أن نبدأ حديثنا عن الجهاد ضـــد المســـتعمر من منطقة الجنوب الغربي، والشـمال على اعتبار أن لذلك ما يسـوغه من حيث كثافة المعلومات المتوفرة، ونظرا لطول مدة الاحتكاك مع الاستعمار التي خلقت جواً جعل تفاعل وتطور الأحداث فيهما ممكن الرصد، فإن ذلك لا يعني أن بداية إطلاق النار واندلاع المقاومة (داخل ارض البيضـــان) كانت من هناك وإن كان تحديد البداية الفعلية للتصادم المسلح بالزمان والمكان أمر صعب كما ألمحنا إلى ذلك من قبل.

يجدر بنا أن ننبه إلى أن المناطق الشـــرقية –الأقل حضـــورا في كتابات المهتمين بهذه الحقبة–إن لم تكن هي السباقة إلى العمل المسلح، فإنها على الأقل لم تتأخر إلى غاية التاريخ (المدرسي) الذي يعلم للأطفال (مقاومة أهل عبدوك) فقد اندلعت في هذه المنطقة أعمال مسلحة ضد الفرنسين، أسمتها المصادر الاستعمارية "بأعمال جماعات النهب" خلال نهاية تسعينيات القرن19. وذلك ما لا يتم الحديث عنه عادة، مما يعني أن ما قام به أهل عبدوك ليس معزولا عما سبقهم بل هم بمعنى من المعاني امتداد لحرب كانت تدور رحاها قبلهم، وفي نفس مجالهم الجغرافي، مقاومة سنجد أصداء الدعوة والتنظير لها مع كنتة في آزواد بحسب بول مارتي "في

سنتي 1897-1898 دعا كنتة آزواد إلى الحرب المقدسة (الجهاد) غير أن رسل عابدين لم يكللوا بالنجاح"[201].

وليست هذه الرسائل وحدها بل إن القادة السياسيين من المقاتلين كانت لديهم نزعة المقاومة ولم يكونوا يخفونها عن الفرنسين، ومن ذلك ما ينقله نفس المؤلف عن اعل بن الشين (زعيم قبيلة أولاد بوحمد أو محمد المحاربة) من أنه أو فد مندوبين لأحد زعماء مشظوف المختار الشيخ "وعرض عليه تحالفا هجوميا ودفاعيا ضدنا، لكنه رفض بشدة، وقد أدى هذا الرد إلى تهدئة النزعة القتالية لديه لبعض الوقت..وبعد ذلك فاجأنا بعقد اجتماع مع قبيلتي كلتصر الطارقية، وأولاد علوش الداودية حيث كان رئيساهما محمد انكونه، والشيخ ولد سيدي في حالة تمرد كامل ضدنا سنة 1896م.

وقد ظل هذا الزعيم حتى نهاية قيادته يبدى العداوة اتجاهنا إذ لم يكف عن ترديد ذلك بتبجح مثير للسخرية، كما قام بتصرفات معادية صارخة كتلك الدعاية المزعجة على الخصوص لدى قبيلتي لحمنات (مشظوف) وكنته، وظل على ذلك حتى وفاته عام 1908م"[202].

كما يتحدث عن زعيم قبيلة محاربة أخرى ويصفه بأنه كان ينوي القيام بتمرد ضدهم لولا سيطرتهم السريعة فيقول: "وقد لمع نجم أحمد سالم بن الكيمي في انيملان في الصراع ضدنا، وهو زعيم شرس يمكن أن يكون خطرا علينا بسبب عدائه السابق، وفي سنة 1912م كان بطل المقاومة المكشوفة".

إذن روح التمرد والرفض، هي المزاج العام الذي يسود مجتمع البيضان في تلك المنطقة ونظرا لتشابك وتداخل القبائل المخاطبة بهذه الدعوات الصادرة من رجال دين وزعماء قبائل محاربة وشخصيات عسكرية مشهورة، وعدم وجود حواجز تمنع من التواصل والتأثر، يجعل محاولة فصل هذه الأحداث عن سياقها عملا أشبه بالايدولوجيا الاستعمارية، في نظرتها إلى المجتمع البيضاني على أسس لا تأخذ في الاعتبار وحدته الثقافية، وروابطه السلالية التي تجعله لا يعرف معنى للحدود بين القبائل، لأنهم ينظرون إلى أنفسهم ككل واحد خاصة في

---

201 . - بول مارتي دراسات حول الإسلام وقبائل الساحل.
Poul Marty : Etudes sur l'Islam et les Tribus du Sahel, paris, Edition.ernest leroux 28rue Bonaparte (vie), 1930
202 . بول مارتي: نفس المصدر

الشأن العام من هنا فإن دعوة كنته هذه ومحاولات بن الشين، والتمرد المكشوف لابن الكيمي، وإن لم تجد الاســـتجابة المطلوبة، إلا أنها تعطى فكرة عن أن المزاج العام كان مع المواجهة المسلحة .

ملاحظة أخرى جديرة بالانتباه وهي أنه كلما كان النفوذ الروحي للزوايا المؤيدين لفرنســـا ضـعيفا، كان رفض الفرنسـين ومشـروعهم أقوى، وكانت هوامش المناورات التفاوضـية أوسـع، واســـتعداد المســـتعمرين للحوار أكبر، ويكون المخبرون المحليون أحذر، وهذه الحالة تنطبق بجلاء على أحداث هذه المنطقة، خلال الفترة التي سـبقت احتلالها والتحرشـات والصـادمات التي عرفتها نتيجة رفض بعض القبائل المحاربة الخضـــوع، حيث نجد فرنســـا في الكثير من الأحيان تخضع لشروط أولاد داود وتقبل شروطهم.

من جهة أخرى كانت دعوة قبيلة كنته إلى الجهاد مسبوقة بأعمال مسلحة ضد الاستعمار داخل المجال الترابي لموريتانيا الحالية، قادته مجموعات من أولاد داوود وحلفائهم من البرابيش وترمز [203] .

أما أولاد داود فهم إحدى القبائل العربية، الذين ســـكنوا منطقة الحوض مطالع القرن 16م خلال الهجرات الحسانية وتقع مضاربهم على تخوم ولاته منساحين جنوبا داخل بلاد السودان، ويتكونون من مجموعات جمعت السـيف والقلم، فمنهم محاربون أشـداء وفيهم فقهاء وصـلحاء كبار، ونظرا لمجاورتهم لبلاد الســودان المحتلة كان تصــادمهم مع الفرنســين شــبه حتمي، فاندلعت بينهم اشـــتباكات ومصـــادمات قادها أولاد علوش، وكانت مكلفة للجانبين رغم ندرة المراجع حولها، لكن من الممكن أن نفهم ضـراوتها بالعودة إلى التقارير الإدارية الشـحيحة التي تشـير إلى الدبلوماسـية الفرنسـية التي مُورسـت، وكذلك حرص حكام مالي من الفرنسـيين على عدم تصـعيد الوضـع عسـكريا، والحديث عن الاسـتعانة بمخبرين محلين، واسـتغلال أصـحاب النفوذ من الزوايا للتهدئة، كما يمكن أن نفهم من خلال التحصـــينات التي أنشـــئت على طول الجبهـة (مركز لانبالا وليرا) ابتداء من عام 1895م، للحد من هجمات القبائل المعادية للتوغل.

---

[203] القبيلتان الأخيرتان توجدان حاليا في جمهورية مالي ولا وجود يذكر لهما في الحوض بشرق موريتانيا

إضافة إلى وضع نظام الاستكشاف عام 1896م على الخط المسمى الآبار (رأس الماء- باسكنو). "ولما استمر القتال والمصادمات وتم التأكد من عدم إمكانية استتباب الأمن، فتحت السلطات الفرنسية قنوات التفاوض مع الشيخ بن سيدي زعيم أولاد علوش الذي يقود حركة الرفض"إن الشيخ بن سيدي يحدد مع من من الحكام يتفاوض.. وتوجهت مفاوضاته على التوالي إلى كوندام، وسّوكولو، وسومبي، متذرعا بأنه يفضل التفاوض مع هذا الحاكم وليس مع ذلك"[204].

وتدور المفاوضات حول وقف الغارات عن الخطوط الأمامية داخل بلاد السودان، وغالبا ما يتحدث التقارير عن تلك الغارات باعتبارها موجهة ضد الزنوج المحميين من طرف الفرنسين، وليس باعتبارها موجهة ضد الفرنسين، علما بأن المراكز العسكرية هي مسرح العمليات.

عنصر آخر ملفت وهو أن الشيخ بن سيدي لو لم يكن في موقف يمكنه في تلك الفترة من مواصلة الغارات، ورفض الحماية الفرنسية، لما استطاع تحديد مع من يتفاوض؟ أو على الأصح مع من يفاوض ممثلوه، إذ كان يبعث من ينوب عنه في المباحثات مع الفرنسين، وكان "يناقش الشروط نقطة نقطة، وكان يفاوض عن طريق وسطاء يعلنون في آخر لحظة أنهم لا يستطيعون الالتزام باسمه"[205].

ويبدو أن الفرنسين لم يكونوا في موقف قوة خلال هذه المفاوضات، حيث أوقفوا "الدوريات لإفساح المجال أمام التفاوض"، ومع ذلك لم تُوقف المقاومة أعمالها المسلحة، ربما للضغط أكثر من أجل تقوية الموقف التفاوضي، فشنوا هجمات موفقة على الفرنسين "خلال شهر ديسمبر 1896 –وفبراير 1897 وتصاعدت الهجمات ضد الحاميات الفرنسية، مما دفع حاكم تمبكتو إلى إرسال الدوريات العسكرية مجددا، على طول خط الآبار" وتصل المقاومة ذروتها في هذه الفترة فيصفها بول مارتي بالقول" لا يمكن أن نتصور كم كانت الأجواء مشحونة في هذا الجزء من السودان".

---

[204] . بول مارتي، نفس المصدر .

[205] . بول مارتي، نفس المصدر

كما قام الفرنسيون سنة، 1899 بحملة احتلوا فيها قرية باسكنو، فرد أولاد داود بهجوم على "قريتي تندراوين وتكوبي الموجودتين تحت حمايتنا" مما دفع الفرنسين إلى إرسال القائد المكلف بالســـاحل لزيارة قرية باســـكنو المحتلة، وبمجرد إطلاعه على الأوضـــاع "بادر إلى القيام بمفاوضات جديدة مع الشيخ بن سيدي..ومقابل ذلك كان علينا أن ننسحب من باسكنو.. وفي النهاية انسحب القائد منها بعد أن أشعلها واختطف مجموعة من أهل الحاج لحسن"[206].

هذا الانسـحاب واختطاف مدنيين دليل على أن الموقف الفرنسـي كان صـعبا على الصـعيد العسكري، ومن أجل حسمه دون خسائر في صفوف قواتهم تم اللجوء إلى الدروع البشرية، في ظل تفوق المقاومة على ما يبدو خلال هذه الاشـــتباكات، حيث "كان الوالي لا يريد البقاء في باســكنو لأنه لا يمكن أن يخوض عملية غير محســوبة العواقب، فالحدث أظهر كم هي قادرة قبائل البيظان على المقاومة ضد جنودنا المنضبطين ومدافعهم طويلة المدى".

هذه الاشتباكات والمناورات التفاوضية الصعبة على الطرف الفرنسي في هذه المرحلة، جعلت مجلس الحرب الفرنســـي "يعين لجنة مكلفة بالبحث بين –ليرا –وراس الماء– عن مكان ملائم لمركز عسـكري صـغير حيث اختيرت منطقة بوكندوز ، لكن أحداثا حالت دون التمركز في هذه النقطة "زيادة على ذلك، فقد حُطمت الآبار من طرف المقاومة " وأخلي المركز الذي يســـمح بمسح المساحة مابين ليرا– وسومبي ولم تعد فيه فرقة بمعناها الحقيقي"[207].

ويتواصـل الضـغط والهجمات على الحاميات الفرنسـية، وعلى طول الجبهة "انطلقت أعمال العنف بشكل واسـع، بينما منعت أحداث تنمبكتو المتتالية من انطلاق الدوريات العسكرية على خط الآبار. ".

وهكذا أُرغم المسـتعمر ثانية على اسـتئناف المفاوضـات التي لم تكلل بالنجاح، بسـبب حنكة ومهارة الشـيخ بن سـيدي. وفي هذا الصـدد "بدأت المفاوضـات مجددا وأخذ الشـيخ ولد سـيدي يماطلنا من جديد متمسـكا بنهجه السـياسـي العام، فمن جهة يتابع عمليات الإغارة، ومن جهة يقدم للولاية وعودا بالخضـوع وتنفيذ شـروط السـلام، وقد وصـلت المفاوضـات إلى باب مسـدود

206 . بول مارتي، مصدر سابق

207 . بول مارتي: نفس المصدر

عند ما اعتقل مفتاح الخير... ومجمل القول فإن أولاد علوش "الشـــرســـين، الأحرار، الرحل، والأخطر، ظلوا مارقين تماما فكان الشيخ ولد سيدي يستضيف أعداءنا، الحاج بكنو (زعيم بوار من الفلان) وانكونا (زعيم الطوارق)، ويحاول أن يجعل القبائل الخاضعة تثور ضدنا، ومن هذه الفترة فإن عمليات السـطو التي تقع يقوم بها أفراد من قبيلته، وفي نفس الوقت يظل الشـيخ ولد ســـيدي على تيهه القديم وكانت هذه هي الحالة التي بقيت كما هي إلى حين وفاته حوالي أكتوبر 1897،وظلت على حالها مع ابنه سيدي الذي قاد القبيلة من بعده"[208].

ولم يكن أهل بوردة (من القبائل الداودية) بعيدين عن أحداث الســـاحة هذه، إذ لم يعترفوا بالمعاهدة التي وقع بن زعيمهم مع الفرنسيين، بل ألغوها وحملـوا السلاح. "ففي 15 ابريل عام 1897 قام الغلة سيدي محمد بن أرشق زعيم القبيلة –الذي منعه سنه وإعاقته من أي حركة– . بتوقيع معاهدة سـلام في تنمبكتو مع القائد كلود شـين. "وما إن عُلم بالمعاهدة حتى ثارت ثائرة أهل بوردة عليه وحاولوا قتل عميلين للاسـتخبارات الفرنسـية، هما الشـيخ ولد عمران الايديلبي وسـيدينا ولد سـويدي العلوشـي. وقد فشـلت المحاولة، وفي عام 1899 هجموا مرتين على الدوريات العسكرية، وأخيرا قتلوا ايديلبيا كان يعمل دليلا للإدارة في رأس الماء "

وتتحدث التقارير الفرنسـية، عن المعاملة الوحشـية التي واجهت بها قوات الاحتلال المدنيين من أهالي المقاومة، "هذه الأعمال علاوة على علاقاتهم الوطيدة مع أولاد علوش جعلتهم ولعدة مرات يتلقون قمعا شـرسـا، وقد صـودرت منهم مرات عديدة إما أغناما، وإما قوافل ملح". ولا شك أن تلك كانت إشارة بسيطة تدل على أن أمورا بشعة قد حدثت فعلا وتم تغييبها.

وأما عن ترمز وزعيمهم الصـديق بن الشـيخ، الذي شـارك في "كل الغارات التي قادها انكونا زعيم قبيلة كلنصـــر الطاركية مابين 1894–1896 "عند ما طلبوا منه الســـلام أجاب بكل صـراحة في نص رسـالة إلى حاكم تنمبكتو "إن ما منعني من أن ادخل في علاقات معكم ليس إلا الطريقة التي عاملتم بها البرابيش وأولاد بوردة والوســـره.. لقد انتزعتم منهم أموالهم وقتلتم رجالهم، إذا كنتم تريدون مني السـلام فإني أمنحكم إياه على شـرط أن لا آتيكم وأن لا تأتوني،

208 . بول مارتي، مصدر سابق

وأن لا أدين لكم بأي شيء، إذا قبلتم هذا ابعثوا إلى عاجلا بقبولكم، وإذا رفضتم أخبروني بذلك عاجلا، والسلام على من اتبع الهدى".

رسالة رغم قصرها فإنها تحمل الكثير من الدلالات والإشارات حول ما فعلت فرنسا حتى مع الموقعين على السلام من غير القبائل المحاربة، مثل الوسره الذين جاء ذكرهم في الرسالة وهم ليسوا من حملة السلاح، وإن كنا لم نتمكن من الوقوف على ما فُعل بكل الذين أشارت الرسالة إلى ما لحقهم من الأذى، كما حملت الرسالة في مضمونها تهديدا مبطنا في شرطها الأول من أنه غير مستعد لدفع العشرات وأنه مستعد لمواجهة الاحتمالات كلها.

وجاءت نهاية مصادمات أولاد داود المسلحة الرافضة للاحتلال، وكذلك مناوراتهم التفاوضية ابتداء من 14 من سبتمبر 1905 عند ما "طلبت مجموعة العثمانه السلام مع الفرنسين بعد أن قتل حننه شـــقيق ســـيدي ولد الشـــيخ زعيم القبيلة أحد أعيانها[209] وفي يوم 1 أكتوبر طلبت مجموعة مختارة الخضـــوع عند رأس الماء، وفي 11 مارس 1907 طلب زعيم أولاد علوش السلام بعد أن لم يبق معه غير مجموعتي لكناكنة والبرابيش.. وقد قال هو نفسه إنه لم يخضع لنا إلا لأننا أقوى منه بالفعل"[210]. وبموت سـيدي ولد الشـيخ عام 1913 تزعم أخوه حننه قبيلة أولاد علوش أهل الأبل "خلال انتخابات أجرتها جماعة القبيلة على خلفية اقتراح تركه سـيدي نفســه، وبذلك يعطى آخر درس برهن على نضــجه كزعيم حقيقي بعد أن أقصـــى ابنه الأكبر (دشق) المعروف بأنه شاب سطحي، وضعيف غير قادر على قيادة هذه القبيلة المحاربة.

كان حننه احد أبناء العائلات العربية الحاكمة الذي تم تجنيده من طرف الاســـتعمار.. وبوصفه رئيس فرقة عسكرية من أولاد علوش، فهو واحد من مجندي البيضـان المعروفين بكوم (كوميات) الذين أنشأهم الضابط بوسيد1903... وقد تألق حننه في مختلف المهام التي قامت بها الفرقة، وهو يقدم للفرنســين خدمات معتبرة" ويواصـــل التقرير في ذكر إنجازات هذا الرجل وخدماته للمشـروع الاسـتعماري قائلا "منذ ذلك التاريخ لم يبدو منه إلا ما يرضـــي، ومنذ وفاة حمودة ولد إبراهيم[211] النشـط الجلف بقي حننه وحده من أبناء المسـتعمرة، من يسـاعدنا بشـكل

---

[209] يدعى هذا الزعيم القتيل الشيخ ولد سيد أحمد الحسن

210 . بول مارتي: نفس المصدر السابق

[211] زعيم قبيلة لحمدات المشظوفية

فعال.. كما يعتبر حننه أول زعيم من بيضـــان كل إفريقيا الشـــمالية يمنح ويقلد بوســـام فارس الاســـتحقاق الشـــرفي"[212].ومع نهاية هذه الأحداث كان الحوض على أبواب حركة أخرى مثلها أهل عبدوك من قبيلة أهل سيدي المشظوفية.

أهل عبدوك يقودون مقاومة الحوض الأكثر عنفا وزخما

تزامن ســـقوط آدرار ســـنة 1909 مع مقتل أمير مشـــظوف القوي محمد المختار بن محمد محمود في ظروف غامضـــة جدا، لم تســـعفنا حتى الروايات الشـــفهية بتفاصـــيل مقنعة عنها، وبعيد الاشتباكات التي قادتها قبيلة أولاد داود وحلفائها جاء دور قبيلة أهل سيدي. هذه القبيلة التي لا يعرف جل القراء الموريتانيين عنها الكثير، والتي قادت الكفاح المســـلح ضـــد قوات الاحتلال الفرنســـي في العقد الأول من القرن الماضـــي، في الشـــرق الموريتاني وعبر مســـاحات شاسعة امتدت من ضفاف نهر النيجر شرقا وحتى هضاب النعمة في الحوض غربا وصحـــارى تكانت، وبلاد كوسات ولانبالا جنوبا.

تعود هذه القبيلة إلى أصـــول مشـــظوفية صـــميمة، وهي الجناح الأكثر بأســـا في مشـــظوف حسب حوليتي ولاته والنعمة عند ما تتحدثان عن حروب مشظوف وتصـــدي هذه القبيلة لغارات القبائل القادمة من الشـــمال، وكذلك ما ينقله عنها المؤرخ الفرنســـي بول مارتي الذي يذهب إلى أن أهل لمحيميد (أمراء مشـــظوف) كانوا مرغمين على مداهنتها"ينحدر أهل ســـيدي من أصـــول مشظوفية صرفة، فهم من سلالة سيدي ولد محم ولد بكو ولد بوهماد، وكانوا على الدوام جناحا مستقلا ويكنون احتقارا عميقا لأهل لمحيميد، وبما أن أهل سيدي هم أفضل المحاربين في عموم مشظوف، كان على أهل لمحيميد أن يقبلوا بتمردهم ونسبية خضوعهم.

ينقسم الأفخاذ الثلاثة المكونة لأهل سيدي.. إلى أهل أحمد ولد سيدي، أهل أوبك ولد سيدي وأهل أعمر "أو أعيمر" ولد ســـيدي، ويتم اعتماد الزعيم من الفخذ الأول وهو الذي يقدم الخط العام للقبيلة، ومع ظهورنا في الساحل وفي تمبكتو نشأ تياران في القبيلة أحدهما بقيادة المختار

212 . بول مارتي: نفس المصدر السابق

ولد بيب بن عبدوك وهو يفضل أن يعيش بسلام مع الفرنسين، والآخر بقيادة محمد بن عبدوك وهو يفضل الحرب مع الفرنسين[213].

ويقول إن جناح المختار اختلف مع زعيم مشظوف فارتحل شرقا وخضع للحماية الفرنسية، وأنهم –أي الفرنسيون– "أوشكوا على تعينه زعيما لتجمع قبلي يضم أولاد عـــلوش وترمز" ويقول إن المختار بن بيبه هذا "نجح في مرافقة أول قافلة من تمبكتو إلى أن أوصـــلها إلى النعمة مرورا بباسكنو"، وأن تلك الحملة "لم تثر غضب محمد المختار بن المحيميد" بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يذكر أنه "خطب في مشظوف يدعوهم للخضوع لفرنسا" وأنه ظل زعيما لمدة أربع سنوات إلى أن مات سنة 1912 كما مات قبله في نفس السنة ابنه فاليلي الذي كان المرشح لخلافته.

لكن الطائفة الأخرى التي يتزعمها محمد بن عبدوك حملت الســـلاح ولم تبد أي اســـتعداد للتعاون مع الفرنسـين، ورغم أن التقارير الاستخباراتية الفرنسية تصفهم بأنهم نهبة يرعبون الآمنين، وأنهم يخشون الأمن (الفرنسي)، إلا أنها تتناقض عندما تؤكد أن القبائل كانت تتستر عليهم، وأنهم كانوا يحصـــلون على أخبار جميع تحركات الوحدات المعادية،..." إن محمد ولد عبدوك قام بمحاولة "تأليب مشـــظوف وتبديد تأثير زعيم القبيلة اعل بن محمد محمود الذي يعضد جهودنا... ودعا محمد بن عبدوك إلى مناهضة الفرنسين في الحوض، ولاستعطاف جميع مشظوف إلى قضيته، ذكر لهم أن نية الفرنسين هي أن تسلمهم عربونا لأولاد غيلان' وهم أعداؤهم التقليديون فينهبونهم".

الملفت في هذه الفقرات هو قوله "تأليبه لمشظوف ضد أميرهم" ترى هل يعني ذلك أن اغتيال محمد المختار كان مدبرا وعليه كانت دعوة بن عبدوك تجد آذانا صاغية في صفوف أنصاره؟ أضف إلى ذلك قوله من أنهم "سيقدموننا عربونا لأولاد غيلان" الذين كانوا ضمن المجموعة التي قتلت الأمير خاصة أن بول مارتي يصرح بأن دعاية أهل عبدوك "ضد فرنسا لقيت آذانا صاغية مما جعل متابعة الانفصاليين جد صعبة، فالكثير من البيظان معجبون بخطاب محمد بن عبدوك". ولا تخفي الوثائق الفرنسية أن العامة من الناس كانوا مؤيدين لأهل عبدوك يمدونهم

213 . بول مارتي نفس المصدر

بالأسلحة والأغذية ودواب الركوب ويضمنون لهم اللجوء في أحيائهم "أو يخبرونهم بتحرك فرقنا التي تتابعهم".

مرت مقاومة اهل عبدوك بمرحلتين الأولى مقاومة سرية بدات حسب التقارير الفرنسية سنة 1911 واتسمت بجمع المعلومات عما ينوي الفرنسيون القيام به من احتلال البلاد، وجمع العتاد والاستئناس بفتاوى فقهاء الرفض، واستمزاج مواقف القبائل على اختلاف مشاربها،وقد قُتل خلال هذه المرحلة عدد من المجندين، اعتبروا مفقودين في تلك الصحاري والاودية الوعرة، التي يصعب العثور فيها على المفقودين خاصة وانهم زنوج لا معرفة لهم بمسالك الأرض وغير معتادين على مناخها شديد البرودة، وشديد الحرارة وفقاً لفصول السنة.

وقد اعتقل محمد ولد عبدوك من طرف السلطات الفرنسية على خلفية هذه الاحداث ونقل إلى تمبكتو لمحاكمته هناك، غير أن الجنرال بونتى اعتبر التهم الموجهة له لا تشكل جرائم خاصة أنها سابقة على احتلالهم للمنطقة، فاقترح تقديمه إلى حاكم مقاطعة ولاتة الذي أفرج عنه وتخلى عن مقاضاته، ثم اعتقل مرة ثانية رفقة بن اخيه فاليلي وابنه الزين بتهمة قتل مجند عند مكان يدعى الفرفرات قرب بئر أشميم شرق مدينة النعمة، وصادروا ممتلكاته التي منها بئر أشميم، وبُرأ الاثنان، ونُفي محمد إلى مدينة كاتي قرب باماكو عاصمة جمهورية مالي، ولم يمض بها سوى فترة قصيرة حيث أفرج عنه، بسبب نجاح ابنه الزين في استراجع قطاعان كثيرة من الإبل استولى عليها غزاة قادمون من الشمال بعد أن عجزت فرنسا عن ردها علما بأنها لقبائل محمية منها، فقاد الزين بن عبدوك فرقة من مقاتليه وطارد الغزاة حتى استرد الابل قرب الحدود مع الجزائر في مكان يعرف ببئر البركة، فعرض عليه النقيب كاربيو التعاون مع الفرنسيين فرفض ، فعرض عليه تلبية أي طلب يطلبه منه، فقال له الإفراج عن الوالد ورد الممتلكات، فافرج عن محمد ولم يرد الاملاك المصادرة.

بداية المعارك المباشرة

جاءت انطلاقة الشرارة الأولى للمواجهة المسلحة المباشرة عند ما قررت فرنسا تجميع القبائل التي تملك الإبل في مكان يدعى "البدع" في الشمال الغربي لمدينة النعمة، وطال التجميع فصار اهل عبدوك يذهبون بابلهم اللانتجاع خفية، وابلغ الواشون الفرنسيين بأنهم يوجدون

بمكان يدعى (إنبيت إعل يرعاه جنوب شـــرق تنبدغة) فبعثوا بتاريخ 12 فبراير 1912 ثلاثة مجندين لاسترجاعهم بالقوة،والمجندون الثلاثة هم اعبيد الرحمن العلوشي، وقد انهال على الشيخ بالضرب،والثاني يدعى سليمان سيبي، ومجند اسود لم نعثر على اسمه،فاستضافوهم وقدموا لهم لبناً وشرعوا في شواء لحم لهم، واثناء ذلك اطلق عليهم الشيخ النار فقتل أحدهم وجرح الثاني، وفر الثالث وهو العلوشي،فطارده الشيخ وتقول الرواية الشفوية إن الشيخ قال له لن اتركك حتى أذبحك بـــــــ"موسى" هذه التي صنع لي ولد اغريغل، وأغرب ما في هذا الأمر أن هذه الأسرة اختفت بدورها، فلم نعثر على بقايا منها شـأنها شـأن الكثير من الذين اختفوا على يد سـلطات الاحتلال وأعوانهم المحليين.

وخلال مطاردة الشـــيخ للمجند خاف رفاقه فتمكن الجريح من ركوب جمل وفر به فعثر عليه رعاة لسيد امحمد بن لمحيميد[214] وسلموه له فقام الفرنسيون بعقد اجتماع مع اهل لمحيميد وقالوا لهم ان هذه العملية ليست حادثا عارضاً وإنما هي شرارة تمرد مسلح كان اهل عبدوك يخططون له منذ دخول الفرنسيين، وهو امر لم يخفه محمد ولد عبدوك قط، فتم اسدعاء محمد ولد عبدوك (والد الشـــيخ،) وبنه الزين وبن اخيه فاليلي بن المختار بن عيدوك، من طرف الفرنســـيين، وطلبوا منهم احضار الشيخ.

ذهب الشيخ إلى آضـاة تسمى ادياذة (بها قبر العبد الصـالح الشيخ محمد فاضـل بن مامين والد الشـيخ ماء العينين) في منطقة بها اودية وغابات كثيفة تصـلح للاختباء، ولما وصـلوها وجدوا منمين من قبيلة مشـظوفية فخذ (الشـومات) ، فسـألوهم عن الشـيخ، فاخبروهم بوجوده بوادي (اسبيعي) القريب من المكان فبعثوا اخاه في طلبه والتقاه واجتمع الاربعة فقال لهم الشيخ كنا منذ فترة قد عزمنا على جهاد النصـــارى، وتعلمون أن معنا العديد من فتاوى فقهاء ولاتة، وواد جكراكه، واهل احمد الجيد،وفقهاء تنواجيوي وقد اتفقوا على وجوب الجهاد أو الهجرة، فقالوا له صـدقت لا يوجد احتمال آخروفوق (بياظ ادياذة) اتخذ أهل عبدوك قرار المواجهة العسكرية مع الفرنسيين.

---

[214] أحد أمراء قبيلة مشظوف كان مناصرا للفرنسيين شديد الكره للمقاومة.

بعد الاجتماع قرروا التوجه إلى واد جكراجه، وبلغ الفرنسيون ذلك عن طريق مخبيرهم، فأعدوا قوة من 190 جندياً وامروها بالتحرك من النعمة وقد أرسـل "الشـريف مومنه[215] النعماوي الى المقاومة يخبرها بأن النصارى تحركوا نحوها[216]"

وصلهم الخبر في الوقت المناسب فاختاروا تامورت زروقو جنوب شرق تمبدغة مكانا مناسبا للمنازلة، وتترس مقاتلوهم في الوادي، ومن حسـن حظهم أن الغزاة قدموا من الجانب الشـمالي للوادي عبر مسلك مكشوف يقود مباشرة إلى كمائن المقاومة، وفجأة انطلقت صيحات التكبير قبيل شروق الشمس كان المجاهدون في المكان المناسب وأسفرت المواجهة عن هزيمة كبرى للفرنسيين حيث سقط العديد من القتلى [217].

بعدها انسـحب المجاهدون جنوبا وتمركزوا عند وادي جيرر على بعد سـبع كيلو مترات من مدينة عدل بكرو الحالية،"حلوا ضـيوفا على قبيلة الرماة[218] بعد فترة توجه الشـيخ لوحده مسـتطلعا وما ان وصـل ابياظ أتيلة " مدينة عدل بكرو حاليا" وصـعد على شـجرة في مكان مكشـوف حتى تفاجأ بقافلة من الغازاة قادمة من النعمة، متوجهة إلى النوارة المقر الرسـمي للفرنسيين، وتضم فرنسيين (2) و ثمانية مجندين يقومون بالحراسة،ولما جن الليل قاموا بجمع المدافع في مكان واحد، وفرقوا الحراس المسلحين على الجهات، ولما اشتد الظلام وناموا نزل الشيخ عن الشجرة وتسلل إلى المدافع فأخفاها في مكان أمن ثم عاد وخالس الحراس حتى انقض عليهم واحدا واحدا وقتلهم بخنجره، وايقظ الفرنسـيين بإطلاق نار كثيف، هبا مذعورين فشاهدا الحراس قتلى فاصابهم الهلع فقتلهما.

سمع زملائه اطلاق النار وكان الصوت من جهة واحدة فتأكوا أنه ليس اشتباكا رغم انه غير عادي، أمرهم محمد ولد عبدوك بالتريث وعدم البحث عن الشـيخ، ولم يمض كثير وقت حتى جاءهم وصحبهم ليأخذوا الغنائم. كانت عملية أبياظ آتيلة ثاني عملية عسكرية لهم، بعدها التحق العديد من ابناء القبائل بالمقاومة التي اتجهت شـمالا إلى "الدخلة البيظة" وهي بين

---

[215] هو زعيم مجموعة أهل النعمة مولاي عبد المومن بن الشيخ مولاي عبدالمالك بن مولاي اسماعيل المشهور ب(مومن ولد الشيخ) كان نصيراً للمقاومة.

[216] الاستاذ الخليفة ولد التاركي محاضرة في مهرجان ولاتة 2014

[217] المقصود المجندين

[218] الرماة أو الرمه كما تنطلق باللهجة قبيلة محاربة تسكن في مقاطعة أمرج.

بوطليحية ودندارة شـرق النعمة، وكانت عيون الفرنسـيين تراقبهم فباغتوهم عندها وقت القيلولة وكان يوما عسـيراً على المقاومة اسـتشـهد فيه اعلاتي بن عبيد بن حمادي من (قبيلة أهل الطالب) والعديد من المقاومين وقتل سـبعة مجندين وقد شـعرت المقاومة بعد هذه المعركة بخطورة خط التلغراف بسـبب سـرعة ابلاغه عن تحركاتها فتوجهت نحو "خويبت رأس الماء" حيث الخط اللاسلكي وحطمته وفي ذلك اليوم يقول محمد ولد احمد اعبيدي:

عنك يالسلك امش كوله * لخويب اخلات وانكطع موله * ولا بتات انولوله.

كما تمكنت إحدى مجموعاتهم من الاسـتيلاء على مقر المواصـلات السـلكية في أبورنا باد وبعد هذه العملية عادوا إلى السـلسـلة الجبلية التي تربط النعمة وسـايلة قرب "إما رزيكة بتفخيم الزاء" التي اصبحت شبه مقر لهم نظرا لوعورة تضاريسها.

حل الشـيخ متخفيا ضـيفا على زعيم النعمة مومنه مسـترقا الاخبار ومتلمسـا المؤن، جمعته الصدفة بمأدبة عشاء يقيمها زعيم القرية على شرف كبار الجنود، انزله في غرفة ملاصقة لبيت الضـيافة فتمكن من سماع أحايث المجندين خاصـة عن وجهتهم الصـباحية حيث سيقتفون أثر المقاومة التي أخبروا عن مكان وجودها، من الطرف أن كبير مجندي البيظان، المدعو باب بن مكحلة قال مخاطبا زعيم النعمة (زايرك يشـريف المتعدل، يعملنا نلتقي غدا مع عويل اهل سيدي نعلمهم خبيط لعرب وساعطيك بكرة من الإبل زركة) فقال له مومنه ضـامن لك على الله ان تلقاهم، والشـيخ يسـتمع للحديث، فقال له مومنه أين تبحثون عنهم ؟ فقال مكحلة عند طلوع الفجر سنصعد البهكة، وندخل اخنك سايلة، حيث يذكر انهم يوجدون.

ارتحل المقاومون ليلا ونزلوا بين إمارزيكة والبهكة ونصـبوا كمائنهم، عند المضـايق وعند طلوع الشمس وقع الغزاة في الكمائن ودارت المعركة وقتل ضابط فرنسي برتبة نقيب، وكسرت رجل زعيم قبيلة أولاد ملوك المشظوفية سيدي ولد اسويرة.

وجاء في تكلمة الشـيخ مولاي عبد المالك بن مولاي الحسـن الملقب (باب حسـن) لحولية النعمة "وقعة الطليح النعمة يوم الأربعاء الخامس والعشـرين من الربيع النبوي 1334 الموافق 1913م دامت المقاتلة بينهم سـاعتين من النهار، فمات في ذلك اليوم من أهل سـيدي،احمد

ولد لعمش وسـيد احمد بن محمد بن عبدوك، وأحمد وجرح أخوه الزين،ومن عيال النصـارى مات باب بن مكحله، وبوب بن السلاوي،.وعثمان جلو والقاسم باه "

ومن مواقف مومنه بن الشـيخ زعيم مدينة النعمة الموالية- للمقاومة ما اخبرني به الاسـتاذ مولاي احمد بن حسني ناقلا عن مجند في صفوف القوات الفرنسية، قال أخبر الفرنسيون مومنه بأن سـكان القرية يقدمون الدعم المتمثل في القرب والشـم -أي التبغه- الذي يزدرع محليا للمقاومة، فجمع السكان وخطب فيهم أن لا يتعاملوا مع اهل "الكدية" وان من فعل ذلك سيعاقب، ولما نامت الأعين صـار يذق أبواب انصـاره ويقول لهم ما طلبت منكم لا تفعلوه قدموا لهم العون،وقال إن المجند اخبره بأنه مر على سـيدات في احد الحقول يتحدثن باللهجة البنمبارية، تقول إحداهن لقد دق علينا الشريف البارحة وامرنا بان نواصل دعم اهل الكدية، وقد تكتم المجند بدوره على النسوة اللائي لا يعرفن انه يعرف ما تحدثن به، وتكم كذلك على الشريف مومنه.

بعد المعركة آنفة الذكر وربما بسبب قربها من النعمة حيث يوجد الفرنسيون تحركت المقاومة جنوبا حتى وصـلت مكانا يدعى انيوط،فقضـوا به أياما وصـلهم خبر أن قافلة تحمل البريد غادرت النوارة متجهة نحو النعمة، فنصبوا لها كمينا بين كوصة وانيوط فوقعت فيه فقتلوا منها سبعة مجندين وفر ثمانية آوتهم بعض القبائل الموالية للفرنسيين حتى اوصلتهم للنعمة، وقد غنموا من هذه القافلة اموالا كثيرة وذخائر والكثير من البنادق المتطورة كانت في طريقها إلى النعمة، ثم عادوا ثانية إلى الشمال الشرقي للنعمة حيث التحصينات الجبلية،وتمركزوا بموقع يسمى (إنياية) على بعد 55 كيلو شمال شرق النعمة في وسط غابات تعرف بالجنكة،فأرسل الفرنسيون عدة فرق لتعقبهم، وكان المجاهدون السريون بدورهم ينشطون في جمع المعلومات الممكنة عن التحرك الفرنسي فاخبروهم ان مجموعة تضم ثلاثة فرنسيين اتجهت نحوهم ،فنصبوا لها كمينا قتل فيه خمسـة مجندين والفرنسـيين الثلاثة،واسـتشـهد في هذه المعركة احمد ولد الحداد من فخذ اهل اعمير من اهل سيدي.

وقد تعرضـت المقاومة لحصـار يومي 13-14 مارس 1914من طرف فيلق ولاته بقيادة النقيب كاريو وكتيبة الجمالة المسـتقدمة من تيشـيت، تحت قيادة النقيب ماركتين، واسـتطاعت المقاومة فك الحصار بعد أن فقدت الكثير من مقاتليها.

بعد هذه الأحداث اســتطاعت المقاومة بفضــل خلاياها النائمة ضــم الكثير من المقاتلين، وقررت الابتعاد عن مناطق التماس من اجل التدريب والتجنيد، كان ظهيرهم الأبرز يمثله في النعمة مومنه ولد الشـيخ، وتنواجيو بوخزامة، وجماعة أهل آف من الطريقة الغظفية الشـاذلية، واهل احمد الجيد من القلاقمة.

كانت مقاومة أهل الحوض تعتمد أسلوب نصـب الكائمن مستفيدة ومستغلة للتطاريس حيث الأودية والغابات الكثيفة والهضــاب وهو ما قلل الخســائر البشــرية في صــفوفها طيلة فترة مقاومتها، وكان الفرنسيون يعتمدون أسلوب المباغتة في المناطق المكشوفة، وكانت حاضنة المقاومة الشعبية واسعة ومنتشرة في جميع المناطق.

ومن أيام أهل عبدوك المشهورة مع الفرنسيين يوم شلخت الصنادرة،حيث تحركت فرقة من الحامية الفرنســية متجهة نحو منطقة "كوش" حيث يحظى "أهل الكدية المجاهدون" بحاضــنة اجتماعية وبتضاريس جغرافية تضمن لهم عنصر المباغتة والتخفي بسبب كثافة الغابات وكثرة الأودية، إضــافة إلى مرور كل الطرق التي يســتخدمها الفرنســيون المتجهون إلى الحوض والقادمون من السودان المحتل عبرها.

كان المقاومون يتمركزون عند مكان يدعى بوناظر جنوب شــرق النعمة على بعد 60 كيلو تقريبا، حيث التقى رجل اسـتطلاع المقاومة "الشـيخ" بقافلة قادمة من النعمة، وهم لا يعرفونه، سالوه هل سمعت للمقاومة ذكرا، فاجاب ما الامر؟ قالوا له في النعمة حديث عن حشد عسكري ســينطلق للبحث عنهم ومباغتتهم، فرد عليهم هم قريبون منكم عند بوناظر اخبروهم، وانطلق الشـيخ باتجاه مداخل النعمة متحســسـا، بلغ الخبر المقاومة فاتبعوه وتجمعوا عند مكان يسـمى "كلب الجمل الكاف تنطق مثل الجيم المصرية "أي قلب الجمل " قرب سايلة، وهو مرر اجباري للقادم مع طريق امذنيبة المدخل الجنوبي الشرقي لمدينة النعمة، كان موقعهم العسكري ممتازا، باغتوا القوة الفرنسية التي انهزمت مخلفة بعض القتلى و العديد من مدافع الورور[219].

وفي أحداث عام 1336-1916 ينقل الشــيخ مولاي عبد المالك في تكملة حولية النعمة "وقعة دنداره التي جرح فيها من الجانب الفرنســي حننه بن الشــيخ بن ســيدي بن هنون

[219] الورور تسمية محلية تطلق على المدافع الأوروبية الصنع ذات الطلقات السريعة والبعيدة.

العلوشـــي[220]، ومات فيها من عيال النصـــارى جواف بن اعل الدقيق البرداوي، وعلو قمه المعروف الذكر ،وجندي فوتي" وهم من المجندين.

يلاحظ في هذه الفترة تصـاعد العمليات وتوالي الهجمات على قوافل تموين الفرنسـين القادمة من السودان الفرنسي (مالي). واتساعها وتغطيتها لمساحات واسعة خارج بلاد الحوض. "ففي 16 فبراير 1915 هاجموا البريد المتجه إلى تمبكتو.. وفي 21 منه هاجموا قافلة قادمة من النواره متجهة إلى ولاته، وقد أبادوا فرقة يوم 23 فبراير تتكون من عشـــرات الرماة يقودهم عريف قادمة من انيافونكي"[221].

معركة كوسي لكلال القاسية

نظرا لاعتماد المقاومة على الكمائن إدراكا منها لتفوق العدو عددا وعدة اختارت بعد الاحداث آنفة الذكر مكانا معزولا بعيدا من الحوض على اطراف ازواد يسمى كوسي لكلال للتدريب،في هذا المكان التحق بهم دشـق ولد سـيدي ولد الشـيخ بعد فشـله في قتل عمه حننه ولد الشـيخ الذي اصبح زعيم أولاد داود،واخبرهم ان الطريق إليهم آمن ولا ذكر فيه لتحرك فرنسي.

فاطمئنوا وانقســـموا إلى ثلاث مجموعات واحدة تدرب، والثانية ذهبت لاســـتجلاب بعض الحـاجات، والأخرى ذهبت لتنظيف الملابس، وعلى حين غرة هاجم الفرنســـيون مجموعة التدريب و كان يوما عســـيرا على المقاومة التي هجومت في منطقة مكشـــوفة، غير أن عودة المجموعتين خفف من المعاناة وانقذ الموقف، واســـتمرت المعركة حتى الليلة وفي الصـــباح انجلت عن جثث شـهداء بينهم،حمود بن الدليل، واحمد بن عالي التنواجيوي ودشق بن سيدي ، وجثث لمجندين، بعضـهم سود وبعضـهم بيظان،وفُقد أربعة من المجاهدين هم فاليلي بن عبدوك وأحمد ولد التيشيتي، واحمد بن بريهمات، وامبارك بن سيد امحمد، ولم يعثر لهم على أي شيء وهو ما يجعلنا نرشح فرضـية أن يكون الفرنسيون قد أقتادوهم إلى مكان مجهول واعدموهم فيه واحرقوا جثثهم خاصة أن حرق جثث المقاومين اسلوب اعتمده الفرنسيون كثيراً.

---

[220] حننه ولد الشيخ نصبه الفرنسيون بعد الاحتلال زعيما على كافة أولاد داود.

221 . تقرير إفريقيا الفرنسية مارس 1912 الهدوء في الحوض ص 100

تواصلت المعارك واشتعلت المنطقة الشرقية، ودفعت فرنسا بقواتها إليها، وطاردت المقاومة، كما قامت بحملة قمع بشعة ما تزال ذكرياتها المرة تلهج بها الألسن، من تلك الذكريات الأليمة ما أخبرني به مُعمر من قبيلة ياداس يدعى شملة بن الحسين بن الشافعي عن قيام قوات الاحتلال بقطع رأس شخصين عند أحد الأحساء القديمة والمشهورة في منطقة عدل بكرو بشرق موريتانيا يُعرف باسم "مبروك ياداس"، بعد أن نفيا معرفتهما بمكان وجود أهل عبدوك. وتحتفظ الذكريات كذلك بأن أحدهما سقط رأسه وهو يتلو القرءان الكريم، ومازال قبراهما منفردين عن المقبرة، ربما يكون المواطنون امتنعوا عن الدفن قربهما إما خوفا من المستعمر أن يتهمهم بالتبرك بهما على اعتبار أنهما شهيدين ولشهداء المعارك مكانة كبيرة عند المسلمين، وإما من أجل أن يظلا معروفين شاهدين على بشاعة المستعمر المتمثلة في قطع الروؤس،ولنا ان نتسائل أين العدالة التي بشرت بها فرنسا؟ اعدامات بدون محاكم ولو صورية؟

اخباري آخر يدعى يحفظو بن احمادو القلقمي، قال لي إ ن قوات فرنسية داهمت حيا يضم خيما من قبائل مختلفة عند مكان يدعى ذراع المبروك شرق عدل بكرو، وجمعوا الرجال ووضعوا الحبال في أعناقهم، وخيروهم بين الإعدام مقيدين أو إفساح المجال لهم للهرب ويطلقون عليهم النار حال الفرار، فاقترح عليهم احد الكهول الفرار قائلا سينجو منكم البعض وهكذا نجي منهم البعض وكان صاحب الرأي من الناجين وقد عاش ولد صلبه حتى تسعينات القرن الماضي ويدعى اللوت ولد محمد عبدي.

نهاية صفحة مشرقة ...وأهل عبدوك يخدعون

نهاية الثوار والمناضلين والمصلحين والمنافحين عن المظلومين وممثلي ضمائر الامم تأتي في الغاب من داخل بيئاتهم وحواضنهم وخواصهم المأمونيين،ولم تكن صفحة أهل عبدوك النضالية المشرقة بدعاً من هذه القاعدة، مثل اخواتها من حركات نضال هذا الشعب التي ضربنا صفحا عن ذكر الخناجر الداخلية التي طعن بها العديد منهم، بشحذ من الفرنسيين

وتنفيذ من أقرب المقربين، وفقا لهذه القاعدة بدأت نهاية أهل عبدوك بخدعة، قد يبرؤا سليم القلب فرنسا منها.

لما وصل الوضع العسكري مرحلة أحرجت العسكريين الفرنسيين واخافت الاداريين على قادم أيام الاحتلال ، فكروا في مبادارت تنهى الصراع بما يضمن مصالح فرنسا ويلبى بعض مطامح المقاومة، اقتنع الفرنسيون بأن لا مناص من فتح باب لتفاوض مع أهل عبدوك، حيث تكون راي بأن المواجهة العسكرية أصبحت مكلفة أكثر مما ينبغي، وبعد الكثير من المعارك والخسائر الفادحة في صفوف الغزاة قررت فرنسا لعب كل اوراقها بما فيها التلويح بسياسة الأرض المحروقة أو الانسحاب حيث " استدعى الفرنسيون الى النعمة كبار أهل المحيميد، وعلى رأسهم إعل بن محمد محمود "واخبروهم بأن فرنسا تكبدت خسائر فادحة، وأنهم لايستبعدون اتخاذ قرار بالانسحاب من الحوض ، وان انسحابهم سيكون نهاية الزعامات المتحالفة معهم، وأن عليهم التفكير بجد في الموضوع ، واقترح الفرنسيون عليهم فتح مفاوضات مع المقاومة"

بعد العرض الفرنسي شكل أهل المحيميد لجنة من كبار السن وقادة قبائل مشظوف للتفاوض مع المقاومة ، واسندت رئاسة اللجنة المفاوضة لسيد امحمد أخو الامير ، وعضوية سيدي محمود بن لمامي بن لمخيطير من قبيلة أهل عبدوك، ورجل من قبيلة كنتة يدعى الخاطر بن احمد الصغير وآخرون، اجتمع الوفد بقيادة المقاومة بدؤا حديثهم بالقول ان اهل الحوض اصبحوا رهاينة بيد النصارى، وأن انقاذهم من القتل والسجن والتنكيل بيد المقاومة إن هي قبلت بعرض فرنسا للتفاوض وتقديم شروطها لانهاء القتال".

جاء رد المقاومة على العرض مكتوبا ومحددا في أربع نقاط:

(1) أن لا يتدخل الفرنسيون في أمور دين الناس.

(2) قبول فرنسا بعدم تخلي المقاومة عن سلاحها.

(3) اسقاط كل التهم والاحكام الصادرة ضد المقاومة أفرادا وجماعات.

(4) عدم مضايقة أي مقاوم أو محاسبة من كان يقدم لهم الدعم أو يتعاطف معهم.

قبل الفرنســـيون بالشـــروط ، وحدد يوم التوقيع بحضـــور قادة المقاومة واتخذت كل الاجراءات، وفتحت الجلســة وبدون مقدمات قال رئيس الجنة التفاوض سـيد امحمد ولد لمحيمد للحاكم الفرنسي، سيدي الحاكم لا عهد بيننا وبينهم، ولا يوجد اتفاق لقد جئنا بالمتمردين؟ردالحاكم عليه بخبث مبرأ ساحة بلاده قائلا: ليس من قيمنا كفرنسيين نقض العهد فكيف بالمسلمين؟ فرد عليه لا عهد في الحرب، لا نســتبعد أن تكون خطة متفق عليها بين الفرنســيين واهل لمحيميد لأن أهل عبدوك وقبيلتهم تاريخيا يشكلون تهديدا فعليا على سلطة أهل لمحيميد، واتفاق يضـمن بقائهم مســلحين ومتواجدين مع الشــعبية الكبيرة التي يتمتعون بها عند أهل الحوض عموما كل ذلك يشكل خطرا كبيرا على مكانة العائلة الأميرية المساندة للاحتلال.

دار ســـجال بين الرجلين ختمه الحاكم باصـــدار عفو شـــامل عن جميع المقاومين والقبائل المؤيدة لهم والافراد المناصـرين لهم، حاشـا زعماء المقاومة محمد وابنيه الشـيخ والزوين، حيث حُوكما في السادس من نوفمبر 1916 بعشرة اعوام سجنا نافذا، وغربا إلى "غوتا بساحل العاج"

حيث استشـهد محمد والزوين بمرض فقر الدم والإسـهال، حسـب المصـادر الفرنسـية " ففي 2\2\ 1918 استشهد محمد بن عبدوك الوالد، وفي الثاني عشر من نفس الشهر استشهد الإبن الزوين، وظل الشيخ في السجن هناك.

وحســب رواية شــفوية من الشــريف النعمي جعفر بن مولاي أحمد بن جعفر بن المهدي، فإن سبب تخفيف سجن الشيخ أنه كان محكوما بالأعمال الشاقة، وكان يرافقه عسكري، وفي أحد الأيام المطرة طلب منه العسـكري الذي يركب حصـانا أن يسـرع وضـربه، فقفز الشـيخ على الحصـان وانتزع منه البندقية وقتله بها، وأخذ الحصـان والبندقية إلى السجن، فلما رآه الفرنسيون ارتاعوا غير أنه لم يهاجمهم. وكانت هذه الحادثة بداية تخفيف ســجنه وتوجد ســردية شــعبية أخرى تختلف عن هذه، فنقل إلى بتلميت، حيث قضـــى بقية ســـجنه، ثم أفرج عنه وعاد إلى مسقط رأسـه بالحوض ، وتوفي سنة 1958 ودفن بمكان يدعى "كمبت نواودار" شمال مدينة النعمة، وقبره مشهور هناك.

وبذلك طويت هذه الصـفحة المشـرقة من صـفحات المقاومة الباسـلة في الشـرق، وقد توفيت زوجته السـيدة الكريمة كَلُوا بنت ابراهيم ولد عبدي الصـغير سـنة 2013م ودفنت بمكان يقع

على بعد 18كلم شرق مدينة أمرج يسمى **فري**، وابناءه الاحياء محمد الملقب "حم " والزوين، وعيشة.

اسماء بعض شهداء معارك اهل عبدوك ضد الاحتلال الفرنسي.

محمد بن احميدلي	اهل سيدي فخذ أهل عبدوك
احمد بن احميدلي	اهل سيدي فخذ اهل عبدوك
سيدي احمد بن عبدوك	اهل سيدي
مولاي عبد الكريم بن الشيخ بن مولاي سماعيل	شرفاء النعمة
اعل بن عبدالله	اهل سقيدة بطن من اهل النعمة
اعل بن جوف	؟؟؟
احمد بن لعمش	اهل سيدي
سيدي محمد بن معطلل	اهل سيدي
احمد بن معطلل	اهل سيدي
حميدي بن غريغل صانع	اهل سيدي
احمد بن الحداد	اهل اعمير اهل سيدي
دشق بن سيدي بن الشيخ	أولاد علوش أولاد داوود
احمود بن ادليل	؟؟؟
فاليلي بن عبدوك	اهل سيدي
احمد بن التيشيتي	اهل عبدوك
احمد بن برهمات	؟؟؟
امبارك بن سيدي محمد	؟؟

محمد بن عبدوك	اهل سيدي
الزين بن عبدوك	اهل سيدي
الشيباني بن معطلل	حرطاني اهل عبدوك
سوبليم اهل عمار	حرطاني اهل سيدي
علاتي بن عبيد بن حمادي	اهل الطالب
احمد بن عاله	تنواجيو
محمد الغيث بن الشيخ محمد تقي الله	اهل الشيخ محمد فاضل
احمد المحجوب بن زهو العين	ايدوبلال
سيدي بن اعل الملقب الحرطاني ولد انياله	أولاد اعل فخذ من أولاد بوحمد

اسماء زعماء قبائل كانوا داعمين لمقاومة أهل عبدوك للاحتلال الفرنسي في اقليم الحوض

مومنة بن الشيخ بن مولاي اسماعيل	زعيم اهل النعمة
بهاه بن ببانا	تنواجيو
احمد جدو بن الشيخ	تنواجيو
اهل احمدو بن لمحيميد	اهل لمحيميد
اهل المختار بن لمحيميد	اهل لمحيميد
محمد بن النيني	تجكانت اجريف
احمد فال بن الباه	أولاد انيايري
بّاه بن زهو العين	ايدوبلال
القاسم بن باب حميد	اهل همدّ بطن اقرب نسبا الاهل محيميد

أخريات المعارك

رغم أن السنوات اللاحقة شهدت هدوءا نسبيا على الجبهة الشمالية حيث تحولت المعارك شرقا فلا تكاد عشيرينيات القرن العشرين تبدأ حتى تندلع المعارك من جديد في الشمال والوسط على السواء، ففي السابع والعشرين من نوفمبر 1923م هاجمت المقاومة مفرزة الملازم بدرين

على بعد 100كيلو من مدينة آطار وقتلوه وأسروا باقي قواته، كما استطاع وجاه بن أعل الشيخ تسديد ضربة قوية في هذه الفترة للقوات الفرنسية المتمركزة في منطقة شنقيط.

وفي 28 نوفمبر " هُوجم الفيلق الفرنسي الثاني في آدرار في منطقة انتيد اشريريك من قبل وجاه، وواصل هذا المقاوم نشاطه، ففي 5 من مارس 1924 هاجم فرقة آطار المتنقلة عند بكرن واستشهد فيها".

وفي الأيام الأخيرة من هذه السنة قاد حمو الترمزي المعروف بشجاعته حملة ضد فرقة الجمالة،في اقصى شرق البلاد، وفي السادس عشر من مارس 1924 شنت المقاومة هجوما على نواذيبو وكبدت قوات الاحتلال خسائر فادحة، ثم جاءت معركة "القديمة" عند حفرة ودان 23 أكتوبر 1924م "سقط 34 قتيلا في الجانب الفرنسي، وكانت المجموعة التي قامت بالهجوم بقيادة إسماعيل بن باردي وأحمد بن حمادي من الرقيبات.. ويُعدان من رواد المقاومة"[222]

يقول الرائد جليلي عن هذه المعركة: "لقد استغلوا الميدان استغلالا جيدا ووجهوا نحو الزريبة وابلا كثيفا من النيران شل حركة المدافعين الذين أصبحوا يتنقلون في ميدان المعركة حبواً وأصبحت المسافة بين المدافعين والمهاجمين تتناقص شيئا فشيئا". وفي أيام 1-3-4-5 ابريل عام 1925م كانت معركة الطريفية، حيث شن المقاومون هجوما على "المفرزة التي تعد أجود فرقة على مستوى البلاد، وأكثرها كفاءة، وقدرة قتالية وفقد الفرنسيون في الهجوم "17 قتيلا أوربيا" وصفها الفرنسيون بأنها "أطول وأروع معركة شهدتها الصحراء وأشدها إرباكا لهم" يقول عنها الحاكم كادين "لقد واجهنا في القديمة وفي الطريفية هجمات أظهرت جراءة غير متوقعة، واستطعنا أن نقوم بصدها مرارا لكن مع الأسف فقدنا ضباطا وبعضا من جنودنا الشجعان ويصفها أحدهم بالقول "في هذه الظرفية التي يطبعها الزهو كانت الهزيمة التي مني بها الفرنسيون في "لقديمة" كارثة حقيقية".

وخلال عام 1926 في الحوض وآزواد في أقصى الشرق قاد "الثلاثي سيدي بن عابدين، ومحمد بن سيدي محمد البريوشي، وهامو الترمزي، مواجهات مع قوات الاحتلال بقيادة

222 . محمد سعيد ولد همدي، مرجع سابق، ص: 113 – 114 – 115

لوكوك"، وظلت الاشتباكات متقطعة بسبب دخول وسائل الاتصال اللاسلكي وربط القوات المنتشرة بعضها ببعض، ومع ذلك تعرضت "فرقة شنقيط المتنقلة عند توجنين لهجوم مفاجئ من محمد المأمون وخسرت أربعين من رجالها". وتعرض آطار لهجمات متتالية عند الشيمام وآغوينيت"، وفي ابريل من نفس العام قاد بن الكنتاوى في منطقة الحوض هجوما على الوحدة الفرنسية "وتدخل الطيران العسكري لأول مرة عند ما قام الملازم جيهو بشن غارة جوية في 29 من ابريل 1931"[223].

كما استطاعت المقاومة بقيادة قبيلة أولاد دليم في الخامس عشر من أغسطس عام1932 من خوض معركة أم التونسي شمال نواكشوط، وقتلت الملازم ماكماهان نجل الرئيس الفرنسي، واعترف الفرنسيون بأن هذه الغارات الأخيرة أصبحت أكثر تنظيما، وأنها لم تعد لأغراض السلب، كما يروج العسكريون." إن عدد من شارك في هذه المعركة من المقاومين بلغ مئة وعشرين رجلا...واضاف أن المقاومين خسروا سبعة عشر رجلا.. لكن خسائر الفرنسيين كانت افدح اذ مات منهم ما يزيد على اربعين رجلا وجرح منهم نحو العشرين..وذكر دوتو لوبسكي أنه تمت مباغتة الفرقة المتنقلة، وهزمت تماما حيث مات الملازم د ي ماكماهان، وخمسة ضباط صف، وعشرة رماة، واثنان وعشرون من الحرس وعادت الغزوة ادراجها بعد أن فقدت سبعة وعشرون رجلا[224]" .

وبعد هذه المعركة دشنت فرنسا حملة واسعة جندت لها الكثير من الطاقات كان من تداعياتها استشهاد الأمير سيد أحمد بن احمد عيده سنة 1932م الذي شكل استشهاده بداية العد التنازلي لنهاية المقاومة المسلحة مع وقوع عدة معارك في هذه السنة.

'ففي دجمبر 1933 وقع هجوم بيركن وتعرضت الفرقة المتنقلة للترارزة لهجوم من طرف محمد المأمون"[225]، قبل أن تعرف السنة الموالية خضوعا تاما للكثير من زعماء المقاومة. ففي الثامن من مارس 1933م شاهد سكان آطار قادة المجاهدين يستسلمون، ومع ذلك ظلت الاشتباكات المتفرقة مستمرة مع تطور وسائل الرقابة الفرنسية واكتمال السيطرة على جميع

---

223 . محمد سعيد ولد همدي: نفس المصدر

224 المذاهب اخبار مصدر سابق ص 459

225 . محمد سعيد ولد همدي: نفس المرجع،

أرض البيضـان بما في ذلك تيندوف التي كانت آخر ما احتل، وقد عرفت سـنة 1933 معركة من آخر المعارك، حيث وقع هجوم يومي 6-7 يناير "على مجندين متمركزين شـــمال آطار" مكلفين بحماية طريق الجلد، وكذلك الفرقة المكلفة بحماية مراعي قطعان قوات الاحتلال. كما عرف 7-8 من يناير كذلك "هجوما على بعد 10كلم من اكجوجت، ووقع في 15 من نفس الشـهر هجوم على المجرية بتكانت دمرت فيه أسـلاك التلغراف"، وتواصـلت الهجمات بوتيرة متسـارعة في هذا الشـهر حيث وقع هجوم على الفرقة المتنقلة على بعد 60 كيلو شـرق مدينة شـنقيط، كما هُجومت فرقة تيشـيت، وعلى إثر هذه التطورات شـن الملازم كيفي غارة كانت خاتمتها معركة مجيك التي استشهد فيها المجاهد اعل بن ميارة الرقيبي.

شخصيات رافضة تختفي في ظروف غامضة

عرفت منطقة الحوض أحداثا متزامنة مع العمليات المسـلحة ضـد الفرنسـين تطرح على الباحثين أكثر من سـؤال، ولا شـك أن غالبية أرض البيظان عرفت أحداثا مماثلة،وهي اختفاء الكثيرين ممن جاهروا برفض التعاون مع الفرنسين عن مسرح الأحداث، في ظروف أحسن ما توصف به أنها مريبة، إن لم تكن غامضة أو مدبرة؟ أو على الأقل هي بحاجة إلى التأمل بعيدا عن العواطف. ومن أمثلة ذلك ظروف وملابسات اختفاء شخصيات فاعلة، وظهور خصومها مباشرة كقادة من طراز أول مهيأة لهم الظروف وموافقين على المشروع الاستعماري!

في إطار بحثنا عن معرفة ما يمكن أن يكون قد حدث فعلا لبعض تلك الشـخصـيات، لا نجانب الصـواب إن قلنا إن المعلومات عنهم ضـئيلة، وما وجدنا لا يعدو كونه شـذرات مبعثرة، قمنا بجمعها وإعادة تركيبها، بل وإعادة قراءتها من جديد،قصـدنا من ذلك هو عرضـها ثانية من أجل تنبيه المختصـين والمهتمين إلى وجود هذا النوع من المواضـوعات المهملة، و ضـرورة العناية بها والبحث في جوانبها المختلفة التي يسـاعد بحثها والتنقيب فيها عن معرفة الكثير عن حقبة دخول الاستعمار للبلاد، وعن الضـحايا الذين سقطوا بطرق غير مباشرة، في ظروف لا يفهمها مجتمع تلك الحقبة، لكونهم ضـحايا مؤامرات من نوع مختلف، يوظف فيها الصـراع على السلطة والجاه إلى غير ذلك مما هو صـعب الفهم على المجتمعات المتخلفة، علما بأن المهمة

توكل إلى عناصـر محلية وقريبة من المسـتهدفين، بل إن خلافتهم لهم مشـروعة ومقبولة لدى العامة.

ولم يكن الضحايا من هذا النوع من طبقة الأمراء والساعين الى السلطة فقط، بل من طبقات الزوايا وأفراد عاديين من كل الفئات، الذين كانت لهم مواقف معادية، أو حتى غير متعاونة أو مقربة من معسكر الرفض هنا وهناك، لا شك أنها ظاهرة حرية بالاهتمام لأنها تمثل لغزا محيرا لم تسـاعدنا المعلومات المتوفرة حتى الآن على سـبر أغواره رغم اننا حصـلنا على النزر من الوثائق المبتورة تشـير إليه باسـتحياء،وبعض الحكايات الشـفوية التي تفيد في مجملها أن الضـحايا كانوا يرفضـون المشـروع الاسـتعماري وأنهم اختفوا عن مسـرح الأحداث في ظروف متقاربة ومتشابهة، بعضـها غامض ومشعر بوجود أيدٍ خفية، أو على الأصح افتراض وجودها بشـكل يجعل منها فكرة مقبولة وقابلة للنقاش والبحث، يأتي على رأس هذه الحالات اختفاء أو مقتل زعيم مشظوف محمد المختار بن محمد محمود، الذي قتل في معركة لا يشعر تسلسل أحداثها بأي يد خفية أو مؤامرة حيكت ضـــده، لكن تفكيك رموز ما حدث واســتنطاق بعض النصوص التي تحدثت عن ملابسات قتله تثـير الشكوك، و تؤدي إلى شرعية طرح أكثر من سؤال وعلامة استفهام حول خلفيات ما حدث.

فمســـألة القتل تبدو عادية جدا وأكثر حيث إن بعض قبائل الشـــمال، أغارت على منطقة الحوض في الشرق واستاقت إبلا لبعض القبائل غير المحاربة فطاردهم الأمير، واشتبك معهم وخلص الإبل، وفي طريق العودة كان أحد الغزاة مختبئا فأطلق النار على الأمير وقتله ونجى بنفسه.

إلى هنا يظل الأمر عاديا جدا، لكن بالعودة إلى خلفية الرجل وتطورات مراحل حياته وظروف وملابسـات وصـوله إلى السـلطة، تجعل موته بهذه الطريقة لغزا محيرا فعلا، فالملفت في الأمر أن هذا الأمير هو الذي أعاد الســـلطة لبيت أبيه المقتول على يد إخوته وحلفائهم، وكذلك قُتل أخوه بعد سلسلة من الاضطرابات والتحالفات المتذبذبة.. وهو الذي حسم في الأخير الصـــراع لصـــالح بيت أبيه وأعاد الزعامة إليه، وقام بحملات تأديبية ناجحة ضـــد القبائل التي كانت تسـاند خصـوم أبيه. كما أن المجال الجغرافي الذي قتل فيه هو مظاعن أعدائه التقليديين

قبيلة (الحمنات)، ومع ذلك ووفق تركيبة عائلته وتاريخها الدموي، فهو مستهدف حتى من أقرب مقربيه كإخوته مثلا. فقد قتل أبوه بفعل تمرد إخوته عليه. فكيف سُـمح له بالخروج والمشـاركة في معركة ثانوية جدا وهو أمير محاط بالأعداء، بينهم الفرنسـيون الذين لا يخفون معارضـته للتعامل معهم يحدث ذلك في غياب إخوته الأشـداء ومناصـريه الأقوياء؟ إضـافة إلى ذلك فإن بعض إخوته سبق وأن اجتمعوا بالمستعمر كبلاني كما ذكر الدكتور محمدو سنة 1889

إضـافة إلى المعلومات المتناقضـة التي يقدمها لنا عنه بول مارتي والتي تحمل رغبة فرنسية في اختفائه لاقتناعهم بأنه لن يكون الرجل الذي سـيمررون مشـروعهم من خلاله، أو حتى مع وجوده، تناقض يرد في وصفه بأنه مغرور، معتز بنفسه، مع وصفه بالعدل، صفة تسقط ذريعة فرنسـا في الاحتلال لحماية "المظلومين" لا شـك أن عدالته تشـكل دليلا كافيا على أن علاقته بهم لن تكون جيدة. "وفي هذا التاريخ كان الفرنسـيون قد وصـلوا إلى السـاحل (منطقة الحوض بالشـــرق الموريتاني) وكانوا قد ربطوا علاقاتهم مع المختار الشـــيخ عمه الذي كان يطالب بالسلطة.

يذكر بابه بن الشـيخ سـيديّ أنه "قتل على يد رجل من أهل آدرار اسـمه محمد سـالم ولد الخاطر من قبيلة لبحيحات، وكان مشـهورا في الرماية والإبعاد في الغزو، وهو حينئذ في سـرية من أولاد غيلان والرقيبات. ومن عجيب الاتفاق أنه مات حتف أنفه بعد قتله له، ولم يمهل إلا شهرين"[226] كما قال إنه التقاه وسأله لماذا قتلت هذا الأمير العادل فقال له إني لا أعرفه.

كما نجد بعض أصـدقائه يختفون في نفس الفترة تقريبا، وفي ظروف غامضـة مثل مولاي عبد الله شـيخ العافية أحد مشـاهير شـرفاء مدينة النعمة، الذي تقول عنه حولية النعمة أنه مات مسـموما بعد مبيت تاجر أبيض عنده، ـــ وتبين فيما بعد أنه عميل استخبارات فرنسـي كان متوجها إلى مدينة ولاته، ويعتبر أول من وصـلها من الفرنسـيين في تلك الفترة، كما اختفى في ظروف مماثلة بن عمه أحمدُ بن العربي وكانا معروفين بمناوأتهما للمشروع الفرنسي ربما يكون هناك العديد من امثالهم ومن مناطق متعددة قد اختفوا دون أن يعرف عنهم أي شيء.

226 . بابه ابن الشيخ سيديا: إمارتا إيدوعيش ومشظوف، مصدر سابق

وبمقتل محمد المختار هلل رجال الاستعمار وتسابقوا لكسب ود المستعمر، بمن فيهم إخوة الأمير الذين دخلوا تحت الحماية الفرنسية بشروطها المهينة لهم كأمراء. كما كان من السابقين إلى مناصرة المشروع الاستعماري أحد أثرياء شرفاء مدينة ولاته مولاي الوثيق الملقب اكيك بن عال بن ملوك بن باعُمار، يقول عنه بول مارتي "وحده من بين جميع سكان ولاته، اتصل بقوات الاحتلال الفرنسية، لذلك تمت تزكيته على حساب أهل الحوض... وبما أنه ذكي جدا فقد فهم أن ازدهار ولاته مرتبط بوجودنا..إنه عميل ثمين ليس فقط في إدارة المدينة، لكن أيضا في الشؤون الخارجية، لأنه معروف جدا في كل أنحاء الحوض والساحل، والحقيقة أن اكيك يخدمنا بقناعة وإخلاص تامين، إنه صاحب فكر منفتح، وهو مخلص وليبرالي وسيكون تحت قبضة أيدينا، لذلك فهو أحد أفضل وكلائنا المساعدين في مهمتنا المتجسدة في الغزو الفكري لأبناء المستعمرة (...) إن لديه مقومات كثيرة تفضي إلى الاهتمام به. إذن يجب أن يمنح الهدايا وسيتكفل بإحاطتها بما تحتاج من السرية".

أيام.. ينبغي أن تدخل ذاكرة تاريخنا

ونختم بهذه الشهادة عن شراسة المقاومة، فمن "سبتمبر 1931 إلى سبتمبر 1932 أظهرت الإحصاءات الخاصة بفرقة الجمالة الموريتانية أن الخسائر تمثلت في فقدان 25% من الضباط و25% من ضباط الصف الأوربيين و20% من المجندين و12% من الحرس البيضان"[227].

وقد أضفنا هنا مجموعة معارك مع ذكر بعض قادتها ملخصة من عمل لباحث موريتاني يدعى محمد المصطفى بن الندي تحت عنوان دور المحاظر في موريتانيا وهو عمل غير مؤرخ،و موثق توثيقا جيدا ولم يراع صاحبه التسلل الزمني والمكاني للأحداث.

يوم مُيْث : ننبه إلى أن الفرنسيين نادراً ما يذكرون القتلى من المجندين السنغاليين أو الموريتانيين الذين يقاتلون معهم، وعليه فإنهم يذكرون غالبا القتلى الفرنسيين فقط فتجدهم مثلا يتحدثون عن ثلاثة قتلى أو خمسة، بينما يكون العدد الإجمالي للقتلى كثيرا في صفوف المجندين.

---

227 . محمد سعيد ولد هندي: مرجع سابق

قاده الأمير بكار بن اسويد أحمد واستشهد فيه خمسة وثلاثين من أشهرهم الشيخ بن إبراهيم بن عمر بن سدوم ومن الجانب الفرنسي قتل المترجم صنب يور والعديد من المجندين.

يوم آجام: استشهد فيه من المشاهر: سيدي عبد الله بن سيدي الأمين بن محمد شين، ومحمد المختار بن عثمان بن الرسول بن اعل بابي وعثمان ومحمد أبني يحفظو بن أحمد ديه.

يوم بوكادوم : استشهد فيه الأمير بكار بن اسويد احمد

يوم تجكجة الأول: قتل فيه حمودة ولد علية كبلانياً واستشهد فيه القائد الشريف سيدي بن مولاي الزين مع اربعة من مجموعته التي نفذت العملية والمؤلفة من نيف وعشرين نفراً.

يوم تجكجه الثاني يوليو 1905 قاده الأمير سيد أحمد بن عيدة قتل فيه اثنان من الفرنسين، واستشهد فيه أحمد بن الداها، وعبد الله بن عمار، ومحمد حبيب الله بن نعمه، وجرح عشرة من المجاهدين.

يوم انيملان: قاده الأمير عثمان بن بكار بن اسويد احمد، استشهد فيه محمد المختار بن أحمد لبات، وعثمان بن عمر بن بكار بن اسويد احمد، وعثمان بن الرسول بن اعل بابي، ومحمد بن بكار بن الهيبه بن اللب بن خنوف، وعثمان بن الرسول بن عمر بن بكار بن محمد خونه، واحمد بن محمد فال،بن حمياد بن محمد عمار رئيس أولاد إعل انتونفه، وحمادي بن بجار،ثم غالي بن القاضي، وسيدي محمد بن البيضاوي، ومحمد الاغظف بن الشيخ بن الجودة، وأحمد بن الحسن بن مادي ومن الجانب الفرنسي قتل أربعة ضباط وخمسة عشر جنديا.

يوم آكلاله أكتوبر 1323-1905 : قتل فيه ثلاثة ضباط فرنسيين، واستشهد فيه عدد من المسلمين منهم: سيدي احمد بن احمد بن سيدي بن البشير بن الحنشي، ومحمد عبد الرحمن بن محمد الفتح، وعبد الله بن سيدي احمد بن محمد الحنشي.

نوفمبر من نفس السنة حصار تجكجة استشهد فيه سبعون وجرح مثلهم.

يوم اعكيلت الوزغة: اسـر قائد الفرقة الفرنسـية، وقتل بعض من معه ومنهم الشـريف بوبكر خوي، واعل بن عثمان بن بوبكر الصديق العلبيان نسبة إلى قبيلة لعلب.

يوم اعكيلت الدبشـه: استشـهد فيه سـيدي محمد بن بونا، ومحمد بن اعل الكوري بن احمد لليقاط، ثلاثتهم من أبناء احمد بن دمان والبانون بن احمد أباه الرحالي.

يوم كدم فرنان: استشهد فيه سلمه بن المختار، واحمد بن الصديق بن آل بوحبيني.

يوم الصرك: في البراكنه فبراير سنة 1907 استشهد فيه بن عساس أمير من البراكنة وغالي بن الشيخ عبد الرحمن في ثلاثين.

يوم لبيظات : اسـتشـهد فيه أحمد بن سـيدي عثمان بن الفظل، والسـالك بن أبيه سـنة 13326هـ 1908م

حصـيلة هذه السـنة في مثلث التزارزة تكانت انشـيري حسـب المصـادر الفرنسـية (135معركة) قتل فيها من جيش الاحتلال خمسون جنديا فرنسيا، وثلاثة ضباط، وخمسة ضباط صف و134 جنديا (زنجيا) وجرح سبعة فرنسين وأربعون زنجيا وصُودرت قوافل كثيرة وعدد لا يحصى من النعم وقطع التلغراف أكثر من عشرين مرة.

ومن أيام هذه السنة يوم دومان في شـهر ابريل استشـهد فيه قائد فرقة المسـلمين بن باريك وقتل ضابطان و15 جنديا من جيش الاحتلال.

يوم العزلات: بقيادة الأمير أحمد الديد قضى فيه على قافلة فرنسية.

يوم الميناّن: بقيادة الشـيخ سـيدي محمد بن عبد العزيز بن حامني ومجموعة من تلاميذ الشيخ ماء العينين.

يوم نورماش: استشهد فيه سبعة وجرح سبعة.

يوم لتفتار: اكتوبر بقيادة الشيخ سيدي محمد بن عبد العزيز استشـهد فيه الذهبي بن عبد المالك، ومولاي الزين بن الذهبي في سبعة، وقتل من الفرنسين ملازم وأربعة جنود.

يوم لتفتار الثاني استشهدت فيه مجموعة على رأسها القائد الشيخ سيدي محمد بن عبد العزيز، ومحمد عبد الله بن حبت، واحمد بن بدي، ومحمد بن البخاري، ومحمد الشيخ بن أبن والشيخ محمد عبد الله بن محم عاشور.

يوم لكويشيش: 28 نوفمبر 1908 قتل فيه من جيش الاحتلال ملازم و خمسة وعشرون جنديا.

يوم انبيكت اتيكزيت: استشهد فيها اجدود بن اكتوشن (ليس العالم المشهور وإنما هو سميه) ومولاي أحمد بن مولاي عبد المالك، ومحمد بن امباله، ودحان وعبد القادر، ومن جانب العدو قتل ثلاثة سنغاليين وجرح عشرة بينهم ثلاثة فرنسين.

يوم عكلت الخشبة: استشهد 12 (مقاوما) وجرح الأمير سيدي بن سيدي (أخ الأمير التروزي أحمد بن الديد) ثلاثة جروح ومن جانب الاحتلال قتل نقيب وجرح ملازم.

يوم آماطيل: في يناير استشهد فيه محمد يحظيه بن سيدي احمد بن سيدي بابه وقتل من الجانب الفرنسي ثلاثة ضباط وثمانية جنود وجرح نقيب وملازم.

يوم اكصر الطرشان: القائد الشيخ الولي بن الشيخ ماء العينين استشهد فيه الشريف محمد الأمين بن مولاي أحمد وسيد احمد بن محمد وأحمد البشير بن البخاري ومن جانب الاحتلال قتل نقيب وملازم

يوم تيشيت: أسر فيه الأمير سيد أحمد بن عيدة أمير آدرار.

المعارك التالية غير منقولة من الدراسة التي سبقت الإشارة إليها كما أن الاسماء التي نذكر هي تلك التي حصلنا عليها من مصادر مقربة من المقاومة او بعض تقارير الإحتلال.

يوم تامورت زروقو: تقع تامورت زروقو جنوب شرق تمبدغة سنة 1912 قتل فيها 14 من المجندين الفرنسين.

معركة بياظ أتيلة (عدل بكرو حاليا) وهي أول معركة قتل فيها (فرنسيان)

معركة الدخلة البيظ كان يوما صعبا على المقاومة قتل فيه عدة مجندين.

يوم اطليح النعمة 1913:استشهد فيه سيد احمد بن محمد بن عبدوك، واحمد بن لعمش،وقتل من قوات الاحتلال باب بن مكحله، وبوب بن السلاوي،وعثمان جلو الجندي، والقاسم باه

معركة كوصة: قتل فيها سبعة مجندين، وغنمت المقاومة الكثير من البنادق سريعة الطلق تعرف شعبيا بـ(الوروار).

معركة إنياية: قرب لكراع الازرك الذي اصبح يسمى الآن انبيكت لحواش والصحيح نطقا انبيكت لحواشي، قتل فيها خمسة مجندين وثلاثة فرنسيين واستشهد فيها احمد ولد الحداد

يوم شلخت الصنادرة: قتل فيه فرنسيان وستة مجندين وغنم المجاهدون العديد من مدافع الوروار.

معركة اسبيعي قرب (شمال مدينة أمرج عاصمة المقاطعة)

معركة لمزالك(بتفخيم الزاء) :هاجمت فيه المقاومة بتاريخ 23 فبراير 1915 قافلة تتكون من عشرات الرماة يقودهم عريف قادمة من انيافونكي بجمهورية مالي وقضو عليها استشهد فيها سيدي بن اعل الملقب الحرطاني ولد انياله من قبيلة أولاد بوحمد فخذ أولاد اعل.

وقعة دنداره 1916: قتل فيها من المجندين،جواف بن اعل الدقيق البرداوي، وعلو قمه،وجندي فوتي.

يوم اكنكاي قرب تمنبدغة.

معركة برازخ شرق عدل بكرو يسمى المكان الأن "العدالة".

معركة اكمون جنوب شرق النعمة.

معركة امارزيكة شرق النعمة.

معركة بهكت النعمة.

معركة اطليحيات ولد اسوير

معركة كنو قرب ولاتة على طريق النعمة

معركة انيوط شرق أمرج

معركة خويبت راس الماء في منطقة تيلمسي. مقاطعة باسكنو

معركة كوسي لكلال: في منطقة تيلمسي.، كان يوما صعبا على المقاومة استشهد فيها، حمود بن الدليل، واحمد بن عالي، ودشق بن سيدي ولد الشيخ وفقد أربعة هم فاليلي بن عبدوك، وأحمد ولد التيشيتي، واحمد بن بريهمات، وامبارك بن سيد امحمد،وقتل خمسة وعشرون مجنداً

معركة بئر كندوز. استشهد فيها مولاي عبد الكريم بن الشيخ بن مولاي سماعيل الشريف النعمي وبن قبيلته فخذ اهل سقيدة اعل بن عبد الله

من هنا العودة إلى ما ذكرت الدراسة من المعارك.

يوم لبيرات: القائد أحمد بن حمادي، وبدي بن علي الرقيبيان أبيد جيش الاحتلال إلا عشرين فيهم أحمد سالم بن حمادي الغلاوي واصيبت عينه يومها واستشهد 16 من بينهم الخليل بن عبد الودود بن عل بن الدخيل الرقيبي البهالي ومحمد بن السيد بن محمد بن عبد الله بن اعل بن بكار الدليمي الواعري.

يوم اكليب أخشاش :هزم الفرنسيون هزيمة نكراء و(قتل) منهم 23 منهم النقيب غرار

يوم المزرب: في دجمبر بقيادة الشيخ محمد لغظف بن الشيخ ماء العينين

يوم تنغرادة : بقيادة وجاهه بن اعل الشيخ بن الشيخ محمد تقي الله بن الشيخ محمد فاضل

الخسائر من الجانب الفرنسي قتل أحمد بن علوات، وأحمد بن البوعلية، ومن جانب المسلمين سيدي بن أبيه وأحد أولاد داوود من الركيبات.

يوم نواذيبو: القائد محمد المامون بن اعل الشيخ استشهد فيه عبد الودود بن محمد الرقيبي من أولاد الشيخ.

يوم بير ولد سيد احمد: استشهد فيه الغوث بن المخلول الرقيبي.

يوم أم آغوابه: قتل من الجانب الفرنسي 44 فيهم ملازم فرنسي

يوم آغوينيت: قتل من جيش الاحتلال محمد سالم بن منظوم العلبي، ومولاه امبيريك، والشيخ بن بيز الدماني وبن آبيل من إديشلي وجندي زنجي،ومن جانب المسلمين استشهد بوم الفطر وجاهه بعد أن انقلب راجعا،أدركه الجيش عند كديه الرميثات، ولغلاء الجائزة التي كان الفرنسيون يعدون بها قاتل وجاهه ادعاه الكثيرون،كما مثل بجسده الطاهر.

يوم لكديم "حفرة ودان" قتل ثلاثون جنديا فرنسيا واستشهد عدد قليل معظمهم من الرقيبات منهم شنان بن محمد الامين من أهل اقربيط.

يوم الطريفية: في ابريل استشهد ثلاثون بينهم قائد الفرقة محمد عبد الله بن محمد عبد الوهاب وقتل من جانب جيش الاحتلال محمد سعيد بن خلاخل، وسيدي أحمد بن الوليف، الاكشاريان، ولميزيز العلبي، وأحد عشر فرنسيا فيهم نقيب.

يوم أزويكه : استشهد 15 ومن الجانب الفرنسي قتل 25

يوم توجنين:

يطلق عيلها الفرنسيون الليلة الدموية، يقول النقيب أوتون ليوفسكي، ظهر داعية أو نبي في الصحراء يدعوا لقتال الكفار يدعى محمد المامون بن محمد فاضل، ويلخص احداث المعركة بالقول "كانت الثكنة والمربع هادئين، وكل شيء على ما يرام لكن الرقيبات المتوحشين،..ربطوا أفواه جمالهم،وبدءوا يتسللون عراة، وعلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل أيقظ العريف دلبو

الضـــابط بروني ليتفقد زوايا المربع، ووجد كل شـــيء على ما يرام، والقمر يرتفع قليلا ســـمعت طلقة نارية تبعها صـوت وحشـي مخيف..رتب الرقيبات الأمور فالسـواعد مكلفون بالهجوم على القاعدة، والبهلات جنوبها، والبقية يقودها محمد المامي تقف في الشـمال، وهجم الجميع هجمة وحشـية،كانوا 170 من الرقيبات نصـف عراة، لم يسـتطع الرماة فعل شـيء غير الهرب وحاول العريف دلبو الاستفادة من سلاحه ففوجئ بسماع استغاثة الضابط، يئس الملازم من الوضـع، وأصيب في الرأس، نجي مسؤول المواصلات بنفسه يتبعه وابل من الطلقات النارية... والرقيبات يتصـايحون (ياعبيدات النصـارى) لن ترو النور بعد اليوم، واسـتمر الوضـع هكذا حتى السـاعة السادسة صباحا لينكشف الصبح عن ضحايا بشرية وحيوانات كثيرة"

يوم الرشيد:

جاءت العملية ردا على ما تعتبرته فرنســا خيانة محمد المختار بن حامد ورجاله،حيث أعلن الخضــوع لفرنســا وســلمته مدافع يحمى بها نفســه، فما كان منه إلا أن انضــم للمجاهدين في معركة انيملان، وأجهز على الفرنسين المنهزمين، فردت فرنسا بالهجوم على مقره بمدينة الرشيد فنصبوا المدافع ونكوا المنازل على السكان العزل.. فقتلوا العديد ونهبوا الممتلكات، ودمر منزل بن حامد، وتمكن من الانسحاب ثم هاجر إلى الديار المقدسة حيث توفي هناك.

يوم غسرمت:

تذكر المصـادر الفرنسـية أنها وقعت في نوفمبر 1923 وهي أول معركة ذي بال منذ عشـر سنوات، ففي الوقت الذي رجعت فيه إحدى الفرق الاستكشافية من تشكيلة النقيب درفيرس دمون بقيادة الملازم بدريني، بعد انتصـــارهما على إحدى مجموعات المقاومين قرب تنبكتو حيث استشهد تسعة رجال من أصل 11 رجلا. في هذا الأثناء ظهر وجاهه في منطقة انتيد مع 45 رجلا، فتعقبهم الملازم بدريســـن والعريف باليزت ومعهم العديد من المقاتلين حيث فوجئوا في ليلة 28 من نوفمبر عند زيرت الشـــريريك بإطلاق النار عليهم فقتل منهم أربعة وفر الخامس، وأسر القائد.وعند الفجر اندلعت المعركة، وكان المقاومون قد سبقوا الاحتلال لإحدى التلال ولم تدم المعركة طويلا حيث قتل الضـــابط والعريف الفرنســـيين، فلم يبد المقاتلون بعد ذلك مقاومة

فأســر خمســة منهم وتمكن اثنان وخمســة حراس من الفرار، وقتل من جيش الاحتلال محمد محمود بن حويرية العلبي، ومحمد بن ابراهيم بن حوبه الغيلاني.

وديان الخروب.. يوم الحزن

قصـة استشهاد الأمير لما احتل الفرنسيون آدرار سنة 1909 لم يقبل الأمير سيد أحمد بن أحمد عيدة الخضوع فلجأ مع مجموعات من أولاد غيلان والرقيبات، وأولاد بسباع، إلى مناطق جبلية نظموا منها المقاومة، غير أن القوة الاســتعمارية فرضــت واقعا ترتب عليه تفكك المجموعة، فتوجه الأمير إلى الســمارة " ولم يحظ بمقابلة الشــيخ ماء العينين الذي توفي قبل مجيئه بقليل، فاتجه إلى الحوض، لعل ما دفعه لذلك هو أن الحوض في تلك الفترة لم يتم إخضــاعه، وبدأت تتشــكل فيه نواة المقاومة على يد أبناء عبدوك، غير أن الفرنســيين علموا بتحركه فهاجمه العقيد باتي يوم 13 نوفمبر 1912 وأســفر الهجوم عن اســتشــهاد احمد بن إبراهيم بن مكيه وتسعة آخرون، وأصيب الأمير بجروح أسر بسببها ونقل إلى مدينة سان لوي الســنغالية، ثم أبرموا معه اتفاقا عاد بســببه إلى آدرار وبعد عودته لم يطب له المقام تحت الاحتلال فقرر الهجرة تحت ستار البحث عن المراعي، غير أن الاحتلال أمر قائد فرقة البيظه المكلف بمراقبة الحدود بإعادة الأمير الذي وصــل إلى ما بين امقيطر والغلاوية، واتجهت فرقة أخرى بقيادة الملازم مسيوني، يساعده ضابط الصف نيكروني، وضابط الصف الشيخ بن المشظوفي من قبيلة الأمير وصلوا عين المكان يوم 11 نوفمبر، فسبقوا الأمير الذي وصل يوم 13،فأخبروه بأن تعليمات وردت برد كل من تجاوز الغلاوية، وأفهمه بن المشــظوفي أنه سيحاكم، فتعلل الأمير بتفرق المواشي فأعطاه الضابط فرصة يوم واحد لجمعها، في الصباح قام الضابط الفرنسي بتقسيم فرقته إلى مجموعتين إحداهما تتألف من 13 جنديا يقودها بنفسه ترافق الأمير، والثانية من ثمانية جنود يقودها ضابط الصف ترافق الحي ومواشيه،.

وفي المقيل نصب للضابط خيمة على البنادق وفي جلسة الشاي صدرت من الأمير كلمة فهم منها محمد بن خطور الذي كان ينظف بندقيته قرب الملازم ما أراد الأمير فأطلق عليه النار وقتله.فوقع الهلع في بقية الفرقة فانضــم المجندون الآداريون إلى الأمير وقضــى على الباقي، وعفا عن جندي واحد، وعادوا إلى الحي وأوهموا الضابط المرافق للحي أن لديهم رسالة

مستعجلة من القائد فأطلقوا عليه النار وقتلوه وساروا في اتجاه الشمال على مهل، لكن الجندي الذي عفا عنه الأمير وجد جملا فركبه ووصل لقائد فرقة البيظه مساء.

فأعلنت حالة الطوارئ وأرسلت قوة مطاردة قوامها 100 جندي وفي يوم 15 نوفمبر وصلوا وديان الخروب وبدأت المعركة فاستشهد الأمير وأحد عشر من رجاله ونجي 15 وكان على وشك الوصول إلى قبائل الرقيبات خاصة حي محمد محمود بن الخليل، وقد مثل الفرنسيون بجسمه الطاهر حيث قطعوا رأسه ورموه في حجر والدته وسألوها بتهكم هل تعرفين صاحب هذا الرأس؟ فقالت نعم هو هازمكم يوم كذا وكذا وعددت أيام أنتصاراته، إنها مدنية وإنسانية فرنسا التي بشر بها كبولاني، وما زال منا من يتغنى بها.

شهداء وديان الخروب والمشاركون.

الأمير سيد احمد بن عيدة

.البشير بن اعل فال سيدي محمد بن الشيخ بن عثمان حمدي بن الاكرع محمد بن اسويدي بوبالي بن احمد لعبيد محمد بن لمقمبج لحبيب بن فالي بوفروة بن احمد الجيد

الناجون اعل شنظورة احمد عيدةالمختار لكرع محمد المختار اندي محمد سالم المشظوفي محمد سالم الدبيه محمد المنى لخريد اعل باب سيدي بوكزان سيدي انقيميش الشيخ الكوري المشظوفياعمر لوليف عثمان حمدي الاكرع محمد اسويدي بوبالي احمد لعبيد محمد لمقمبج لحبيب فالي بوفروة احمد الجيد

يوم أم التونسي 1932:

إذا كانت قبيلة إيديشـــلي وخاصـــة أهل التناكي، بحق هم من قطعوا رأس الأفعى اكزافيى كبولاني، مهندس احتلال موريتانيا في معركة تجكجة عام 1905، فإن قبيلة أولاد دليم هي الأخرى من سطرت ملحمة أم التونسي خاتمة المعارك الكبرى مع الاستعمار.

"ففي 18 أغسطس عام 1932 بُوغتت الفرقة المتنقلة للترارزة، من قبل أولاد أدليم على كثيب أم التونسي، وبعد أن هزمت تماما اضطرت إلى التقهقر تاركة جثة الملازم مكماهـــان (نجل الرئيس الفرنسي حينها) وخمسة ضباط صف،وعشرة قناصة، واثنين وعشرين من الحرس [228]".

كان أبطال هذه المعركة ركب من خمســـين جملا من منطقة يغرف التقى الركب بضـــابط الصـــف محمد بن غناه الله وتبادل معهم إطلاق النار وقتل ثلاثة من جنوده،وأرســـل في طلب النجدة،فوجئت النجدة بالكتيبة وقد تترست بكثيب أم التونســي واندلعت معركة شرســة وصــفها الضــابط الفرنســي النقيب دوتون "بأنها صــفحة دماء وحداد، وهزيمة نكراء حيث أصــبح الجيش يقاتل مدبرا، مخلفا الجثث وعلى رأسـهم الضـابط مكهمان وخمسـة ضـباط صـف وعشـرة رماة و25 جنديا، وسـبعة وعشـرون مصـابا بينهم رئيس الفرقة الذي أثخنته الجراح واتجهوا به إلى الشمال للعلاج وكانت وقعة مرة [229]"

وذكر الشـيخ الطالب أخيار بن الشـيخ مامين بعض المجندين البيظان الذين قتلوا تحت العلم الفرنسـي في هذه المعركة بالقول " قتل مجندون بيظان كثيرون، منهم من قبيلة لعلب سـيدنا بن عثمان بن عبد الله، وعثمان بن أحمد، والأفضـــل بن ســـيدنا،واعل بن حميد وأخوه،ومولى لهم يدعى إبراهيم الكوري".

لا ئحة بأسماء شهداء معركة ام التونسي 1932

سيدي بن الشيخ العروسي	أولاد دليم

[228] الغزوات على أذرار النقيب دوتون اليوسكي ترجمة اجيه ولد محمد فاضل طبعة ألكترونية.

[229] الشيخ الطالب اخيار : الشيخ ماء العينين علماء وأمراء.

براهيم السالم بن ابيه بن بكار	أولاد دليم
عبد الفتاح بن العالم	أولاد دليم
عبد الله بن الخطاط	أولاد دليم
الشيخ بن امبيريك بن بكار	أولاد دليم
سويليمه بن الفراح	أولاد دليم
سعيد بن احمد لعمر	أولاد دليم
إعل بن حمين	أولاد دليم
حمادي بن امبارك	أولاد دليم
كنه بن الشيخ بن العروسي	أولاد دليم
الشيخ بن حنان	أولاد دليم
سيدي بن القاظي	أولاد اللب
إعل بن الكوري	أولاد اللب
انيونو بن الشيخ المختار	أولاد بسبع
سيدي محمد بن الشيخ المختار	أولاد بسبع
المصطفى بن هويد	الرقيبات
أحمد بن خطاري	تكنة

لائحة بأسماء جرحى معركة أم التونسي 1932

احمد بن سيد احمد بن ميشان	أولاد دليم
محمد بن باهية	أولاد دليم
السيد بن المين بن بوسيف	أولاد دليم
أحمد بن الخطاط	أولاد دليم
الدوه بن المين بن بوسيف	أولاد دليم
السيود بن امبارك	أولاد دليم
الشيباني بن بوبكر	أولاد دليم
اسويدات بن الناجم	أولاد دليم
حمدي بن باب بن بوسيف	أولاد دليم

اعل بن امبيريك بن بكار	أولاد دليم
حم لمين بن باهية	أولاد دليم
عبداتي بن الخطاط	أولاد دليم
أحمد بن بيه بن بكار	أولاد دليم
أحمد بن براهيم بن الصلاي	أولاد دليم
حمادي بن حمادي	أولاد دليم
براهيم السالم بن الخطاط	أولاد دليم
أحمد بن بوهدة	أولاد اللب
رمظان بن آمغير	فخذ آيت لحسن تكنه

هذه بعض المعارك التي خاضها المجاهدون البيظان، ولا شك أن شراستها، وتعدد المشاركين فيها واختلاف قبائلهم وشرائحهم ومناطقهم، وطول المدة الزمنية التي تواصلت فيها لا تترك مجالا للشك لمعرفة مدى التضحيات التي قدمها البيظان دفاعا عن أرضهم، وكم من الضحايا سقطوا، فقد كانت ضريبة الاحتلال باهظة على الغزاة كما دفعها المجاهدون بصدق وإيمان راسخ وثقة في النفس.

تصدع المقاومة

مفارقة عجيبة أن تكون بداية الحرب العالمية الأولى هي بداية تصدع المقاومة الموريتانية التي كان أداؤها متواضعا نوعا ما في تلك الفترة، ولذلك أسبابه الموضوعية. ففي المناطق الشرقية، وقبيل اندلاع المقاومة فيها، كان زعيم قبيلة مشظوف القوية اعل بن محمد محمود صريحا في مساندة فرنسا، بل إنه أرسل أخاه لبات ليطلب رسميا احتلال ولاته حيث قابل في الثاني يناير 1912 في قرية باسكنو الكونتل روليه الذي أعاد له تأكيد ولاء قبيلته وحسن استقبالهم للفرنسي الذي يحمل معه السلام. "ودخل روليه ولاته في السابع والعشرين يناير ثم

واصل تقدمه بعد ذلك إلى تيشيت حيث اتصل بقوة باتي في 17 فبراير وكان هذا أول اتصال بين وحدات السودان وموريتانيا "[230].

ومع أن هذا الاحتلال لم يمنع من اندلاع المقاومة على يد أهل عبدوك كما مر معنا قبل حين، فإن أحاديث بابه في آدرار قد أثرت إلى حد كبير على موقف المقاومة كما يقول غورو في مذكراته. "كانت أحاديث الشيخ سيديّ (بابه) خلال شهر رمضان الذي انتهى منتصف أكتوبر من ذلك العام 1909 تدعو إلى الهدوء والانتظام في سلك السلطة الفرنسية... ويدعي غورو "أن الشيخ سيديّ قد استغل وفرة الأمطار والمراعي في ذلك العام وسيلة للدعاية عن الخير الذي لازم مجيء الفرنسين"[231] إضافة طبعا إلى القمع الذي مورس وعدم تكافئ الوسائل. ولا تكاد الحرب العالمية الأولى توشك على نهايتها حتى يتقدم ثلاثة من أبناء الشيخ ماء العينين إلى السلطات الفرنسية معلنين خضوعهم وهم: الشيخ حسن، وسيدي بوي، وعبد الوهاب تقدموا إلى المفوض الفرنسي في موريتانيا الكونتل بوسيه بطلب رسمي لقبول خضوعهم بصفة نهائية "

كما شهد هذا العام كذلك "خضوع محمد ولد الخليل زعيم اركيبات الساحل الذي سافر إلى دكار ومعه محمد ولد البخاري، وأميري الترارزة، وآدرار وكذلك بابه ولد الشيخ سيديّ حيث قدما خضوعهما في ريفسكي إلى الحاكم بونتي في 20 مايو 1914"[232].

وجاءت 1919 منهية تماسك أهل الشيخ ماء العينين على الجبهة الشمالية حيث بدت الفرقة والانقسامات بينهم "على أساس اختلاف المصالح وخاصة بين المستقرين (الهيبة و مربيه والطالب بوي، ومحمد إبراهيم ومحمد الإمام، والنعمة) والرُحل (الطالب أخيار، ومحمد لغظف، والولي، وعبداتي)، وكان أولهم الطالب أخيار شقيق الهيبة الذي طلب استقباله في آطار ليقدم

- Ogiras Chf d' escadront chronique d' ouste saherien 1900-1930, renseignments coloniaux, mai 1930, p 276230

231 . غورو ص234 mauritanie –adrdr-souvenir d un africain (1907-1910)
Plon. Paris 1936 reedition 1949

232 . وثائق بن حرمه

خضوعه إلى قائد الدائرة الكوماندان بودوم. وقد تم ذلك في 29 مارس 1919 بعد أن وافق على طلبه بالضمانات التالية:

-أن يقيم في محيط محدد

- أن يترك أحد أبنائه رهينة في آطار

- أن يسلم هو وأتباعه أسلحتهم فيما عدى أسلحة الصيد

- أن يتعهد بعدم التدخل بأي شكل في السياسية الداخلية الموريتانية".

وكان خضوعه نصرا كبيرا لبابه ولد الشيخ سيديّ الذي صحبه في يوليو 1919 إلى دكار "حيث قدمه إلى الحاكم العام أنكلوفان الذي أكد له إعادة أموال العائلة في آدرار، وقد توطدت العلاقة بعد ذلك بين الشـــيخ ســـيديّ والطالب أخيار الذي رافق الزعيم الديني الكبير في بتيلميت... وطلب منه إحدى بناته ليتزوج منها ووافق الشيخ سيديّ بشرط أن يمارس الطالب أخيار ضغطه على كل إخوته لتقديم خضوعهم[233]".

[233] وثائق حرمة ص 199

"ثمة أناس حبوا، وكرهوا وتألموا واخترعوا وقاتلوا، في الحقيقة لا وجود لشـعوب قاصـرة، كل الشعوب راشدة حتى تلك التي لم تكتب تاريخ طفولتها وفنونها"

كلود ليفي شتراوس

"من خضع للاستعمار أو والاه بعد أن قاتله فاستنفذ وسائله وأجبرته الظروف فأصبح الطرف الأضـعف المقهور، ليس كمن خضـع له أو والاه خوفا من الموت أو بحثا عن المصـلحة والمكانة. والفرق واضح بين من جنح للسلم وهو مكره صاغر، ومن جنح له وهو خائف طامع. فسلام الأول شرف وشجاعة نائمة، وسلام الثاني مذلة وجبن يقظان"

محمد فال ولد سيدي ميلله
كاتب صحفي موريتاني

بعد ثلاثة عقود من التصـادم العنيف حينا، والمناوشـات البسـيطة والمربكة للاحتلال أحيانا أخرى، تمت لفرنسا المتفوقة السيطرة على ما كان مكتشفوها و رحالتها وإداريوها يسمونه "بلاد البيضـان"، مخلفة وراءها ذكريات مأسـاوية في نفوس المواطنين الذين سـلبت حريتهم واحتلت أرضهم، بعضهم شرد والبعض قتل، وآخرون ربما ارتكبت في حقهم فظائع لم يكشف حتى الآن عنها، بل لم يجرأ أحد منا على التسـائل حول ما إذا كانت حدثت أصـلا، وان نظر إلي المجاهدين بعيدا عن الرؤية الاسـتعمارية التي تفرغ مقاومتهم من جميع المضـامين النضـالية، وتقدمهم في صورة نهبة يّروعّون الأمنين ويستولون على ممتلكاتهم.

انجرفنا نحن بدورنا وراء تلك الصـورة الزائفة التي قدمت لنا، وقبلناها وأصـبحنا ندافع عنها باعتبارها حقيقة لا تقبل النقاش، فصـوروا لنا الوضـع الذي كان سـائدا قبل الاحتلال بأنه لا يطاق بسبب الانفلات الأمني.علما بأن أي رؤية وتأمل عميقين لا يحتاجان ذكاء خارقا يكشفان بداهة تناقض تلك الرؤية والأطروحات المترتبة عليها. صـحيح أن مجتمع البيظان نهاية القرن 19وبداية القرن 20 كان يعرف قدرا من الاضطرابات التي أنتجتها عوامل متعددة، لفرنسا الدور

الكبير في تعميق بعضـها من خلال تدخلاتها المباشـرة، وغير المباشـرة في شـؤون المناطق المحاذية لنفوذها والتي تنعكس سلبا نظرا لبنية المجتمع السلالية فتشمل مناطق شاسعة وبعيدة من مناطق الاحتكاك، لكن تلك الاضـطرابات كانت حالات شـاذة، ولو كانت هي القاعدة لكان المجتمع قد تلاشـى قبل وصـول الفرنسـين بفترة، ولما ازدهرت فيه الثقافة العالمة التي تحتاج الأمن، والتي تروج فرنسـا أن أصـحابها –أي الثقافة العالمة– كانوا يعانون الحيف من الحكام والمحاربين، ولما ازدهرت التجارة التي لا تروج في ظل الحروب وغياب الأمن مع الفرنسـيين أنفسهم كما مر معنا.

إن تأملا عقلانيا ودراسـة واعية لهذا الجانب من تاريخنا من قبل باحثين متمرسـين همهم معرفة حقيقة ما حدث وتحليل الأمور بعيدا عن المؤثرات سـتمكن من إعادة الاعتبار للذين قاوموا، والتأكد من كونهم لم يكونوا نهبة، وإنما كانوا مدافعين شـرفاء عن أوطانهم المحتلة، لكن حسب ظروفهم وثقافة مجتمعهم في التعاطي مع الشأن العام، ورؤيتهم للأمور وإمكانياتهم، كما أن الانتباه إلى التوظيف الفرنسـي للبعد القبلي قديما لتعميق الهوة بين المجتمع، وحديثا لتكريس فكرة الفرقة بين أبناء القبائل والجهات، كلها أمور ينبغي التنبيه لها لأنها مضـيعة لحقيقة ما حدث، لأن ما يهمنا جميعا هو معرفة تضـحيات أسـلافنا وتضـامنهم في وجه المحتل، وتحملهم لمسؤوليات مجتمعهم تجاه عدوهم المتفوق الذي استطاع شق صفهم على جميع الصُعد ذات التأثير على المجتمع.

بهذه الخلفية أعتقد أننا سنتمكن من كشف واكتشاف الكثير من أعمال مقاومتنا، إنها ببساطة إعادة قراءة تاريخنا بعيون محلية تحلل وتستنتج، تناقش الفرضيات وتدافع عن المسلمات في غياب صـورة وصـوت الآخر الذي كان يمثل ضـمير الأمة في مقاومة الاحتلال والذي اختفت صورته حتى من الذاكرة كما يراد لبطولاته أن تختفي من التاريخ.

ثلاثة عقود من التضـحية ابتداء من الضـفة اليمنى لنهر السـنغال غربا في الترارزة، وحتى أعالي نهر النيجر شرقا في آزواد، إلى السماره وتيندوف شمالا، إلى هضاب لعصابة جنوبا،كل هذه الصحراء المترامية شهدت معارك باسلة مع الغزاة الأوربيين إلى أن تمت لهم السيطرة التامة وتمزيق روابط هذا الشـعب.لكن ذلك تم في الوقت الضـائع، فقد كانت لهم مشـاكلهم وحروبهم،

فلم يكد عقد أربعينيات القرن الماضي تنصرم حتى كان أبناء جزء من هذه الصحراء يدشنون مرحلة جديدة من النضال، هذه المرة بوسائل مغايرة لتلك المعهودة وإن كانت امتدادا لها من حيث الهدف المتمثل في التخلص من المحتل.

لا شك أن قادة النضال السياسي الذين أخذوا المشعل لولا تسارع الأحداث والظروف الدولية، لكان التصادم المسلح مع الفرنسيين مآلهم، علما بأن البعض منهم لم يسقطه بل تبناه كخيار يمكن اللجوء إليه –حال حزب النهضة– إن نحن ناقشنا فكره ورؤيته بعيدا كذلك عن مواقف معارضيه الذين صارت لهم الغلبة وتولوا زمام أمور الأمة بعد نشوء الدولة على هذا الجزء من أرض البيضان الذي أصبح يحمل اسم "موريتانيا"، بعد أن قسمت تلك الأرض إلى أربع مجالات أحداها ألحق بالجزائر (منطقة تيندوف) وأخرى ألحقت بجمهورية مالي (منطقة أزواد) والثالثة كانت من نصيب الأسبان (منطقة الصحراء الغربية التي تحتلها المغرب الآن) ثم موريتانيا الدولة البيضانية.

إذا كانت ظروف احتلال فرنسا من طرف النازيين فرضت عليها الاستعانة بالأفارقة لتحرير أراضيها، فإن وعودها لهم في مؤتمر برازافيل ونتائج الحرب القاسية بصفة خاصة مهدتا الطريق للوفاء بتلك العهود التي تحققت بعد عقدين من ذلك المؤتمر تقريبا. فقد كان من نتائج الحرب المباشرة ظهور دستور عام1946 الذي منح لأفارقة حق التصويت والمشاركة في الحياة السياسية وفق آليات محددة، وبذلك تم في اكتوبر 1946 "دخول ستة من الأفارقة السود إلى البرلمان الفرنسي على لوائح الحزبين الاشتراكي والشيوعي، أربعة عن الأول وهم سنغور داعية الزنجية، والأمين غي داعية حق المواطنة لكل سكان المستعمرات، وياسين جالو، وفيلي فين دابو سيسكو، أما الإثنان الأخيران عن الحزب الشيوعي فهما هابيتي وابيني، ثم اتسع الجسم الانتخابي خلال أعوام 1952–1954 ليضم21 نائبا إفريقيا. وكانت قوانين 1946 قد أعطت الحريات الأساسية كالتجمعات والصحافة وألغت الأعمال الإجبارية التي كان يقوم بها أبناء المستعمرات للإدارة الاستعمارية.

ولم تكن موريتانيا بعيدة عن كل هذه التطورات فهي جزء من المنطقة ومشمولة بإصلاحاتها، وقد تجلت البداية الفعلية للعمل السياسي في أرض البيظان بدخول الزعيم الوطني أحمدُ ولد

حرمة ولد بابانا العلوي للبرلمان الفرنسي، بعد الإصلاح الدستوري للجمهورية الرابعة في أكتوبر عام 1946 حرمة ولد ببانا من مواليد العشرية الأولى للقرن العشرين، من عائلة محافظة ومن قبيلة لها تاريخ طويل مع العلم والعمل به، نهل من المعارف الاسلامية، قبل أن يلجأ المدارس الفرنسية التي تخرج منها معلما ثم مترجما، وظيفة جعلته اكثر احتكاكا واطلاعا على الإدارة الاستعمارية، كما مكنته من الاطلاع على أحوال مواطنيه في مناطق مختلفة،وما يعانون من ظلم على يد المحتل واعوانه، فما إن أتيحت له الفرصة حتى كان على الموعد مرشحا نفسه على لوائح الاشتراكية الدولية، في نوفمبر 1946 هزم مرشح الإدارة الاستعمارية الفرنسي (ايفون رازاك) بأغلبية 63% من الاصوات وكان عند حسن ظن ناخبيه حيث نجح في إقناع الاستعمار بإلغاء العمل القسري عن المواطنين، والغاء ضريبة الشخص، والضيافة الإجبارية للجنود.

ولم يغب عنه هم الأمة حيث وقف رافضا لتقسيم فلسطين وهدد بإعلان الجهاد ضد فرنسا، وأخيرا انسحب من العمالية الدولية احتجاجا على اعترافها بالدولة الصهيونية وهو ما لم تغفره له فرنسا.بعد فوزه بفترة قصيرة تأسس في موريتانيا سنة 1948حزب الاتحاد التقدمي، حزب ضم غالبية الزعامات القبلية والعديد من الشباب المتخرج من المدارس الفرنسية، واستطاع استقطاب العديد من الزعامات الدينية وبدا واضحا من خطه أنه وجد بإرادة فرنسية ضد المنهج التحرري الذي يعتمده بن حرمه في نضاله ضد الاستعمار، فرد حرمة بإنشاء حزب الوفاق الموريتاني سنة 1950 وترشح لانتخابات 17 يونيو 1951 ضد مرشح الإدارة الفرنسية سيد المختار ولد يحيى انجاي[234]، الذي فاز بـــــ 24.753 صوتا، مقابل 23.628 صوتا حصل عليها بن حرمة، إنه فارق ضئيل لمرشخ ضد الزعامات التقليدية والادارة الاستعمارية وناخبون متخلفون وخائفون.

في انتخابات 1952 قدم طعونا كاد المجلس الدستوري الفرنسي الاستماع إليها لولا إعلان السلطة الفرنسية أن مصلحتها فوق الأشخاص والأحزاب، وأن ولد حرمه يجب إبعاده، وخلال تواجده في باريس ابلغته مخابرات عربية بأن قرار تصفيته جسديا قد اتخذ، فغادر إلى جنيف ومنها إلى القاهرة حيث فتح صفحة جديدة مع مناضلي أقطار المغرب العربي، ومن القاهرة

---

[234] ولد يحيى انجاي زنجي لأم بيضانية توفي سنة 1997

بدأ الحديث لمواطنيه بضرورة الكفاح المسلح، فأصدرت فرنسا حكما غيابيا بإعدامه وحل حزبه، وبعد استقلال المغرب عرضوا عليه الاقامة قرب وطنه كي يواصل كفاحه وقد استجاب للطلب، وبعد استقلال موريتانيا 1960 وقعت مع فرنسا اتفاقيات الدفاع المشترك، وسيطرة فرنسا على المعادن، والاحتفاظ بقواعد عسكرية، وتوحيد السياسة الخارجية، وأن تظل موريتانيا ضمن المنظومة الافريقية الفرنسية، وهو ما أعتربه حرمه افراغا للاستقلال من مضمونه، فحكمت عليه الحكومة الموريتانية بالاعدام غيابا سنة1960 وظل الحكم ساريا إلى أن الغى الرئيس الفرنسي جورج بوميدو سنة 1973 حكم الاعدام ضده، فأصدرت الحكومة الموريتانية هي الأخرى عفوا عنه، وعاد إلى بلاده سنة 1974 وظل بها حتى وفاته رحمه الله يوم السبت 12 شعبان 1399هـ الموافق 7 يوليو 1979 ودفن في مقبرة تمبيعلي حيث يرقد والداه رحم الله الجميع.

هذا باختصار تاريخ أول مواطن موريتاني ينتخب نائبا في البرلمان الفرنسي عن الاشتراكية العالمية، وهو أول بيضاني يصل هذه المرتبة في العهد الاستعماري، وكان الاشتراكيون هم من أعطوا قاعدة تنظيمية دون تغيير الدستور وذلك من خلال قانون الإطار لأقاليم ما وراء البحار الذي تم التصويت عليه في يوليو 1956، وينص على أن يكون الوالي في كل إقليم رئيسا لمجلس الحكومة المكون من وزراء منتخبين عن طريق جمعية إقليمية ويكون أولهم نائبا للرئيس.

وكان أول حزب عرفته موريتانيا هو حزب الاتحاد التقدمي الذي تأسس عام 1948، وتلاه بعد عامين حزب الوفاق، ثم جمعية الشباب عام 1955م. وقد تشكل من شباب انفصلوا عن الاتحاد التقدمي وطالبوا بالاستقلال السريع ورحيل فرنسا الكامل، غير أنه ما لبث أن شهد انقسامات في مؤتمره الثاني عام 1958 حيث قاد محمد بن الشيخ اتجاها يدعو إلى التنسيق مع الحزب التقدمي، أما الاتجاه الثاني فكان يقوده الأمير التروزي محمد فال بن عمير وبوياكي بن عابدين المشظوفي، ومحمد أحمد بن التقي، وأحمد بابه بن أحمد مسكه، وقد عملوا على تأسيس حزب النهضة".

نحو قيام دولة البيضان

هذه الصيغة اخترتها لانسجامها مع موضوع البحث الذي تناول مقاومة البيظان (العرب) الذين تمثلون اكثرية مكونات الشعب الموريتاني والصحراوي وأقلية في الجزائر ومالي، وكان المستكشفون الفرنسيون يطلقون على مساحات شاسعة من هذه المنطقة "أرض البيضان"، لم تشمل موريتانيا الحديثة كامل أرض البيضان التاريخية.

كما ننبه إلى أنه منذ ظهور دولة موريتانيا الحديثة وبعض الكتاب والرسميين العرب يثيرون بين الفينة والأخرى مسألة عروبتها، وكذلك بعض الكتاب المحليين. ورغم أننا لسنا بصدد الحديث عن جدلية نفي أو إثبات هذه المسألة، لأننا لا نعتقد أن لها قيمة علمية، كما أننا لا نعتقد وجود عرق نقي أصلا، فجل عرب اليوم هم نتيجة انصهارات كبيرة لشعوب كثيرة كانت داخل الإمبراطوريات الإسلامية.

إضافة إلى هذه الملاحظة فإننا نعتقد أن كتابات موريتانية معاصرة –بغض النظر عن البعد السياسي للمسألة– ساعدت، ولو عن غير قصد في جهل أو تجاهل هذا الشعب العربي أو المعرب جدا، وذلك من خلال إدراجهم على استعمال مصطلح بني حسان للدلالة على هجرات القبائل العربية إلى هذه الربوع والاقتصار على هذه التسمية دون إعادتها إلى أحد الأصول الشائعة في كتب التاريخ (بنوا هلال) باعتبارهم أكبر هجرة قبلية عربية عرفها تاريخ المغرب الإسلامي، وما أحدثت من تأثيرات على الدول والشعوب التي كانت تعمر المجال الذي انساحوا فيه، أو إعادة بني حسان إلى الفرع المعقلي من ذلك التجمع باعتباره الأكثر شهرة على مستوى أقاليم المغرب العربي، حيث التسميتان هما الأكثر كثافة من حيث الدلالة،أما تسمية بني حسان فلا تعدو كونها تسمية محلية ولا زخم لها خارج مجال جغرافي ضيق ومعزول في الصحراء الكبرى، مقارنة بسابقتيها، إضافة إلى القفزة الكبيرة إلى الأصل الحميري دون اهتمام بالتاريخ الكبير والثري سواء قبل الإسلام أو بعده لقبائل صنهاجة الذين يشكلون غالبية هذا الشعب.

البيضان أو البيظان كما سبق وأن أشرنا هي كلمة يطلقها سكان المجال الجغرافي الممتد من شواطئ الأطلسي غربا إلى صحارى النيجر شرقا ومن جنوب سوس بالمغرب

الأقصى شمالا إلي مصب نهر السنغال جنوبا،لفظة يطلقونها تميزا لهم عن غيرهم من الشعوب التي تجاورهم أو تســاكنهم، وهي في دلالتها تعطي الآخر معنى الأعجمي في التراث العربي، كما أنه لا علاقة لها بالأصــول العرقية، فهي تدل على الشــعوب العربية وتلك المعربة الذين امتزجوا عبر الزمن وشكلوا ثقافة واحدة خاصة بهم، وكان الغربيون حسب الدكتور محمدو بن محمدن هم أول من أطلق كلمة "أرض البيضــان" للدلالة على المجال الجغرافي لهذا الشــعب "قبل أن يستعمل الضابط جان فرانسوا كاي سنة 1843م مصطلح موريتانيا التي اختصرت هذا المجال الواسع في جزء منه"[235]. ومن ناحية أخرى توجد في تاريخ هذا الشعب ثلاث منعطفات كبرى نعتقد أنها تشكل مرجعية مساعدة على فهم تحولاته التاريخية المهمة قبل قيام الدولة التي تضم الآن الجزء الأكبر منه.

المنعطف الأول: مثلته حركة المرابطين التي ظهرت في هذه الربوع في بحر القرن الخامس الهجري، والتي رسخت المذهب المالكي في المنطقة عموما، وأزاحت المذاهب والمعتقدات التي كانت منتشرة قبله، خاصة المذهب الحنفي، والأباضي ، والشيعي،كما شهد توسعا وانتشارا كذلك في أمم الزنوج المجاورة.

كما عرفت المنطقة بعد المرابطين انتشــار العقيدة الأشــعرية[236]، ثم انتشــرت فيها الطرق الصوفية التي تشكل إلى حد كبير مصدر تلاحم شعوب المنطقة وتفاعلها، زنوجا وعربا، في عموم أقاليم غرب وشمال إفريقيا التي تشكل موريتانيا أو أرض البيظان جزءا منهم.

المنعطف الثاني: شــكله إنســياح قبائل بني هلال العربية في نســختهم الحســانية إلى هذه الربوع، فشــكل ذلك الانســياح تمازجهم مع قبائل صــنهاجة، مما أعطى دفعا لحركة التعريب، كما أحدث تغييرا في التركيبة الســسـيو ثقافية. فحل لســان بني حســان – أي العربية– محل اللسان الصنهاجي واندمج الكل في بوتقة واحدة، مثلما اندمجت الشعوب السابقة مع صنهاجة،

---

235 . محمدو المجتمع البيضاني، ص: 177

236 تثر نسبة هذه العقيدة إلى أبي الحسن الأشعري استشكالا كبيراً ففي كتابيه الإبانة، ومذاهب الإسلاميين هو مجسم حنبلي بامتياز بينما التنزيه في هذه الطريقة يمثله أساسا فكر الغزالي والرازي ومتأخروا من يطلق عليهم الأشاعرة،وكذلك يكتنف غموض كبير سيرة هذا الرجل.

ولعل عاملين لعبا دورا في حركة التعريب، المذهب المالكي الذي يشترط التعبد باللسان العربي، والتجارة الوافدة من الحواضر الإسلامية.

المنعطف الثالث: شكله الوافد الأوربي المتمثل في الاحتلال الفرنسي، وما فرض من نمط للدولة المركزية ونظمها الإدارية غير المعهودة، والتي أثرت بدورها على المفاهيم والتعاطي السياسي، فأنتجت قيما لم تكن معروفة ولا مقبولة عند الكثيرين، وتدريجيا كان المجتمع يسير نحو الدولة المركزية على الطريقة الأوربية لنمط الدولة الحديثة الذي لا يتماشي وطبيعة المجتمع غير المتعود على الحدود التي تفرض قيودا على ترحاله، تماما مثل الإدارة التي فرضت ضرائب على دخوله.

ربما لا نجانب الصواب إن قلنا إن الكفاح المسلح أو الجهاد لم ينته في بلاد البيضان عام 1934م حتى بدأ النضال السياسي في الجزء الذي يعرف بموريتانيا الحالية، نضال بدوره وليد تفاعل عناصر عديدة منها ما حمله المشروع الاستعماري نفسه، ومنها ما كان ردة فعل طبيعية على تصرفاته وإحداثاته.

ولعل المدارس التي أنشئت لتكوين كادر محلي يساعد الإدارة الاستعمارية على التعامل مع الأهالي، كان اللبنة الأولى للنضال من أجل الاستقلال، إضافة إلى عامل الحرب العالمية الثانية التي أوهنت الدول الاستعمارية عن مواصلة قبضتها على المستعمرات،وتحطم أسطورة الرجل الأبيض المتفوق الذي لا يقهر "كما يُقال"حيث استعان هذا الرجل بأبناء المستعمرات من أجل تحرير بلاده من الاحتلال النازي، مقابل وعود بتحريرهم فيما بعد.

وساعدت هزيمة فرنسا على إنهاء عقدة الخوف والتفوق عند المستعمرين، وأدت الهزيمة كذلك إلى عجز فرنسا عن مواصلة احتلال مناطق شاسعة أو حتى البقاء في مستعمراتها، فبدأت السماح للمواطنين المحليين بتكوين تجمعات سياسية ونقابات تسمع أصواتهم بما لا يزعج السيد المهزوم، وبمباركته في بعض الأحيان استباقا منها لما هو أسوأ، فكان مؤتمر برازافيل بالكنغو الفرنسية ووعوده فاتحة أمل للشعوب الإفريقية الفرنسية عموما، وتحولا مهد لظهور دول إفريقية من ضمنها دولة البيضان "موريتانيا"ومن أهم الاستحبالات التي سبقت هذا المؤتمر "تبدل الثقافة الاجتماعية وتكون نخبة صغيرة مغربة، وهي ظاهرة شاعت في الجزء

الثاني من الفترة الاستعمارية كنتيجة لسياسة ما بعد الحرب العالمية الثانية"، إضافة إلى ضعف الدول الأوربية والصعود النهائي لجبروت الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة "ومشاركة الفرق الإفريقية في الحرب، وتمثل النهضة العربية، وتحرر آسيا، كلها عناصر ساهمت في تشجيع حركات تحرير إفريقيا "[237].إضافة إلى معاهدة الأطلسي الانكلو-أمريكية عام 1941م التي نصت على "حق الشعوب في اختيار شكل حكوماتها وتقرير مصيرها".

في هذا الجو الدولي المساعد "شهد عام 1944م المؤتمر الإفريقي الفرنسي في برازافيل، وكانت لجنة التحرير الوطني الفرنسي قد شكلت قبل ذلك في يوليو بالجزائر تحت سلطة الجنرال ديغول، وقد سجل انضمام جميع أراضي الإمبراطورية الفرنسية في المقاومة كما حضر كل الولاة والعديد من كبار المسؤولين في أفريقيا الاستوائية، والاستماع إلى أفكارهم تحت رئاسة مفوض المستعمرات حول مشروع مستقبل الأراضي بعد الهزات الكبرى للحرب. وقد اعترفت اللجنة بالمساهمة الخاصة لإفريقيا في مجهودات الحرب[238] وكانت هذه الأحداث ممهدة لاستحداث إصلاحات سياسية واسعة ساعدت على تكوين أحزاب سياسية.

ملاحظات حول بعض خيارات دولة آمالزن[239]

"إمالزن" كلمة محلية تطلق على الترجمان، ويقال إن أصلها صنهاجي، وأن من معانيها بائع الصمغ (العلك). وهي سلعة كانت رائجة لعدة قرون لدى السكان نظرا لأهميتها في التبادل التجاري مع الأوربيين. وقد شكلت هذه السلعة مع عناصر أخرى أطماع الأوروبيين في هذه البلاد منذ القرن 15 مع البرتغاليين أولا، ثم الهولنديين، ثم الإنكليز وانتهاء بالفرنسيين الذين وقعوا الكثير من الاتفاقيات مع أمراء محلين من أجل احتكارها وقد سببت تلك الاتفاقيات الكثير من التوترات والصدامات واستُغلت للتدخل في الشأن الداخلي.

واعتبرت في فترات أخرى ذرائع لإثارة النعرات والفتن بين الزعماء المحليين والنبلاء من

---

[237] -Histoire General de l' Afriqeu Noire de Madgascar, publiée sous la direction d'Hubert Descomps, Nouvelle – Edition- le archipeles trimstere1973 press.

238 . عبد الرحمن بن حرمه ولد بيانا. الحياة السياسية والحزبية الموريتانية طبعة الرباط 1991-1993.

[239] كلمة كانت تطلق على المترجمين في الفترة الاستعمارية ولكون اول حكومة وطنية ضمت الكثير منهم فقد استخدمنا هنا مصطلح.

طرف القوى الغربية. هذه السلعة الثمينة في الماضي كان تجارها يتكلمون على ما يبدو أكثر من لهجة من اللهجات للتعامل مع زبنائهم الأفارقة على الضفة الأخرى، وعليه أصبحت مصطلحا يطلق على كل ناطق بأكثر من لغة من هنا ربما جاء إطلاقها على المترجمين الذين كونهم الاستعمار من أبناء السكان المحلين للاستعانة بهم في التعامل مع السكان.

ونظرا لكون حكومة الاستقلال ضمت الكثير منهم بمن فيهم الرئيس المختار بن داداه، ولأنهم لعبوا الدور الأكبر في تكوين شخصية الدولة بعد ذلك، وطبعوها ببصمتهم، وتأثرت إلى حد كبير برؤيتهم، فإننا وللحد من تضخيم التعريفات المنهجية الدالة على هذه الإرهاصات سنستعمل هذا المصطلح لوضع القارئ في صورة الحقبة التي ننوي عرضها ونقاشها،حقبة لا تزال محكومة بقدر كبير من الرواسب الأيديولوجية، والديماغوجية هي الأخرى، بحاجة حسب اعتقادنا إلى تأمل بعيد قدر الإمكان عن التخندق أو التشيع مع أو ضد، لأنها مرحلة مهمة جدا من تاريخنا المعاصر، حيث هي المحطة الأخيرة من التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع والتي ألمحنا إليها سابقا بالمد"المرابطي" و"الانسياح الحساني" والاستعمار الفرنسي، ثم ظهور الدولة الذي سنختم به هذه القراءة، والذي لن نتناول فيه بالتفصيل مسوغات كل من الأطراف الفاعلة لعرض مشروعه، ولن نغوص في جوانب قد تكون مهمة، وإنما سنطل بشيء من الاقتضاب على جوانب ارتأينا أنها من مخلفات تلك الحقبة التي لم يتم بعد تجاوزها ولا حتى دراستها بعيدا عن نمط تفكير أهل زمانها وإعطائها ما تستحق كموروث وطني، بذل الفاعلون ما بوسعهم لترجمته إلى واقع ملموس، فحالفهم النجاح تارة والإخفاق تارات أخرى، وتلك ميزة كل عمل بشري وجزء من مسيرات الأمم، فلسنا بدعا عن القاعدة.

من هنا نود الإشارة إلى بعض الصعاب التي واجهت حكومة الاستقلال عند مباشرتها المشاركة في إنشاء الدولة الحديثة التي شاءتها فرنسا في الأساس، دون أن يكون لهم ماض نضالي من أجلها وذلك ما سيكون له تجلٍ آخر في ممارسة الدولة ومنهجية الحكم والتفاعل مع الأحداث. والأهم من كل ذلك هو غياب الشخصية الكاريزمية في تاريخنا المعاصر، حيث سيعطى النضال السياسي بعدا آخر ومعنى ايدولوجيا. كما سينظر إلى المقاومة بنظرة أحسن ما توصف به أنها تقزيمية، أو تقديمها على الأقل في الكتب المدرسية على أنها غير هادفة وغير ذات برامج، وإن لم يصرح بأنها مجموعات نهب، ورغم أن ذلك يفهم من الطريقة التي

يقدم بها الآخرون المتحالفون مع الاستعمار عندما تعتبر أعمالهم جهودا من أجل القضاء على النهب.

وهناك صعاب داخلية واجهتها حكومة الاستقلال تمثلت بعض أوجهها في بنية المجتمع غير المتحمس لفكرة الدولة الغائبة في ثقافته التاريخية، والمرتبطة في ذاكرته الحديثة بالمحتل الأجنبي الكافر، والتي لن تكون دولة الاستقلال سوى امتداد له والقائمون عليها ليسوا سوى موظفين ينوبون عنه.

هكذا نُظر إلى الدولة، وهكذا كان التعامل من طرف البعض، إن لم يكن الأكثرية مع إرهاصات بداياتها الأولى التي كان الساعون لها من الطبقة المتعلمة بمرجعيات مختلفة مناضلون ببرامج تضع البعد التاريخي والديني في الحسبان، محاولة التكيف مع واقع وخصوصيات المجتمع. وطبقة تهيئها فرنسا سائرة بها حسب برنامجها ومحدداتها للدولة لذلك لم ينظر من طرف العامة إلى الدولة كتعبير عن طموح محلي، حيث صدمت الأكثرية بإقصاء النواب الذين كانوا قريبا من الهم الشعبي الحقيقي والاستقلال المطلوب. وشعرت الجماهير بالإحباط نتيجة لتنامي نفوذ الزعامات التي نصب الاستعمار، والتي مارست القمع معه وبمباركته ومساندته، فزاد نفوذها الكبير المدعوم من طرف فرنسا التي بدت في نهاية الخمسينيات جادة في التخلي عن حكم مستعمرتها بطريقة مباشرة. وبدأت في تهيئة أشخاص من محيط النخبة التقليدية الموالية لها ليحكموا مكانها، وكانت طبقة المترجمين المكروهة شعبيا نظرا لدورها أيام الاستعمار في فرض إرادة زعماء القبائل وعلاقاتها العضوية معهم هي الأكثر حظا لما تتمتع به في الدوائر الاستعمارية من مصداقية.

هذا البعد الذي يشكل خلفية حكومة الاستقلال ظل يعبر عن نفسه بعد قيام الدولة الوطنية وشكل مع أمور أخرى بطبيعة الحال حاجزا فيما بعد بين المواطنين والدولة يمكن تلمس رواسبه حتى في وقتنا الحاضر لأن "إمالزن" كانوا أداة في يد الاستعمار وزعماء القبائل التقليديين، وكانت لهم سمعة سيئة كمرتشين ومخبرين ومتآمرين.

ومن الصعوبات كذلك التحديات الخارجية. فقد كانت تواجه الدولة الفتية تحديات من أهمها التحدي المتمثل في مطالبة المغرب بضم الدولة حديثة النشأة والهشة الأسس، باعتبارها جزءا

من أرضها التاريخية. وهذه المطالب هي مطالب أيديولوجية أكثر منها قانونية أوتاريخية إضافة إلى عدم وجود كفاءات محلية من أي مستوى قادرة على إرساء دعائم هذا المشروع الذي شاءته وهيئت له فرنسا بطريقتها..

في هذه الوضـعية ظهرت دولة اليبضـان. ومع أننا لا نريد مزيدا من الحديث عنها غير أننا سـنقدم بعض الملاحظات حول هذه الدولة الناشـئة، والتزاما منا بخط هذه الدراسـة في الحديث عن المسـكوت عنه أكثر من غيره، فإننا سـنتناول بعض الخيارات التي أصـبح التسـاؤل عن دوافعها مهماً ووارداً حتى لا تبقى الصـــورة الوردية الزائفة في بعض جوانبها الغالبة في حديثنا عن جيل التأسيس لهذه الدولة ومبالغتنا في إنجازاته الخارقة، وحتى لا يظل مقدسا متعال على الخطأ مثل ما عليه الحال مع حلفاء فرنسا.

تساؤلات .. لها مشروعيتها

سـبق و أشـرنا إلى أننا سـنهتم قدر المسـتطاع والمتاح بالجوانب المسـكوت عنها في تاريخنا المعاصـــر، اعتقادا منا أننا بذلك نشـــارك في المجهود الصـــعب الذي يقوم به بعض المختصـين لحفظ ما أمكن من ذاكرة الأمة المعرضـة هي الأخرى للضـياع، تحت ذرائع وحجج تسـتمد شـرعيتها في الغالب من أزمات في لا وعي المدافعين عنها من صـناع قرارت الثقافية عندنا، قرارات أنتجت برامج تعليم أحسن ما يقال عنها أنها مثيرة للشكوك حول الهدف المرجوي منها ومثال ذلك ما يتم تدريسه للأطفال عن معركة "بوكادوم" التي استشهد فيها الأمير بكار بن اسويد أحمد (أحد أشهر رموز المقاومة) .

كما لا ينتبه القائمون على برامج التربية (فيما يبدو) إلى ما يترتب عن ذلك المنهج التعليمي من آثار سلبية على نفس الطفل الذي سيتربى على الشعور بضعف قومه بل وعبثية مقاومتهم، فالقائد يموت في المعركة وينتهي الأمر، وكذلك معركة وديان الخروب التي اســـتشـــهد فيها الأمير سـيد احمد ولد عيدة، ، فما المانع من تدريس معركة "انيملان" التي هزم فيها الفرنسـيون هزيمة نكراء وأعطت دليلا على ما سـبق وأشـرنا إليه من أن المقاومة كانت حاضـرة حتى في صـفوف المجندين، حيث تعمد دليل القوة الفرنسية المرور بفرقتهم عبر المسلك الذي يكمن فيه المقاومون عند إنييملان.

كأن القائمين على وضـــع المناهج التربوية لا يعلمون شـــيئا عن معارك برجيمات واطليح النعمة ومعركة أم التونســـي وغيرها من المعارك المظفرة التي تحدث عنها الفرنســـيون بحســـرة وإسـهاب معترفين فيها بهزيمتهم، وكانت موضـع نقاشـات بين القادة العسـكريين على مسـتوى كبير، معارك تستحق أن تكون في بداية تلك المناهج.

ومن الملاحظات التي نود إثارتها هنا والمتعلقة بدولة الاسـتقلال في سـنواتها الأوائل، عند ما كان المعنيون بها يضـعون اللمسـات الأخيرة لمشـاريع بناء دولتهم، وعندما باشـروا تنفيذ تلك المشـاريع التي لم يكن نموذج الدولة الحديثة المتمشـية مع خصـوصـية مجتمعهم ضـمنها، ولم يكن يشـــغل حيزا كبيرا من اهتماماتهم كما يبدو رغم أهميته، بل اختاروا النموذج الجاهز من طرف فرنسا.

إن من أكبر ما واجههم هو خصوصية شعبهم، وفقر إرثهم من حقبة الاحتلال التي لم تعمر طويلا، ولم تشهد تفاعلا حضاريا ذا بال. فهل اهتموا بهذه الجوانب حسب تعاطيهم مع الدولة؟ ربما تكون هذه من الأمور التي أُجلت، أو أنها لم تكن من المُفكر فيه، ولما كانت خارج ما نرمي إليه رغم وجاهتها فإن ذكرنا لها لا يعدو كونه إجراء منهجيا تنبيهيا لا غير، مرتبين عليه بعض الملاحظات التي نعتقد أهميتها، وأن الوقت قد حان للحديث عنها، فقد بلغت الدولة سن الرشد، وأصبح بالإمكان إثارة بعض القضـايا الوطنية التي ظلت مغيبة، لاعتبارات آن لها أن تزول، إن لم تكن قد زالت بالفعل، كي نتمكن من وصـل حاضـرنا المأزوم بماضـينا الغامض لعل ذلك يضيء لنا الطريق، فبالماضي والحاضر يتم استشراف المستقبل.

من الأمور الحرية بالاهتمام كذلك الوقوف عند مســـألة اختيار النشـــيد الوطني: دوافعه ومحدداته، أهدافه ووظائفه. فمن المسـلم به أن الشـعوب تختار أناشـيدها بما يرمز إلى مكانتها بين الأمم وما يمجد أبطالها الذين ضحوا من أجلها، وأيام نضالها المشهودة. وفي أناشيد جيراننا ما يدعم ذلك مما سـنقف عليه لكن الملفت أننا نشـكل الاسـتثناء في منطقتنا حيث لا يحمل نشـيدنا أي روح لمعنى الوطنية، ولا أية إشـارة إلى أمجادنا مقارنة بكلمات أناشـيد دول الجوار، ولنأخذ أمثلة على ذلك نشيدي الجزائر والسنغال الجارتين كمثالين للمقارنة قط.

يقول النشيد الجزائري من كلمات مفدي زكرياء.

قسما بالنازلات الماحقات	والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات	في الجبال الشامخات الشاهقات
فنحن ثرنا فحياة أو ممات	وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
نحن جند في الحق ثرنا	وإلى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يصغى لنا لما نطقنا	فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش لحنا	وعقدنا للعزم أن تحيا الجزائر
يا فرنسا قد مضى وقت العتاب	وطويناه كما يطوى الكتاب
يا فرنسا إن ذا يوم الحساب	فاستعدي وخذي منا الجواب
إن في ثورتنا الخطاب	وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
نحن من أبطالنا ندفع جندا	وعلى أشلائنا نصنع مجدا
وعلى أرواحنا نصعد خلدا	وعلى هاماتنا نرفع بندا
جبهة التحرير أعطيناك عهدا	وعقد العزم أن تحيا الجزائر

أما النشيد السنغالي الذي تبدو النزعة الأفركانية التوحيدية بادية عليه فيقول:

اضغطوا جميعا على اوتار الكورا

اضربوا لبلافون. الأسمر الأحمر أحم إنه مروض الغابة

بقفزة واحدة انطلق ليبدد الظلام الشمس فوق أرضنا

الشمس فوق أملنا قفوا أيها الإخوة ها هي أفريقيا تجمعت

عروق قلوبنا خضر منكبا بمنكب أكثر من إخوة أيها السنغاليون قفوا

لنوحد البحار والأنهار لنوحد الغابات..الهضاب

سلام أفريقيا الأم.

أما النشيد الوطني الموريتاني فيقول:

كن لإله ناصرا	وأنكر المناكر
وكن مع الحق الذي	يرضاه منك دائرا
ولا تعد نافعا	سواه أو ضائرا
واسلك سبيل المصطفى	ومت عليه سائرا
فما كفى أولنا	أليس يكفي الأخرا
وقل لقوم احدثوا	في أمره مهاجرا
قد موهوا بشبهه	واعتذروا معاذرا
وزعموا مزاعما	وسودوا دفاترا
واحتتكوا اهل الفلا	واحتتكوا الحواضرا
واورثت أكابر	بدعتها أصاغرا
وإن دعا مجادل	في أمرهم إلى مرا
فلا تمار فيهم	إلا مراءً ظاهرا

والمثير للتسائل حقا هو كون صاحب كلمات النشيد الوطني ليس مناضلا، وإنما كان من الفقهاء المؤيدين لفرنسا، لاشك أن للقيمين على وضع النشيد مسوغاتهم، ولنا بالقدر نفسه قراءاتنا لأسباب اختياره، والذي نعتقد أن منها كون حكومة الاستقلال ليس لها ماض نضالي يجعلها تستحق تسلم إدارة البلاد، وإنما تم اختيارها إلى حد كبير من طرف فرنسا، اختيار اشتركت عوامل محلية (جدا) وإقليمية فيه، فأدركوا أن أي نشيد يُشيد بالمقاومة سيترتب عليه وصلها بحركة النضال السياسي من أجل الاستقلال، وهم خارج اللعبة. كما أن ذكر المقاومة سيظهر الفقهاء المؤيدين لفرنسا على أنهم لا يستحقون اعتبارا في الدولة الوطنية، وذلك ما سينتج عنه من جهة أخرى التشكيك في أحقية حكومة الاستقلال التي هي في الغالب من أبناء الأرستقراطيات والعائلات التي ساندت أو خدمت فرنسا، وليس لهم أي دور نضالي، فرئيس

دولة الاســتقلال كان في الحزب التقدمي المكون أســاســا من الزعمات التقليدية المتحالفة مع فرنسا.

من هنا يمكن أن نضـع نظرة دولة الاستقلال إلى نضـال الشيخ ماء العينين فبقي ذكره باهتا جدا ودون الدور الجبار الذي قام به في تاريخ البلاد. أما في العمق فإن أي إشـــادة بدور ماء العينين يترتب عنه التشـــكيك في الفقهاء الذين وقفوا إلى جانب قوات الاحتلال وذلك غير مرغوب فيه، والبقية من المجاهدين يتم الســـكوت عنهم أو التقليل من أهمية ما قاموا به لأنهم في الغالب ينحدرون من القبائل العربية، والدولة التي قامت هي دولة ينحدر غالبية قادتها من قبائل الزوايا، لا دور للعرب فيها، وبذلك ليس من البر الحديث عن (الأجداد) كعملاء كانوا يخدمون الإدارة الاستعمارية، والإشادة بخصـومهم من العرب.. نعتقد أن لهذا التفسير قدرا من المعقولية، وإلا فكيف نفســـر التجاهل الذي واجهت به الدولة الفتية تاريخ مقاومتها وهي المحتاجة إلى تاريخ تستند إليه كمسوغ لوجودها وكرمز لاستقلالها التاريخي؟

هذا من الأمور التي نعتقد أنها تحتاج الاهتمام من أجل تقديم تاريخنا كما هو لنتمكن من تجاوز عقدة تاريخ مناقب مشاهيرنا، والزيف الأيديولوجي لتحليلاتنا للوقائع.

نضـيف هنا ملاحظة أخرى تتعلق بمسألة عدم إسقاط عقوبة الإعدام التي أصدرتها سلطات الاحتلال في حق أحمد بن حرمه بن ببانا بعد عملية ما يعرف محليا " بغزي تكل"، الذي ردت عليه الســلطات الفرنســية والأســبانية بعملية "اكفيون"، لتتوج ذلك الحكم بعقوبة الإعدام بحقه، وحق أربعة آخرين من حزب النهضـــة على خلفية حادثة النعمة عام 1962، حيث نفذ الحكم يوم 28 ابريل من نفس العام في ثلاثة منهم وهم الشـــريف الولاتي مولاي علي الملقب "اماعل" بن الحبيب، والشيخ بن الفاضل، وسيد أحمد بن سويدات، وكانت المحكمة برئاسة أحمد بن باه وبحضـــور وزير الدفاع محمد بن الشـــيخ وهما أبناء قبيلة الرئيس المختار ولد داداه" وبعضـــوية الملازم معاوية بن سيد أحمد الطائع، إذن ظل الحكـــم ساريا على ولد حرمة إلى أن أسقطت فرنســا حكمها عــام 1973 "فأسقطت حكومة الاستقلال كذلك حكمها" وقد كانت أحكام الإعدام التي نفذت في ثلاثة من نشـــطاء حزب النهضـــة إيذانا بأن حقبة جديدة غير مســـموح فيها

بالوطنية المعادية لفرنســـا والمطالبة بالحقوق كاملة قد بدأت، وهي ما ســـيكتوي بنارها تيار الكادحين في سبعينيات القرن الماضي.

بعد إنجازنا لهذه الشـذرات المقتضـبة من تاريخ مقاومتنا للاحتلال الفرنسـي منذ بداية عبوره نهر السنغال في السنة الأولى من القرن الماضـي، وعلى امتداد ثلاثة عقود من الزمن قضـاها في وضـع غير آمن لم تشـهد فيه بلاد البيظان هدوء كليا، بل ظلت مضـطربة لا يسـيطر على جبهة إلا وتفجرت الأوضـــاع في جبهة أخرى، ورغم اختلاف المواقف لدى المهتمين مما حدث حيث يرجح البعض أنه ليس سوى أعمال نهب يقوم بها حفنة من قطاع الطرق تمشيا مع النظرة الاســـتعمارية، بينما يراه آخرون تطبيقا فعليا لموقف الســـكان من المحتل. وبين هذين الرأيين نكون –من خلال هذه المحاولة –الناقصة– قد استنهضنا الهمم حسب استطاعتنا رغم قصورنا، داعين النخب الأكثر منا تسليحا ومراسا والأثقب نظرا أن يهتموا بهذا الموضوع المنسي، فشعب بلا ذاكرة أو بذاكرة مشـــحونة برواية المحتل وقراءته للأحداث، و بأوهام وتحليلات تحاول التأسـيس الخرافي لتاريخ ما حدث تحت ذريعة الحسـاسـية، شـعب بهذه المواصـفات "كحالتنا" سيظل منفصم الشخصية فاقد لهويته الحقيقية.

أعتقد أن هذا الموضـوع غني جدا وبحاجة إلى أن يهتم به، وأن تعاد قراءته من أجل رسـم صورة حقيقية لما حدث فعلا، حتى يكون لمقاومتنا تاريخ بين مقاومات الشعوب التي تعرضت بلادها للغزو الاســـتعماري مثلنا، فقد قاوم الموريتانيون الاحتلال كغيرهم من شـــعوب العالم، حسب إمكانياتهم وظروفهم ونظرتهم إلى واقعهم وفهمهم لأوضاعهم. كما لم يكن الاستعمار منة أنقذتهم من الحروب بل إنه دمر البلاد، وشـرد المواطنين، ونهب الثروات، وخلف جراحا عميقة لم تندمل بعد مهما كانت انجازاته.

والله أرجو أن يتقبل مني هذا العمل وأن يجعله في ميزان حســـناتي،وأن يتقبل شـــهداء هذا الوطن المنسين عنده شهداء من أجل أن تكونه كلمته هي العليا.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

الكتب:

- ابن كثير أبي الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار الفيحاء، دمشق – مكتب دار السلام، الرياض، الطبعة الأولي، 1994.

مالك بن أنس: الموطأ، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، الطبعة الأولي، 1993-1413.

أبو العباس أحمد بن اسحاق اليعقوبي كتاب البلدان منشورات المكتبة الحيدرية النجف 1957م

أبو القاسم محمد بن حوقل كتاب صورة الأرض منشورات مكتبة الحياة بيروت 1979

أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري المغرب في ذكر افريقية والمغرب المطبعة الحكومية الجزائرية بدون تاريخ.

بلغيث بن جعفر تحقيق أجوبه العلامة جعفر بن المهدي النعماوي بحث لنيل شـــهادة المتريز معهد بن عباس للدراسات الإسلامية بموريتانيا السنة الجامعية 1996-1997

أحمد بن إبراهيم بن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان دار الثقافة بيروت 1971

أحمد بن بدي :الدرع والمعفر في الرد عن الشـــيخ عمر تحقيق الطالب محمد الأمين بن محمد بحث لنيل شـــهادة المتريز في العلوم الشـــرعية المعهد العالي للدراســـات والبحوث الإســـلامية بنواكشوط للسنة الجامعية 1986-1987

أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ط 4، القاهرة، 1987

امحمد بن أحمد يوره: إخبار الأحبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد جمال ابن الحس، منشـــورات المعهد الإفريقي، الرباط، 1992م.

إزيد بيه بن محمد محمود: الزوايا في بلاد شـنقيط في مواجهة الاسـتعمار الفرنسـي، الطبعة الثانية، المطبعة الوطنية الموريتانية، نواكشوط، 2002م

البرتلي الطالب محمد بن أبي بكر الصـديق فتح الشـكور في معرفة اعيان علماء التكرور منشورات دار الغرب الاسلامي بيروت 1986

بابه بن الشـيخ سـيديّ: إمارتا إيدوعيش ومشـظوف، تحقيق إزيد بيه ولد محمد محمود، جامعة نواكشوط، ط1993،1م.

بيير بونتي: إمارة آدرار نبذة تاريخية، ترجمة بوبه ولد محمد نافع، نواكشوط، 2002م

الخليل بن النحوي: شنقيط المنارة والرباط، الطبعة الأولي، تونس، 1987م.

كلود ليفي شـتراوس: العرق والتاريخ، ترجمة الدكتور سـليم مراد، المؤسـسـة الجامعة للدراسـات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة،1997م.

محمد بن أحمد بن جزي: الأحكام الشـرعية والمسـائل الفرعية والقوانين الفقهية، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

محمد المختار بن السـعد:التبادل التجاري والسـياسـي بين إمارة الترارزة والفرنسـيين من عام 1701-1760، الجزء الثاني، منشورات المعهد الإفريقية، الرباط، 2004م

محمد فال العلوي: كتاب التكملة في تاريخ البراكنة والترارزة، تحقيق أحمد جمال ولد الحسـن، منشورات بيت الحكمة، تونس، 1986م.

محمدو بن محمدن: المجتمع البيضـاني في القرن التاسـع عشـر، منشـورات المعهد الإفريقي، الرباط،2001م.

محمدو بن محمدن: وثائق من التاريخ الموريتاني، منشورات المعهد الإفريقي، الرباط، 2002م

محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري: الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1995م

محمد المصـــطفى بن الندي دراســـة تحت عنوان دور المحاظر في موريتانيا وهو عمل غير مؤرخ.

المختار بن حامدن: موسوعة حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولي، 2000م

المختار ولد اندري الحياة الاقتصـــادية والاجتماعية في الترارزة 1770-1830 مذكرة لنيل الاجازة في التاريخ جامعة نواكشوط 1985.

- القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي، 1988.

الشـوكاني محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فتوى الرواية والدراية من علم التفسـير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988م 1403.

الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل الحسني هداية من حارا في أمر النصارى، الرباط، الطبعة الأولي، 1999م

عبد الله ولد محمد سالم الشعر الشنقيطي من القرن 12-13 هـ المرجع والبيئة أطروحة دكتورة دولة جامعة محمد الخامس الرباط السنة الجامعية 2000م2001م

الصاوي: تفسير وحاشية تفسير الجلالين، الجزء الثالث، دار الفكر، بيروت، 1993م.

عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، الطبعة الخامسة، دار الكتاب العربي

عبد الرحمن بن حرمه بن ببانا: الحياة الحزبية والسياسية الموريتانية، الرباط، 1993م

روجيه غارودي: أمريكا طليعة الانحطاط، ترجمة عمرو زهيري، دار الشرق، القاهرة

الخرشي: شرح مختصر الشيخ خليل، دارالفكر، بيروت، 1975

الشيخ سيد المختار بن أحمد الكنتي: فتح الودود في شرح المقصور والممدود، تحقيق مأمون أحمد، الناشر الحاج محمد آغا، دمشق، 2002م

الغرناطي محمد المواق: سنن المهتدين، سلا، المغرب الطبعة الأولي، 2002م

الشيخ الطالب اخيار بن الشيخ ماميا :الشيخ ماء العينين علماء وامراء في مواجهة الاستعمار الاوربي ج2 ط2 مطبعة المعارف الجديدة الرباط 2011

المخطوطات .

جعفر بن المهدي: أجوبة في المنطق والفقه، تحقيق أبو الغيث بن مولاي أحمد بن جعفر، معهد بن عباس للدراسات الإسلامية، شعبة الأصول، السنة الجامعية 1996-1997م.

- الطالب أبوبكر المحجوبي: حولية ولاته، مخطوط.

- محمد المصطفى بن آل دحان الايديلبي: حولية النعمة، مخطوط.

محمد المختار بن مباله: نصـــيحة الأقوام في الحث على الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل الحسني: الجواب المحتوم للمعترض علينا في أمر الروم، مخطوط.

الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل الحسني: الرسالة العامة والخاصة في التحذير من محاربة لفرانصه، مخطوط.

. الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل الحسني: المُحرش، مخطوط.

مجلات:

نوافذ: مجلة ثقافية فصلية، مغربية، العدد 10-11، يناير، 2001م.

الموكب الثقافي مجلة موريتانية العدد 36-37 لعام 2004م

مجلة التعليم المعهد التربوي الوطني الموريتاني

صحيفة القلم الموريتانية، الطبعة العربية، العدد 232، بتاريخ 31 مارس 2002م.

التقارير والرسائل والوثائق:

تقرير إفريقيا الفرنسية مارس 1912 (الهدوء في الحوض).

تقرير إلي الحكومة العامة في دكار ديسمبر 1914 إفريقيا الفرنسية يناير فبراير 1915، (الموقف في موريتانيا).

وثائق خاصة بمكتبة الدكتور عبد الرحمن ولد حرمة ولد ببانا العلوي.

جعفر بن المهدي : رسائل خطية.

محمد يحيي بن محمد المختار الولاتي: رسالة خطية.

الحاكم الفرنسي في باماكو: رسائل خطية

الندوات:

ندوة "الفقه في شنقيط"، جامعة نواكشوط، عام2004م.

ندوة "حركة المرابطين، جامعة نواكشوط، عام 1996

الاستاذ الخليفة بن التاركي: محاضرة حول تاريخ أهل عبدوك: مهرجان ولاتة يناير 2014

الاستاذ محمد سالم بن عليه نائب رئيس منظمة تثمين تراث المقاومة في برنامج تلفزيوني بثته قناة دافا في يونيو 2015 في ذكرى عملية تجكجة.

المراجع الأجنبية

- Boubrek Rahaly : La Confrerie Fadilliya l' Islam saints et societ en Ouste Saharienne, paris, 1999 .

- Commandent Frerjean : Mauritanie 1903-1911,

Mémoires de randonnées et de guerre au pays des beidanes, Edition karthala, paris, 1995.

- Commandant Brevete Gillier : La pénétration en Mauritanie, decouvert, exploration,conquete : la police de sesert et la pacification definitive, librairieorientaliste du Paul Geuthuer,Paris, 1926.

- Hubert Descomps et autres : Histoire General de l'Afrique Noire de Madgascar et Desarchipeles, P.U.F, Paris, Nouvelle –Edition, le trimstere1973.

- Général Gouraud : La pacification de la Mauritanie. Journal de marche et opérations de la colonne de l'Adrar, Mauritanie –Adrdr - souvenir d'un Africain, (1907-1910) Plon. Paris 1936,2é Edition, 1949.

- Joseph ki-zerbo : Histoire de l'Afrique Noir, edicaf,Paris, 2004,1ér Edition 1978.

-Ougiras Chef d'escadron et Chronique d'oustesaherien1900-1930 :Renseignements Coloniaux, mai 1930.p324

- Mme Genvieve desire-vuillmih : Contribution à l'Histoire de la Mauritanie, Edition c/Afrique, Dakar,1961.

- Poule Marty :Études sur l'Islam et lesTribus du Sahel, Paris , Editoin ernest Leroux 28rue bonaperte (vie), 1930.

- Mehdi ould Moulaye El-hassan: du Tafilalt au Hodh Charghgui la Saga Saharienne des awlad Sidi Hammou Ben El-haj, Publication, De Institut des Etudes Africaines, Rabat, 2002.

- Sennen Andiamirado : Le Mali aujourdhui, les Editions des

jaguar,Paris, nouv - éde, 2003.